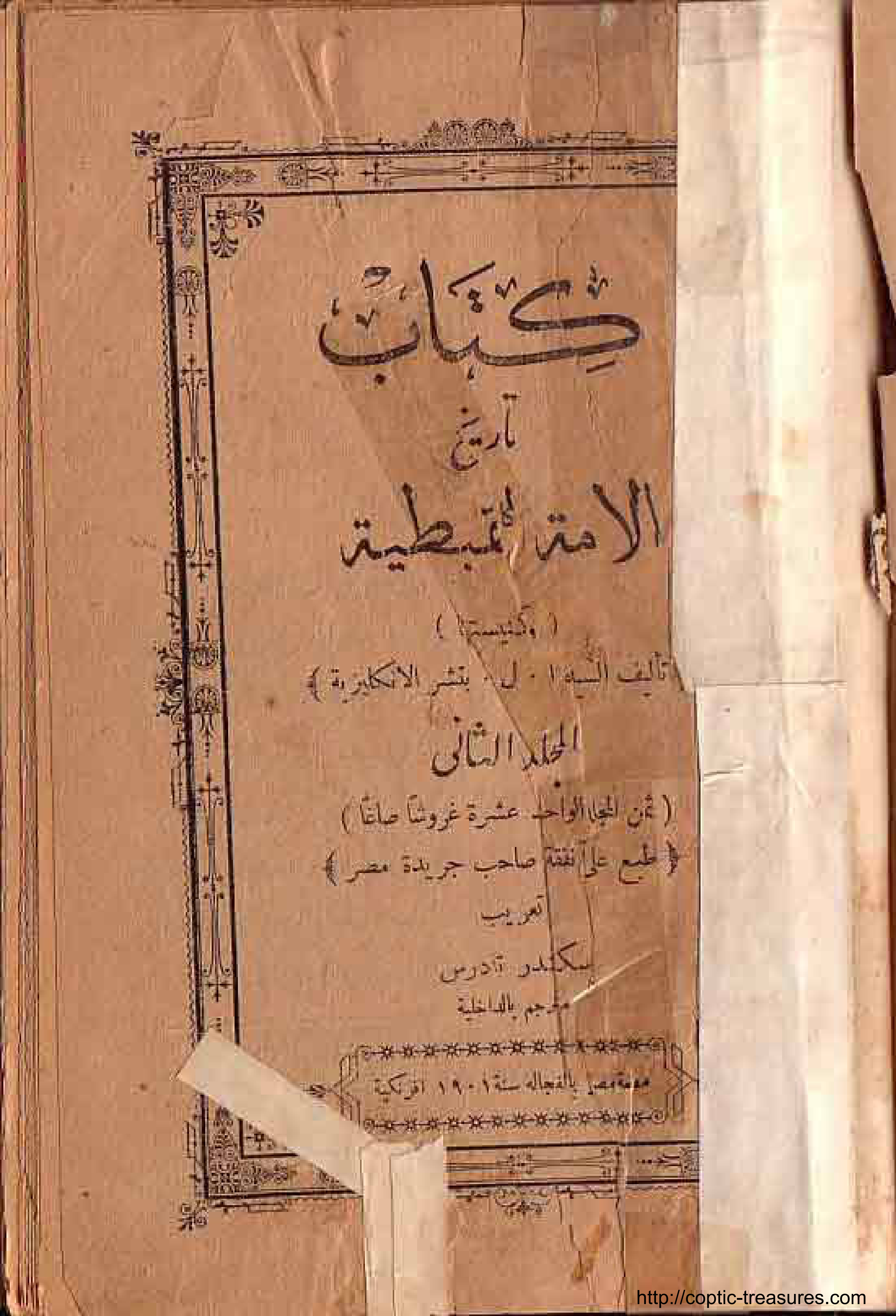


كتاب
تاريخ
الامة القبطية

(وكنيستها)

(تأليف السيدة ا . ل . بتشر الانكليزية)

المجلد الثاني

(ثمن المجلد الواحد عشرة غروشاً صاغاً)

(طبع على نفقة صاحب جريدة مصر)

تعريب

اسكندر تادرس

مترجم بالداخلية

مطبعة مصر بالفجالة سنة ١٩٠١ افرنكية

المجلد الثاني

الفصل الثاني والعشرون

شنوده الاخميمي وغيره

سنة ٤١٣ للمسيح ١٢٨ للشهداء

بينما كان سينيشوس المار ذكره في الفصل السابق يجاهد جهاد الابطال ويبذل قواه في صد الاعداء عن حدود مصر من الشمال الغربي ظهر رجل آخر ذاع صيته كثيراً في ذلك الوقت واشتهر في العالمين شهرة قل ان وصل اليها آدمي في ذلك الحين ولولا ذكره انطفى في هذه الايام واصبح الذين يذكرونه او يعرفون شيئاً عنه يعدون على الاصابع . هذا الرجل بزغ في صعيد مصر وعرف بالتقوى والقداسة وصرف اوقاته وجهده في الصلاة والصوم والجهاد ضد الخطية وهذا النابغ هو شنوده الاخميمي

ولد شنوده (١) هذا في قرية صغيرة لا تزل باقية الى الآن على مسافة

---

(١) ان اسم شنوده اختلط مع الاسم اللاتيني سنوتيس ويقال ان شنوده كلمة مصرية قديمة معناها (ابن الله) . ومن غريب الامور ان مستر كرزون الانكليزي الذي زار الاديرة سنة ١٨٣٣ قال في كتابه عنها (لم يسعدني الحظ بمقابلة احد ليخبرني عن حقيقة حال ابو شنوده واعماله وسبب اكرام الناس له واعتبارهم اياه من مصاف القديسين ولذلك ظننت انه احد الاولياء المسلمين (كذا) وضع هذا الدير القبطي تحت حماه في اوقات الاضطهاد حتى لا يمسه المسلمين بسوء ولذلك سمي باسمه)

ميل او ميلين من بندر اخميم للشمال الغربي (لعلها ناحية الصوامعة) وكان ابوه مزارعاً مشهوراً ذا ثروة طائلة يمتلك قطعاناً كثيرة من الاغنام ولذلك كان شنوده يذهب مع احد الرعاة ليساعدهم في اعمالهم وهو بعد فتى يافع ولكنه لم يكن يشتغل معهم قط بل كان يصرف كل اوقاته في الصلاة والعبادة ولذلك طلب الراعي من مخدومه ان يمنع هذا الصبي عن الاشتغال في الحقول بل يأخذه الى مكان يناسب ميله وفطرته · وعليه أرسل شنوده الى دير قريب من بلدته كان خاله رئيساً له فشب فيه كراهب اذ كانت الرهبنة في هاتيك الايام درجة يسعى اليها كل مصري حاذق لما فيها من الارتقاء دينياً ودنيوياً كما سبق معنا تفصيل ذلك في الكلام عن «انحطاط الامة المصرية» · ومع ما كان عليه شنوده من الشهرة الفائقة والتقوى الصحيحة فقلّ ان نعرف شيئاً عن حياته حتى تكون مشكاة للآخرين وقدوة حسنة للقارئين كما عرفنا الشيء الكثير عن اعمال ذلك الفيلسوف العالم والبطل المغوار سينيشوس · والذي يقرأ تاريخ شنوده يجد صعوبة كبرى في التمييز بين الوقائع الحقيقية التي وقعت له ومعه وبين الخرافات والروايات الكاذبة التي أُفعم بها تاريخه كما كان الحال مع غيره من القديسين المشهورين · ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان جماعة القديسين والنساك الذين صرفوا حياتهم في الزهد والانعكاف كان الناس يرتأون ان لهم قوة واقتداراً يفوقان حد الوصف وان لهم سراً في الاعمال لا تدركه العقول · ويقرب من الظن ان صاحبنا شنوده كان يجتهد باي واسطة من الوسائط

في استعمال مواهبه الطبيعية للتأثير على الرهبان الذين كانوا تحت سلطته وملء افهامهم بمقدرته وسطوته وهو عمل لا يبرره من تهمة الايهام والتغرير ولكنه من وجه ديني يعتبر عملاً نافعاً قد يتخذ عذراً لعمله هذا · انما شنوده عمم مبادىء العدل وشد ازر الحق في جميع البلاد المجاورة له بطريقة القسر والضغط بشرط انه لم يكن يوجد من يقاومه في حكمه او يرد له كلاماً

من ذلك ان رجلاً جاء الى شنوده واعترف له بانه اقتفى آثار شخص غريب وقتله لانه كان يحمل كيساً ظن القاتل انه مملوء من الذهب الوهاج وانه لم يجد فيه سوى قطعة من الذهب · ثم سأله القاتل ان ماذا اعمل لكي اخلص وتغفر خطيتي الكبيرة هذه

فامرهُ شنوده ان يسير تواً الى اخميم فيجد جماعة من اللصوص الذين سرقوا منزلاً بالاكراه يحاكمون امام حاكم الاقليم فيدخل في زمرتهم ويحاكم معهم منتظراً نصيبهُ الذي يصيبهُ · ثم اوصى شنوده القاتل بانهم «اذا سألوك عما اذا كنت مع هؤلاء الاشقياء فاجب بالايجاب وحينئذٍ يصدر الحكم عليك بالاعدام فتكون بذلك قد كفرت عن خطاياك وتنال الحياة الابدية» فسار الرجل مسرعاً كما امرهُ شنوده وحوكم مع اللصوص واعدم نظيرهم

وكثيراً ما كان الناس الذين تسرق اشياءهم يرفعون اليه دعواهم فكان يظهر السارقين ويضطرهم الى ارجاع المسروقات او التعويض عنها

كذا اعاظم الامة وكبار الشعب كانوا يجيئون اليه من كل فج سحيق

لاستشارته في معضلات الامور واخذ رأيه في المسائل الهامة فكان يكشف لهم عن غامض اسرارهم ويزيح الستار عما أعضل من امورهم حتى ان كثيرين من البسطاء كانوا يصدقون انه ايليا النبي او حزقيال النبي او احد هؤلاء الانبياء الكرام الذين يخاطبون العزة الالهية رأساً بدون وساطة احد الملائكة او الارواح الطاهرة

وحدث مرة ان قائداً رومانياً كان سائراً في جيش عرمرم ليرد غارات الاعداء عن حدود مصر القبلية فمرَّ في طريقه على دير انبا شنوده ليستشيره في امر هذه الحرب ويطلب دعاءه وبركته (١) · اما انبا شنوده فكان قد اعتزل مكاناً قصياً في الجبل حيث يصرف وقتاً في الصلوة والابتهال الى الله ليرد عنهم مصيبة كانت تتهددهم هي ان النيل في تلك السنة كان واطياً ولم يكن منتظراً ان يروي الاراضي · ثم شدَّد انبا شنوده الاوامر على الرهبان بان لا يأتوا اليه في عزلته ولا يزعجوهُ لاي سبب من الاسباب وعليه اخبر الرهبان ذلك القائد الروماني انهم لا يقدرون على الذهاب الى هذا القديس المحترم ولا اقلاق خاطره في وحدته الا بعد انتهاء الاسبوع الذي خصصهُ للصلوة والعبادة · اما القائد المذكور فاعلن الرهبان بانه لا يستطيع مبارحة الدير قبل مقابلة شنوده وعليه ضرب خيام عساكره على مقربة منهم وطلب من الرهبان ان يقدموا زاداً ومؤونة لكل رجال الجيش فلم يمضِ ثلاثة ايام على هذه الحالة حتى ضجر الرهبان من

(١) هذه الحادثة وقعت في سنة ٤٥٠ عند ما بلغ شنوده المائة سنة من عمره

هذه المصاريف الباهظة ولم يمكنهم القيام بها يوماً واحداً بعد ذلك فانفذوا شخصاً اسمه ويصا كان كاتباً عند شنوده ومحبوباً لديه وطلبوا اليه ان يلتمس من ابيهم هذا ان يحمي ويتقدم من هذا الهم الثقيل . فاحتد شنوده كثيراً لمخالفة اوامره ولكنه عاد الى صوابه ورأى ان تلامذته معذورون في الحاحهم عليه والسير ضد رغبته فسمح للقائد بمقابلته فقابله وصرف معه وقتاً طويلاً ثم توسل اليه القائد ان يمنحه واحدة من حياصاته (حزامه) فمنحه شنوده اياها لكي يتمنطق بها وقت محاربته مع جماعة الغزاة ليسهل له النصر عليهم بواسطتها . قيل انه لما حمي وطيس القتال وعلا سعير نار الحرب نسي القائد لبس الحياصة ولذلك انكسر شر كسرة وهزم جنده وطاردهم العدو يومين كاملين ولكن القائد تذكر المنطقة فما لبث ان تمنطق بها حتى كر خلف اعدائه وهزمهم هزيمة مرة !!!

وكان انبا شنوده عدواً لدوداً للديانة الوثنية التي كانت آثارها لم تزل موجودة في بعض مراكز الوجه القبلي وكثيراً ما كان يسير الى قرية وثنية في جيش من الرهبان فيدمر منازلها وينهب ما فيها من الامتعة وذلك عند ما يرفع له احد المسيحيين شكوى من وثني لانه كان قد وضع جميع المسيحيين هنالك تحت ظل كنفه . وحدث مرة ان بعضهم رفع له شكوى من ان احد ارباب الكروم من الوثنيين غدر مستخدميه المسيحيين ولم يدفع لهم شيئاً من اجورهم بدعوى ان كرومه فسدت ولم تنتج خمراً وانه خسر بذلك خسارة فادحة . فحشد شنوده حالاً جيشاً من الرهبان وسار ضد ذلك

الوثني الذي اجحف بحق المسيحيين فاتلف امتعته وهدم منازله

وكان مرة ان رجلاً غنياً جداً اسمه بطرس جاء الى شنوده من احدى البلاد المجاورة لبلدته وطلب منه بركة ودعوات طيبات وقدم له هدايا وعطايا . فقابله شنوده بغضب وحنق ووبخه توبيخاً صارماً لانه كان متزوجاً بابنة اخته . فاعتذر الرجل بالعادة الجارية من ان للفتاة ارثاً معه فاضطر ان يتزوجها لئلا يأتي اجنبي ويأخذ هذا الارث ويتداخل في شؤون العائلة *

فاجابه القديس شنوده بغيظ « ألم تقرأ ما ورد في الانجيل المقدس حيث قال : ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه او ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه » فانتفض صاحبنا الغني وصار كعصفور بالله القطر ثم التفت الى القديس وقال « آه يا أبت ألا يوجد طريق للتوبة والخلاص أطرقه الآن (١) فاجابه الاب « نعم يوجد » فقام الرجل من فوره وسار مسرعاً الى بيته ثم عاد ومعه ٥٠٠ قطعة من الذهب وقدمها لانبا شنوده وطلب منه ان يوزعها على الفقراء والمساكين تقدمة عن روحه

* (المترجم) لعل الادباء يذكرون ان هذا العذر لازال يتبجح به بعض الآباء الذين يجبرون ابناءهم اجباراً على الزواج بفتيات من اقاربهم خوفاً من ضياع الارث وذهابه في ايدي الغرباء . فانه اذا كان الزواج بابنة الاخت حراماً شرعاً لا يقبل معه عذر فان اجبار الابن بزواجه بأية كانت لا يجوز عقلاً ولا شرعاً . ولعل في هذا ذكرى لهؤلاء الطماعين الغافلين

(١) كانت شيعة نوفاتيانوس وبعض اعضاء الكنيسة المتطرفين يذهبون ان لا توبة ولا مغفرة للذين ارتكبوا خطايا كبيرة بعد عمادهم

فقال له شنوده « انا لا يمكنني اخذها فقط عليك أن تذهب الى صومعة الآب (افلو) واطلب منه ان يبحث لك عن شخص امين يأخذها منك ويبقيها عنده للغرض الذي انت تطلبه » فسار بطرس من حينه الى المكان الذي عينه له شنوده حيث وجد هناك الآب بولص رئيس دير بويط (ولعله بوش بمديرية بني سويف) الذي اخذ المبلغ منه بكل سرور ومن ثم عاد بطرس الى امرأته وقال لها « أتعلمين يا اختي اننا كنا عائشين عيشة خاطئة دون ان نعلم ذلك » وحينئذ وهب جميع امواله واملاكه الى امرأته هذه بعد ان طلقها وصار راهباً من اتباع شنوده ومريديه (١)

وكان يوجد على مقربة من انبا شنوده رجل شهير نظيره كان قد بلغ من العمر اشده في ذلك الوقت وهو مار يوحنا الاسيوطي (المار ذكره) او هو يوحنا النجار كما ورد عنه في الكتب القديمة لانه كان نجاراً قبلما يصير راهباً . وقد شابه يوحنا هذا انبا شنوده في بعد الشهرة واصالة الرأي حتى ان الامبراطرة والملوك كانوا يستشيرونه في كثير من الامور المعضلة . قيل ان انبا شنوده عوّل على زيارة يوحنا هذا في ديره عند اسيوط ولكن الوفاة ادركت يوحنا سنة ٣٩٤ وله من العمر تسعون عاماً . وكان لهذين القديسين ثالث وهو بلاديوس الذي كتب كثيراً عن الرهبنة في الجيل الرابع ووضع تاريخاً لها وكان منبت اسلته في مصر الوسطى حيث طاف كثيراً وهو يبحث

(١) لا زال يوجد ليومنا هذا عشر كنائس باسم ابو شنوده في مصر الوسطى وواحدة له ايضا في قلعة بابيلون الرومانية

وينقب عما يختص بالرهبنة واصولها . ولما جاءت سنة ٣٩٩ انحطت قوى بلاديوس هذا وساءت صحته فسار الى الاسكندرية ليستشير اطباءها في أمر مرضه فاشاروا عليه بمغادرة مصر والذهاب الى فلسطين فذهب اليها حيث سيم اسقفاً في هيلنوبوليس بمقاطعة بيت عنيا ومن ثم صار صديقاً حميماً لكريسوستم مطران القسطنطينية حتى انه عندما نفي هذا المطران سنة ٤٠٤ طرح بلاديوس في السجن مع اساقفة كثيرين كانوا يحبون كريسوستم وعوملوا بالقسوة والخشونة وأخيراً في سنة ٤٠٥ نفي بلاديوس الى اصوان ومرّ في طريقه على اسيوط واخميم . ولما تنيح البطريرك ثوفيلس صرّح لبلاديوس أن يترك اصوان على شرط ان لا يعود الى ابروشيته فغادرها الى اقاليم مصر الوسطى حيث صرف فيه نحو اربع سنوات بداء في اثنائها بكتابة تاريخ الرهبنة وأتمه في سنة ٤٢٠ . اما شنوده فعاش بعد يوحنا وبلاديوس (١) الى أن تولى كرسي البطريركية كيرلس (٢) الذي كان يهتدي بآراء شنوده في عويص المشاكل وكان صديقه المخلص له

---

(١) ذهب بعضهم الى ان مؤلف الكتاب الثمين المسمى (الهنود والبراهمة) هو بلاديوس المتقدم ذكره ولعل سبب هذا الظن هو المشابهة في الاسم بين بلاديوس هذا وآخر سميه . والحقيقة هي ان بلاديوس الذي نحن في صدده سافر الى الهند وغرضه درس فلسفتها واستيعاب علومها وقد التقى في طريقه باسقف مدينة ادول وهي ميناء واقعة على البحر الاحمر وطلب منه ان يرافقه في رحلته هذه . فعانى الاثنان من الصعوبات والمتاعب ما يصعب وصفه ولذلك لم يمكثا هنالك طويلاً بل عادا ادراجهما الى مصر . وكان يوجد رجل آخر اسمه بلاديوس يتجر في المصنوعات الهندية رحل قاصداً بلاد الهند للغرض الآنف ذكره مع كاهن اصطحبه معه فلم يصلا سيلان حتى اسرهما قوم هناك وظلا في الاسر ست سنوات الى ان من الله عليهما بالفرج فاطلق سراحهما . اذاً فالظن المذكور بأن بلاديوس هو واضع ذلك الكتاب يقرب من الحقيقة او هو الحقيقة بعينها .

(٢) ظهر في اخميم في أيام شنوده رجل شاعر مشهور هو كيروس الشاعر المصري المعروف

وقد اشتهر في هاتيك الايام راهب عفيف النفس ابيها اسمه ايسداروس ظهر في مقاطعة بلوزيوم باقليم الوجه البحري وكانت بلوزيوم هذه اقوى حصن حربي على حدود مصر من الشمال الغربي · وكان سكان هذه الجهة يختلفون كثيراً في المعرفة والفهم من سكان الوجه القبلي البسطاء ورهبانه السذج الذين كانوا يعتبرون شنوده حتى كادوا يعبدونه بعد الله عزّ وجلّ · وكان ايسداروس يمتاز عن غيره من جماعة النساك في انه عاش في مدينة عامرة آهلة بالسكان حيث صرف كل حياته في توبيخ وتعنيف الذين عاشوا عيشة دنيوية من زملائه الذين كانوا يهتمون بالامور الجسدية اكثر من اهتمامهم بالامور الروحية · وتفصيل ذلك ان السلطة الزمنية الكبرى التي اصبحت في ايدي الاساقفة في تلك الايام لسبب ضعف وخبث الحكام الرومانيين كانت تجربة عظيمة لهم سقط في مهواتها كثيرون منهم وهو شيء طبيعي ورثه البشر عن ابيهم ادم او هي ذات التجربة التي سقط فيها هو اذ احب الرفعة وطلب المزيد من الرئاسة فهوى الى الحضيض · ولا يخفاك ايها القارىء ان المبدأ الفاسد الذي ذكرناه لك في المجلد الاول تحت عنوان « انحطاط الامة المصرية » كان لا يزال سارياً بين المصريين سريان النار في الهشيم · فانه اذا كان يوجد رجل شهم ابي طامح نحو الشهرة الصحيحة محب لوطنه لا يفيد شيئاً ولا يستفيد من شيء ان لم يدخل في زمرة الرهبان اذ يصير فيما بعد رئيس دير

الذي كان صديقاً لايدوشيا زوجة الامبراطور ثيودوسيوس الثاني · وقد تقلب كيروس هذا في ايام ثيودوسيوس في مناصب عالية الى ان صار قائد الجيش المصري في بلاد العرب · ولكن نالمعة اثرت في قلبه فترك المراتب الرفيعة ليخدم سيده وحينئذ تعين اسقفاً في احدى الابروشيات

أو اسقفاً . فاذا رأيت رجلاً في ذلك الحين قد سمت مبادئه وارتفعت صفاته وحسنت اخلاقه ورق شعوره واتسعت مداركه فاعلم ان هذا الرجل سيكون راهباً او بالحري سيموت لانه لايترك نسلاً بعده يرثه في تلك السجايا المليحة ويفيد امته ووطنه . ولقد طالما مات الرهبان وهم احياء خصوصاً عند ما ارتقوا مسند الاسقفية اذ انتفخت اوداجهم وورمت صدورهم واتخذوا لانفسهم ابهة الملوك وفخفخة العظماء والنهم متسلطون على الشعب زمنياً وروحياً . واذا قلت ان حكمهم الزمني كان عادلاً محبوباً عند عامة المصريين وخاصتهم اجبتك انه كان جائراً على الكنيسة في انها لم تستفد من رئاستهم عليها لانهم لم يكونوا يقدرون على ادارة الحكومة والكنيسة في آن واحد وليس في استطاعة الانسان ان يعبد ربين . وكان من حرية فكر ايسداروس انه اعترض على الكنائس الجميلة التي كانت مقامة في جميع بلاد القطر واظهر اشمئزازه من زينتها وبهرجتها بقوله « ان ابن الله لا يحل في وسطنا لاجل فخامة البنيان وزخرفة الجدران بل لاجل نفوس طاهرة وارواح منكسرة جاء وسكن في قلوبنا . ولو استطعت ان اختار الزمن الذي اعيش فيه في هذا العالم لاخترت عصر الرسل الذين لم يكن في كنائسهم شيء من الزخرف والبهرج بل كانت متشحة بالنعمة مزينة بالروح المعزي بعكس كنائس وقتنا الحاضر التي اصبحت مغطاة بكل انواع النقوش والصور محلاة بالرخام والمرمر ولكنها خالية من المواهب الروحية عارية من كل نعمة وعطية سماوية » وقد تكلم ايسداروس عن وظيفة الاسقف فقال « انها وظيفة عمل وكد

لا ضعف واسترخاء وعناء وكدح لا ترف ورفاه كما انها مرتبة دينية تلقي على متقلدها مسئولية عظمى وليست وظيفة عالمية لا يسأل الموظف فيها. بل بالحري هي عبارة عن علاقة ابوية فيها يرعى الاسقف شعبه بكل حنو ولطف وليست سلطة زمنية يستعمل فيها الجبروت والعنف. ومع هذا كله فلا انكر انه يوجد اساقفة قلائل جداً يبذلون ما في وسعهم ليعيشوا كما عاش الرسل الاطهار من قبلهم ساعين مجتهدين في اراحة شعبهم وايرادهم موارد كلمة الله العذبه »

كذلك تذمر ايسداروس كثيراً من شح الرهبان وعدم اكرامهم للضيوف والنزلاء ومن شراهتهم ونهمهم وشراستهم وخصامهم.

ولنبحث الآن في ما قال عنه ايسداروس « شراهة ونهم » وننظر اذا كان في عمل الاساقفة ومعيشتهم وما كلهم ما يستوجب اطلاق هذا النعت عليهم فنقول ان ناسكاً كايسداروس كان قد بلغ من العمر اعظمه يظن ان المآكل البسيطة والطعام المطبوخ المستوي يعد تلذذاً للجسد وافراطاً في الترف والاسراف حتى انه قال ان الخبز والماء والملح والخضار النيء تكفي لغذاء الجسد وحفظه من الفناء.. كما ان الناسك لا يلزمه ان يتدثر بعباءة إلاَّ اذا كان شيخاً هرماً فيحق له ان يلبس رداء قديماً بالياً اذا رماه في عرض الطريق اياماً لا يمد أحد يده ويأخذه لرثاثته وبلائه (١) وقد بلغ من

(١) تقول حضرة المؤلفة (انه في القرن التاسع عشر فقط أذن للرهبان المصريين بتناول اللحم مرة في الاسبوع وذلك يوم الاحد بدل مرة واحدة في الشهر) ولكن هذا ليس بقانون يحتم عليهم جميعاً. قال المترجم يعرف بعض رؤساء الاديرة يأكلون خروف زق كل يوم ويشربون من الصيدليات المهمة ويتلذذون بأحسن انواع المآكل والمشارب وهم في الاديرة في الجبال. كذلك

تواضع بعض الرهبان انهم كانوا لا يكلفون تلامذتهم ولو بخدمة صغيرة فضلاً عن انهم لم يقتنوا خدماً ولا حشماً مما يعدونه اسرافاً وتنعماً ٭ وقد قص احد الرهبان قصة هي قوله : لما كنت شاباً فتياً كنت مقيماً مع الرئيس كرونيوس الذي مع كونه شاخ وهرم وارتخت اعصابه ولكنه لم يكن يكلفني باداء خدمة كيفما كانت خفيفة بل بالعكس كان ينهض بنفسه و يدير علينا بيده جرة الماء فنشرب جميعاً ٭ وقد عشت ايضاً مع رئيس دير اسمه تاودروس كان يرتب مائدة الاكل بيده ثم يدعبني قائلاً « قد حان وقت الطعام يا صاح فاذا شئت فتعال كل » فكنت اعترض عليه قائلاً « اني جئت اليك يا ابت لاخدمك فلماذا لا تسألني اعداد ما يلزمك » فلم يكن يجيبني بكلمة واحدة ولكن اذا سأله احد الشيوخ ان يستخدمني في قضاء بعض المهام فكان يقول « اني لست سيداً حتى اصدر الاوامر والنواهي ولكنه اذا شاء ان يساعدني من تلقاء نفسه فليفعل ذلك عند ما يراني مشتغلاً » ومن ذلك الحين ادركت غرضه وكنت اساعده وانا ما كث ساكن لا ابدي كلمة واحدة؟

والمؤرخ المنصف لا يقول ان جميع الاساقفة والرهبان الذين اهاجوا سخط ايسداروس وحركوا غضبه نحوهم كانوا اشراراً او غير مسيحيين حقيقيين ٭ صحيح ان الاساقفة في بعض الاحايين كانوا يظهرون عناداً وتشبثاً بالرأي مع استبداد في الحكم وجور في السلطة ولكنهم كانوا ايضاً امناء نشيطين

يوجد رهبان كثيرون لا يذوقون اللحم الا في ايام الاعياد الثلاثة الكبرى في السنة ولعل سبب ذلك لبس التقشف والزهد بل الشح والتقتير وحب المال الذي اصبح الغريزة الحادية عشرين جماعة الرهبان المتزهدين

معتدلين في عيشتهم . اما الذي حدا بهم الى هذا الاعتدال في المعيشة هو عدم امكانهم اتمام الواجبات المفروضة عليهم وهم هزال ضئال خاضعون لناموس الرهبنة القاسي القاضي بالزهد وانهاك الجسم . والذي يراجع ما كتبه سقراط المؤرخ عن أسقف من شيعة نوفاتيانوس اسمه سيسينيوس يتضح له ما كان يعتقده اولئك في الاساقفة الذين عاشوا باعتدال في المأكل والملبس وكيف انهم كانوا يظنونهم مترفين متطرفين مفرطين

وقد شهد سقراط عن هذا الاسقف انه كان متعلماً متهذباً بارعاً في علوم المنطق والفلسفة و بالاخص في العلوم اللاهوتية ومعرفة الكتب المقدسة فضلاً عن فصاحته وزلاقة لسانه . ولكن هذا المؤرخ يلوم الاسقف المذكور لانه « لم يكن بسيطاً في مأكله لان مائدة طعامه كانت مزدانة بانواع الاواني الفاخرة مع ميله الشديد للاعتدال في المعيشة . كذلك كانت ملابسه ناعمة رقيقة يلبس الابيض الناصع من الثياب ويستحم مرتين في اليوم في الحمامات العمومية » . قال سقراط « وحدث ان بعضهم سأل سيسينيوس ان كيف يجوز له الاستحمام مرتين في اليوم مع انه اسقف . فاجاب هذا الاسقف انه لا يستطيع الاستحمام ثلاث مرات في النهار لعدم وجود وقت عنده والا لكان يفعل ذلك » . ومما يدل على قوة حجة سيسينيوس وغزارة مادته انه ذهب يوماً ما لزيارة زميله الاسقف ارساشيوس فالتقى عنده ببعض الاصدقاء الذين اعترضوه للباسه الثياب البيضاء بقولهم انها لا تلائم الاساقفة لخروجها عن حد الحشمة . ثم سألوه قائلين ان اين ورد

في الكتب ان الكاهن يلبس الملابس البيضاء · فردَّ عليهم بقوله — اجيبوني انتم اولاً اين ورد في الكتب ان الكاهن يلبس الملابس السوداء القاتمة وانا اجيبكم عن سؤالكم · فلما عجز السائلون عن الجواب اندفع صاحبنا الاسقف يبرهن لهم على صحة عمله فقال · « انكم لم تقدروا تقنعوني بضرورة ارتداء الاسقف الملابس السوداء ولكنني افحمكم ببراهين من الكتب المقدسة بان لا لوم ولا تثريب على الكاهن اذا لبس الثياب البيضاء · واول شاهد على ذلك قول سليمان الحكيم « لتكن ثيابكم بيضاء » وكذلك جاء في الانجيل المقدس ان مخلصنا كان يتزر بالملابس البيضاء كما انه اظهر موسى وايليا امام الرسل في ساعة التجلي بثياب بيضاء كالثلج » · قال سقراط ان سرعة خاطر هذا الاسقف ومتانة حجته خلبت عقول الحاضرين وسلبت البابهم ·

قلنا في ما سبق ان ايسداروس كان يحب كريسوستم اسقف القسطنطينية حباً مفرطاً حمله على الكتابة ضد بطريركه ثوفيلس بلهجة عنيفة كقوله مثلاً « ان ثوفيلس الذي عنده ولع باقامة الابنية الفاخرة وهوس في عبادة الذهب والمال كان لا ينفتأ يخاصم ويناقر زميلي ايسداروس الاسكندري بل كان كأنه ضربة أُنفذت من مصر لاضطهاد هذا الرجل التقي والعالم اللاهوتي الشهير » · ولما مات ثوفيلس وتولى الكرسي بعده كيرلس اثر عليه ايسداروس هذا باحترام اثار كريسوستم وتسجيل اسمه بين اسماء الشهداء كما سيجيء · كل هذا ولم يكن ايسداروس فاسد المبدإ ضعيف الرأي فانه ارتأى فكراً هو غاية في الاصابة والاصالة ذلك انه قال ان مطالعة تاريخ الكنيسة

يوجد فشلاً وخيبة عند القارىء لسبب ما يراه فيها من الشرور والآثام التي لا يصح نسبتها الى كنيسة مسيحية راسخة كما ان الذي يراجع حالة الكنيسة الحاضرة من ابناء الاجيال الآتية يشك في حالتها هذه ويغير اعتقاده من نحوها . ولهذا القول اثر كبير من الصحة فانه في ذلك العصر كان قد فشى في الكنيسة المصرية مبدأ عبادة القديسين والشهداء وعمّ جميع الكنائس في مصر باسرها ثم انتقل منها الى الكنائس الكاثوليكية بعد ذلك واصبح اليوم مبداءها التي تسير عليه بل قد تطرفت فيه جداً بينما الكنيسة الرومانية والكنيسة القبطية في عصرنا الحاضر قللتا من اهمية عبادة القديسين واصبحتا تحترمانهم فقط . وقد بلغ الحد بالكنيسة القبطية في عصرها الاول انها كانت تبحث عن بقايا وذخائر اولئك الشهداء وتدفنها في كل كنيسة تبنى حديثاً حتى ان هذه الآثار لم تكن كافية لجميع الكنائس فاضطر الشعب الى استخراج رفات وعظام القديسين والشهداء المصريين من مدافنهم ووضعها في الكنائس ليس في مصر فقط بل وفي القسطنطينية وباقي اجزاء المملكة الرومانية

كذا بداء الشعب المسيحي في ذلك العصر بزيارة الاراضي المقدسة في مصر وغيرها وما زال الاقباط الى يومنا هذا يؤدون هذه الزيارات سنوياً لمزارات قديسيهم بمصر مع ان اولياء المسلمين فيها اهتضموا صيت القديسين المسيحين في اماكن كثيرة كما في طنطا وغيرها من الجهات حتى اصبح المصريون لا يعرفون مزاراً الا لاولئك الاولياء الحديثي العهد

ولنذكر ايضاً عادة اخرى جاءت للديانة المسيحية مع الوثنيين الذين

اعتنقوها وهي مسألة الاشجار المقدسة واحترامها . وا كثر هذه الاشجار احتراماً كانت شجرة البلسم التي يقولون عنها الآن ان الرب يسوع قدسها لانه جلس تحتها مع والديه ليستريحوا من وعثاء السفر اثناء مرورهم على المطرية . ومن حسن الحظ ان اشجار البلسم هذه تلاشت من البلاد برمتها لانها جاءت من بلاد اجنبية لا يوافق هواؤها هواء هذا القطر وتطرق اليها الفناء بسرعة مع اعتناء الامبراطور اركاديوس بامرها اعتناءً زائداً حتى انه اصدر امراً يقضي بعدم قطع شجرة واحدة من اشجار البلسم في البلاد المصرية باسرها وان الذي يبيع او يشتري واحدة منها يعدُّ مذنباً ويغرم خمسة جنيهات ذهباً . اما الشجرة الموجودة بالمطرية الآن التي يعتبرها الاقباط الكاثوليك انها مقدسة فليس يعرف لها اصل ولكنها في الغالب من فصيلة الجميز لا يزيد عمرها عن ٢٠٠ سنة

وفي ذلك الحين اتم جماعة العلماء من الرهبان ترجمة ونسخ كثير من الكتب والاسفار منها ترجمة العهد الجديد الى الثلاث لغات القبطية المختلفة وهي اللغة الصعيدية المستعملة قبلي اسيوط واللغة البشمورية او الفيومية واللغة البحيرية الشائعة في مصر والوجه البحري . وقد ترجموا تواريخ كثيرين من الشهداء والقديسين الى اللغة القبطية وترجموا تآليف اكثر الآباء الاولين . ومما اشتهر في القرن الرابع هذا كتابات اتباع اغنوسطينوس العجيبة الشكل . واشهر من هذا كله اربع نسخ من العهد الجديد كتبت في اواسط هذا القرن توجد واحدة منها في الفاتيكان برومية والثانية بباريس

والثالثة في بطرسبرج والرابعة في دار التحف البريطاني يفاخر بها الغربيون المصريين و يزدهون عليهم بها مع انها صنع ايدي ابائهم الاكرمين ولكن الابناء فرّطوا فيها وافرطوا في حفظها فصارت الى ايدي من يجلونها ويعرفون قيمتها . وعلى عنوان النسخة الموجودة في لندن كتابة تشير الى ان ناسخ هذه النسخة عقيلة من اكرم العقائل المصريات اسمها تكلا كتبتها بعد ارفضاض المجمع النيقاوي بوقت قصير . وقد يسهل معرفة جميع هذه النسخ بوجود كلمات فيها مأخوذة من اللغة المصرية القديمة

وفي بداءة القرن الخامس عمّ بناء الكنائس في المدن التي تقيم فيها الجنود الرومانية وتكريسها للاسقف الاريوسي جرجس الذي سبق معنا القول بانه قتل في الشغب الذي احدثهُ الوثنيون بالاسكندرية واعتبره الرومانيون في مصاف الشهداء القديسين ولكن المصريين كانوا يكرهونه ويوجهون اليه كل لوم ومذمة . ولقد افرط الرومانيون في اكرام جرجس هذا افراطاً عدّ اساءة للمصريين حيث مثلوا هذا الاسقف الهرطوقي راكباً على ظهر جواد ركوب المنتصر الظافر وتحت سنابك جواده تنين قد اغمد سيفه فيه كما صوّر المصريون مارجرجس المصري ولكن الرومانيين قصدوا بهذا التنين الغلطات التى ارتكبها البطريرك اثناسيوس وتغلب عليها جرجس بقوّته ومهارته . ولا تزال كنيسة من الكنائس المكرّسة لجرجس الروماني قائمة لهذا العهد داخل اسوار القلعة الرومانية « بمصر القديمة » وهي تسمى كنيسة مار جرجس ومازالت في ايدي الروم « اليونان » لرومنا هذا

ولكنهم تناسوا اسم مارجرجس الاريوسي ويزعمون ان كنيستهم مكرسة لمارجرجس الشهيد المصري

وقد بنيت كنيسة اخرى باسم جرجس الاريوسي في مصر الوسطى ببلدة طولمايس « جرجا » ثم تغلب اسم هذا القديس الاريوسي على اسم المدينة اليوناني ولذلك دعيت هذه البلدة باسمهِ (جرجا) الى يومنا هذا · وقد ابطل مسيحيو مصر سقف الكنائس بالحجارة مما كانوا يستعملونه في العصر الوثني واستبدلوا الحجر بالخشب لسقوف الكنائس

وقد مكث في مصر بين سنة ٣٩٠ و ٤٠٣ رجل اسمهُ يوحنا كاسيانوس جاءها لذات الغرض الذي وفد لاجله كثيرون قبله وهو درس احوال الرهبان ومعرفة ما في الاديرة في هذه البلاد التي عرفت بكثرة الرهبان وتعدد الاديرة · وقد تولى يوحنا هذا العجب مما شاهدهُ من الصعوبات والمشاق التي يتكبدها جماعة الرهبان والنفس منهم طيبة راضية وظهر عجبه هذا فيما كتبه عنهم من انهم يعمدون الى الزهد في اماكن بعيدة عن الماء وباقي احتياجات الحياة حتى انهم كثيراً ما يضطرون الى حمل ما يلزمهم على منكبيهم ويسيرون بهذه الاحمال الثقال مسافة قد تزيد عن ثلاثة او اربعة اميال · وقد كتب ما كتبهُ عنهم باللغة اللاتينية نقلاً عن المصرية بواسطة مترجم كان يسير معه ليفهمه ما يسمعه من افواه المصريين · واستنسخ ايضاً القوانين التي كان معمولاً بها في ثلاثة او اربعة من الاديرة الشهيرة في مصر وترجمها الى اللغة اللاتينية لتكون

مشكاة يهتدي بها الرهبان الغربيون ·

وبين الذين زاروا مصر في ذلك العصر كاتب ارمني مشهور اسمه موسى من بلدة خورين في ارمينيا كان قد وفد الى هذه الديار مع زمرة من رفقائه على مصاريف خزينة بلادهم لكي يدرسوا في مدارس الاسكندرية المسيحية والوثنية منها فاستفادوا فائدة كبرى وافادوا بلادهم ايضاً في انهم ترجموا اكثر كتب الاسكندرية المكتوبة بخط اليد الى اللغة الارمنية وهو عمل افاد اوربا باسرها بعد ذلك الحين باجيال كثيرة في انها اهتدت الى ما كتبه هؤلاء الطلبة فنشرته وحصدت ما غرست ايديهم ولا تزال اكثر هذه الكتب الثمينة موجودة بايدي الباحثين الحاليين وصلت اليهم من دير ارمني في مدينة البندقية (بايطاليا) وهي من مخلفات موسى ورفاقه · ومن الحقائق الثابتة انه في النصف الاخير من القرن الرابع وفي بداءة القرن الخامس وصلت مصر الى الدرجة التي كانت فيها في عصر الفراعنة والبطالسة في انها كانت مصدر العلوم والمعارف ومنبع التمدن الصحيح والتهذيب الحقيقي للعالم باسره

ولكن من موجبات الاسف ودواعي الحسرة على مصر انه في القرن الرابع كان التنسك والتزهد او هو قتل الانفس واتلاف الاجساد لا يزال سارياً في مصر فضلاً عن انه في نهاية هذا القرن اضاعت الاسكندرية فخر كنيستها واساس مجدها الا وهو المدرسة اللاهوتية التي نبغ منها اشهر القديسين واعظم المعلمين التي انحطت وتدهورت مذ ما نقلها رودون

الذي اخلف ديديموس الضرير في رئاستها الى بلدة سيد في اقليم بامفيليا دون ان يوجد سبب يدعو الى هذا النقل ودون ان يهتم البطريرك ثوفيلس ويعارض في نقلها الذي اضر بالطلاب المسيحيين في الاسكندرية بل اضر بالمدرسة نفسها فانها لم تبقَ طويلاً بعد انتقالها من هذا المكان حتى اصبحت في خبر كان . ومن ذلك الحين تمهد السبيل امام العلامة هيباشا ولم يبقَ ثمة مقاوم للفلسفة الوثنية التي دبت فيها روح الحياة بعد ان اوشكت على الموت ولكنها كانت حياة النزع الاخير والحشرجة فانها لم تتبع خطة التعليم والتفهيم بل سارت في طريق المشاغبات والقلاقل حتى انه عندما جلس على السدة البطريركية كيرلس وديسقورس — وهما اللذان رفعا منار الديانة المسيحية في مصر حتى اوصلاها الى اعلا الدرجات — اجهزا ايضاً على ما بقي للوثنية من رمق فسارت الى الاضمحلال سير السريع المستعجل

الفصل الثالث والعشرون

كيرلس الكبير

سنة ٤١٢ للمسيح و ١٢٨ للشهداء

بعد ان تنيح البطريرك ثوفيلس خلفه ابن اخته كيرلس على الكرسي البابوي الاسكندري وكان لم يزل شاباً في سن المراهقة اشتهر بالعناد وصلابة الرأي لدرجة اوقعته في مشاكل واتعاب جمة خصوصاً في السنوات الاولى

من رئاسته . وقبل ان يسام كيرلس لهذا المنصب الخطير كان قد صرف نحو خمس سنوات في دير وادي النطرون يتلقى ما عند رهبانه من العلوم والمبادئ المعروفة عن اولئك الرهبان حتى ان الاب ايسدادروس قال انهُ ظهر له ان كيرلس كثيراً ما يشغل فكرهُ ويتعب باله في امور دنيوية صرفة . وعلى كل حال فان صفات كيرلس الادبية لم يكن فيها ما يستحق الذم ولم يكن في سلوكه ما يوجب الانتقاد ولا غرابة في ذلك فان الفرق بين باباوات الاسكندرية وباباوات رومية في مسألة الصفات الادبية والسلوك الشخصي كان كبيراً واضحاً اذ انه لم يكن يوجد شيء يشين آداب بطاركة مصر او يحط من سمعتهم حتى ان اثناسيوس وكثيرين من زملائه عند ما اتهمهم اعداؤهم بالهرطقة والابتداع كان هؤلاء الاعداء يسعون كثيراً في الصاق تهمات مشينة بشرفهم ولكنهم لم يثبتوها فضلاً عن ان البطاركة المصريين كثيراً ما برهنوا على حسن اعمالهم ودحضوا باقوى دليل ما نسب اليهم من سوء الذكر . اما غلطات كيرلس ومساويه فكانت فيما يتعلق بوظيفته واعماله كان يكون ضعفه في عدم ردّ خصم او مقاومة عدو وخمولهُ في وقت كان فيه الامبراطور لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره حيث كان البطريرك يستطيع الاستقلال في عمله الديني والزمني خصوصاً وانهُ كان لدى كيرلس جيش عرمرم مؤلف من نيف وخمسة آلاف راهب يقطنون وادي النطرون . ومعلوم للقراء من الذي مرّ ان الرهبان المصريين في هاتيك الايام كانوا خيراً من الجنود المدربة وقد نجحوا في مواقع عديدة وقاوموا مقاومة الابطال

في حومة النزال ونازلوا الجيش الروماني المنظم فانتصروا عليه وفلوا جموعه وشتتوا شمله

وفي الوقت الذي حلَّ فيه انتخاب كيرلس للبطريركية ظهر له خصم عنيد اسمه تيموثوس رئيس شمامسة الاسكندرية كان له انصار اقوياء حتى خشي من حدوث معركة شعواء بين انصار الخصمين قبل ما يستتب الامر لكيرلس ويتم انتخابه

ولما وَطَّدَ كيرلس نفسه على الكرسي البطريركي بدا في اضطهاد اتباع نوفاتيانوس المرطوقي اضطهاداً عنيفاً وكانت هذه الشيعة قد قويت في مصر وصار لها أُسقف خاصاً بها اسمه ثيوبمتوس جرَّده كيرلس من جميع املاكه ومقتنياته واخذ منه ذخائر الكنيسة التي كانت تحت يده . ولا يسعنا الان اطالة الكلام عن السنوات الاولى من حكم كيرلس بل نختصر فيها ما أمكن الاختصار ليس لقلة المادة او لعدم معرفتنا شيئاً عنه بل لان أعماله في هذه السنوات الاولى ذكرت بالتطويل الكافي في كتاب الاستاذ كنجسلي عن هيباشا * وكيرلس . فالذي يهمه شأن الاقباط وكنيستهم عليه بقراءة هذا الكتاب اذ فيه يتجلى له حال الكنيسة المصرية في ذلك الوقت وما كانت عليه من علم وجهل وقوّة وضعف وغير هذا من اجتماع النقيضين مما لا يحده

* (المترجم) بين يدي الآن كتاب ثمين هو الذي وضعه الاستاذ تشارلس كنجسلي عن العلامة المصرية الشهيرة هيباشا (وقد دعيتها أنا « حبشية » وهو الاسم الدارج الآن) وهو يحتوي الى ٤٦٠ صحيفة بقطع هذا الكتاب . والمؤلف المذكور غزير المادة للبذ على شكل رواية علمية فلسفية دينية تاريخية يود الذي يقرأه ان يأتي على آخره مرة واحدة لو ساعده الوقت . وليس هذا مجال واسع لذكر طرف مما فيه ولكن اذا أتيح لي فيما بعد عربته كما عربت هذا حتى لا يحرم أبناء أمتي من معرفة أهم ما يتعلق بكنيستهم في ابان مجدها وزهوها والوقوف على الفرق بين المرأة القبطية اليوم وأختها بالامس

في كتاب آخر حيث يتضح له مقدار العداوة الشديدة بين هيباشا وكيرلس وضعف وارتخاء اورستيس حاكم مصر الاسمي وتعذيب هيرا كس وشروع اليهود في ذبح المسيحيين وكيف ان كيرلس استدعى جيش الرهبان بحكمة ونفى جميع اليهود الساكنين في الاسكندرية كل في دوره . وقد ارسل اورستيس شكواه ضد كيرلس الى القسطنطينية ولكن لم يجسر احد من رجالها على التداخل في شؤون البابا الاسكندري فانه كان مطلق التصرُّف في ذلك الحين .

وقد نصح الشعب للبطريرك كيرلس بمهادنة الوالي اورستيس ومسالمته فالتقى به بعد ان طرد اليهود من الاسكندرية واصطلح معه وقدَّم له نسخة من الانجيل باحتفال حافل ففرح اورستيس بهذا الصلح وسرّ بتحسن العلائق بينه وبين حاكم مصر الحقيقي الا ان كيرلس لم يقدر يضبط رهبانه من التهوُّر ما لم يكن متقلداً ازعامتهم . فحدث مرَّة ان الرهبان التقوا باورستيس في الطريق في مكان حرج وكادوا يوردونه حتفه لولا ان بعضهم انقذه من ايديهم وأُسر واحداً منهم في هذه الوقعة الصغيرة وعذبه اورستيس الى ان اماته انتقاماً وحنقاً حتى هاج سخط البطريرك واشتد غضبه فارتكب امراً نكراً شاذاً تاب عليه فيما بعد توبة حقيقية — ذلك انه احتفل بتشييع جثة ذلك الراهب المسكين احتفالاً باهراً واقام له قداساً وجنازاً في الكنيسة واعلن اسمه في مصاف الشهداء والقديسين كما لو كان استشهد لاجل ايمانه بواسطة احد المضطهدين الملحدين . ومما سوَّد تاريخ كيرلس بل تاريخ

الرهبنة باسرها ذلك الحادث المريع اعني به قتل العلامة هيباشا من ايدي جماعة الرهبان المتجمهرين . وقد ورد شرح هذا بالاسهاب في كتاب كنجسلي ونحن نقتطف هنا ما كتبه سقراط في هذا الصدد بالايجاز حيث قال :

« كان في الاسكندرية عقيلة اسمها هيباشا كريمة الفيلسوف ثيون التي بلغت من العلم والمعرفة في الآداب والعلوم مبلغاً لم يصل اليه احد من فلاسفة عصرها وعلمائه . ولما قبضت بيدها على زمام مدرسة افلاطون وبلوطينوس اخذت تشرح للطلاب مبادئ الفلسفة واصولها وكان تلامذتها كثيرين يجيئون اليها من كل فج سحيق لاكتساب المعارف والآداب منها وقد اشتهرت بحسن سمعتها وزكاء صيتها وسلامة طبعها ورقة جانبها ودماثة اخلاقها . كل هذا نتج من التهذيب والتربية الصحيحة التي وسعت مداركها ورقت عقلها . وكانت كثيراً ما تظهر امام الحكام والولاة بمظهر الشهامة والانفة ولم تكن تترك جمعية رجال الا وتبرهن فيها عن التصرف بتواضع وحكمة وطهر مما اشتهرت به وعرف عنها وجعل لها منزلة رفيعة بين الناس واحلها في اعين القوم محلاً مبجلاً . ولكن خانها سعدها وراحت فريسة الاغراض السياسية وضحية الغيرة الشخصية والمنافسات الذاتية التي تفاقم امرها في ذلك الحين . وسبب ذلك انه لاختلاطها الدائم مع اورستيس الوالي ومقابلتها له على الدوام افترى عليها المسيحيون بانه بواسطة تأثيرها عليه رفض المهادنة مع كيرلس وحينئذ ائتمر ضدها جماعة من الذين اعمتهم الغيرة الدينية الفارغة تحت زعامة عريف اسمه بطرس وكمنوا لها عند ما كانت

عائدة لمنزلها في عربتها فهجموا عليها واخرجوها من العربة بعنف وساروا بها الى كنيسة سيزاريوم حيث جرّدوها من ثيابها بالمرّة وقتلوها بواسطة تشريح جسدها بالاصداف . وبعد ان مزقوا جسمها تمزيقاً اخذوا لحمها الممتزج بدمها واحرقوه في مكان بالاسكندرية اسمهُ سينارون — هذا ولا ريب عمل وحشي فظيع تأباه الانسانية وتنفر منه طباع الضواري . عمل يلصق وصمة خزي وفضيحة «ليس بكيرلس فقط بل بكنيسة الاسكندرية باسرها»

ولا يوجد سبب يدعو الى الظن بان كيرلس كان يعرف شيئاً عن هذه الحادثة المريعة قبل وقوعها ولكن هذا لا يبرئه من المسئولية الكبرى الملقاة على عاتقه في هذا الامر الذي كان نقطة سوداء في صحيفة الكنيسة المصرية البيضاء . وقد ظل هذا البطريرك عدة سنين بعد هذا الحادث هادئاً ساكتاً بعيداً عن كل خناق وشقاق متمماً واجباته المنوطة به حتى انه لم يظهر ادنى مقاومة عند ماصدر امر امبراطوري عال يقضي بعدم تداخل الاكليرس في المسائل السياسية وتحديد عدد القندلفتية (١) (خدمة الكنائس) وتحسين سيرهم وسلوكهم وكان ذلك عقيب تلك الحوادث المزعجة في الاسكندرية . ومما اتاه البطريرك كيرلس في سنيه الاولى انه رفض تسجيل اسم كريسوستم

(١) ان هؤلاء القندلفتية لم تكن وظيفتهم قاصرة على خدمة الكنائس بل كانوا يشتغلون كتمورجية في الاسبتاليات وممرضين في منازل الفقراء المرضى . وكانوا يعدون من ضمن الاكليروس ولكنهم كانوا خاضعين لقوانين الحكومة ونظاماتها خصوصاً بين سنة ٤١٦ و ٤١٨ حينما صاروا تحت مراقبة الوالي قصاصاً لهم على عصيانهم وميلهم الى الشقاق والنفار ولكن لما اخلدوا الى السكينة صاروا تحت امرة البطريرك . ويغلب على الظن ان جماعة القندلفتية هؤلاء كانوا علة الشقاق الذي حدث في مجمع افسس سنة ٤٤٩ حينما استعمل امره بتنييهم كما سيجيء .

بطريرك القسطنطينية في قائمة الشهداء والقديسين وكتب الى اتيكوس اسقفها يسأله حرمان كريسوستم والا فهو يحرم اتيكوس نفسه من الشركة في بطريركية الاسكندرية ولكن ايسدوروس تغلب على كيرلس واقنعه بتغيير عزمه هذا وتقييد اسم كريسوستم في قائمة الشهداء المصريين (١)

وقد ورد في رسالة العيد الكبير التي اصدرها البطريرك كيرلس سنة ٤٢٩ كلام قاس ضد بدعة نسطور التي اخذت في تهييج خواطر العالم المسيحي · اما نسطور هذا فهو جرماني الاصل كان قد ترهبن في دير قريب من انطاكية · وحدث في سنة ٤٢٨ ان الامبراطور ثيودوسيوس الثاني مل كثرة الشقاق الديني الذي تكرر وقوعه بين جماعة الاكليروس في القسطنطينية فصمم على عدم تعيين بطريرك من هذه المدينة وحينئذ استدعى الراهب نسطور ليعينه في مسند البطريركية الذي كان خالياً في ذلك الوقت

وكان نسطور هذا مثل كثيرين غيره من رهبان ذلك العصر في انه كان غيوراً متعصباً وجاهلاً متحمساً مع اهمال في امر نفسه وعدم اعتناء بجسده وحاجياته · فلما وفد على القسطنطينية ورقي ذلك المنصب وضع نصب عينيه تنفيذ جميع اغراضه بقدر ما تصل اليه قوته ونفوذه ·

(١) ان هذه القائمة كان عبارة عن لوحات مصنوعة اما من الخشب او العاج او الذهب أو الفضة ومحفورة عليها الاسماء التي تذكر في القداس وهي (١) اسم العذراء مريم والرسل وبعض مشاهير القديسين و (٢) أسماء الأشخاص المعروفين الذين ماتوا على المبدأ الديني الصحيح و (٣) أسماء بعض الاشخاص الاحياء الذين ترى الكنيسة انهم مستحقون للاكرام والاجلال · وكانت العادة في مصر واسبانيا وفرنسا ان هؤلاء الاشخاص يذكرون قبل القداس ولكن في رومية كانوا يلفظون أسماء بعضهم قبل القداس وبعضهم بعده

فبدأ اولاً باضطهاد اتباع آريوس ثم اتباع نوفاتيانوس ثم جميع الملل الاخرى الموجودة في المملكة الرومانية ولكنه ما عتم ان القيت عليه تهمة الهرطقة والابتداع وهي تهمة كان تؤدي بمن تقع عليه الى ادنى دركات الانحطاط في هاتيك الايام التي كثرت فيها البدع وتعددت في اثنائها الهرطقة بكل انواعها · اما هرطقة نسطور هذه فلم تكن كغيرها نشأت عن اختلاف في عقائد وضعها الآباء والاحبار بل هي كانت جوهرية تختص بأهم مواضيع الايمان واعظم اركان الدين المسيحي · ذلك ان نسطور ذهب الى ان ربنا يسوع المسيح لم يكن الهاً في حد ذاته بل هو انسان مملوء من البركة والنعمة او هو ملهم من الله فلم يرتكب خطيئة وما أتى أمراً اداً

وقد جرت العادة وقتئذٍ بارسال رسائل الاعياد الى الرعايا المصريين المقيمين في البلاد الاجنبية · وحدث ان رسالة كيرلس عن عيد الفصح التي ورد فيها ذكر نسطور وهرطقته أرسلت الى المصريين الموجودين في القسطنطينية فقرأها نسطور واحتدم غيظاً على ما ورد في هذه الرسالة من الكلام القارص ضد افكاره وتعاليمه وما فيها من تسفيه رأيه وتفنيد مذهبه · وفي سنة ٤٣٠ وفد على القسطنطينية من اوروبا اسقف من اتباع بيلاجيوس (وهم جماعة يجولون في البحار والقفار لا مقر لهم يعرف) ومعه جماعة من رفاقه فاتبع نسطور في ذلك القواعد الادبية المرعية بين رؤساء المذاهب وكتب الى سلستين بطريرك رومية يعلمه فيه بوصول هذه الجماعة التي تعد تابعة له ويسأله رأيه فيما يجب اتخاذه نحوهم · وقد رأى نسطور انه حفظ كرامة

البطريرك الروماني بما كتبه له عن اتباعه ولذلك انتهز هذه الفرصة وذكر في الكتاب عينه شكواه من معاملة كيرلس له وتسفيهه آراءه وظن انه بهذه الحيلة يستميل اليه افكار البابا الروماني ليعضده ضد البابا الاسكندري . وقد طال على نسطور الزمن ولم يصله رد من سلستين بابا رومية فكتب له ثانية في هذا الصدد ولم يمض زمن يذكر حتى ورد عليه جواب من بابا روميه يعتذر فيه عن تأخيره في الرد لان جواب نسطور وباقي الاوراق الاخرى المرسلة معه دحضاً لافكار كيرلس كان لابد من ترجمتها جميعها من اللغة اليونانية الى اللاتينية حتى يتمكن سلستين من استيعابها وفحصها جيداً . ثم ارسل بابا روميه في هذه الاثناء جواباً الى كيرلس يطلب منه ايضاحاً وتفصيلاً عن حقيقة هذا الخلاف . فارسل كيرلس — الذي كان عالماً في اللاهوت وباقي الامور الدينية اكثر من نسطور وسلستين — مكتوباً الى بابا رومية يحيطهُ فيه علماً بمسألة نسطور فلما وقف سلستين على هذا الايضاح عد افكار نسطور محض تجديف او هي تخريف وتهريف . ثم كتب كيرلس كتابين الى نسطور يقول له فيهما ان حركة الخواطر التي قامت ضده لم يكن منشأها رسالة العبد بل هي نتجت من رفض نسطور اعطاء العذراء لقب « ام الاله » وبعد ان تداولت المكاتبات الكثيرة بين الثلاثة البطاركة اتفق بطريرك الاسكندرية وبطريرك رومية على حرمان نسطور بطريرك القسطنطينية وشجب افكاره . وكان البادئ في هذا الحرمان سلستين فانه عقد مجمعاً حكم على نسطور بانه هرطوقي مبتدع ثم كتب جواباً في ١١ اغسطس سنة

٤٩٠ الى كيرلس يطلب منه تشكيل مجمع والحكم على نسطور بمثل هذا الحكم الذي اصدره هو . فشكل كيرلس مجمعاً مصرياً حكم على نسطور مثلما حكم عليه مجمع رومية ثم انفذ اربعة اساقفة من مصر الى القسطنطينية يحملون خطابات من هذه المجامع تحتوي على الاحكام الصادرة ضد نسطور ولكن قبلما تطأ ارجلهم ارض القسطنطينية اصدر الامبراطور ثيودوسيوس الثاني امره بتشكيل مجمع عام يلتئم في افسس وكان ذلك بناء على طلب نسطور

فشرع كيرلس يستعد لهذا المجمع ولكنه كان يخشى من عواقبه لانه داخله الريب في غاية هذا المجمع واغراضه . قيل ان كيرلس اخذ معه الى القسطنطينية مقداراً وافراً من الذهب الوهاج دفعه رشوة لموظفي البلاط الامبراطوري الذين ظن فيهم المقدرة على مساعدته للحصول على نتيجة مرضية . كذلك اصطحب معه اكثر من خمسين اسقفاً مصرياً في مقدمتهم ذانك الناسكان المشهوران وهما شنوده الاخميمي وبقطر السوهاجي . ثم استقبلهم ممنون اسقف افسس — وهو مصري الاصل — ومعه عدد عديد من الاساقفة الذين ضموا اصواتهم الى اصوات اخوانهم المصريين حتى فاقوا في العدد اتباع نسطور ومريديه فلذلك اضطر هذا الى عدم الحضور في المجمع بل شكل مجمعاً من رفاقه وحكم على كيرلس وممنون بالحرم والعزل من الوظائف الكهنوتية .

وقد بدأت جلسات هذه المجامع تحتشد في شهر يوليو من سنة ٤٣١ وظهر للملأ انه لا يمكن ايجاد اتفاق ووئام بين هذه الجماعات الناشذة النافرة

بل كنت ترى الحزبين يسيران ضد بعضهما كما لو كانا جيشين متحاربين معسكرين كل منهما تجاه الآخر . ولكن هذين الحزبين الدينيين استعملا الاغراض السافلة والغايات الدنيئة ليفوز الواحد منهما على الآخر . فكانا يكتبان كتابات ضد بعضهما ويدفعونها الى الشحاذين يجولون بها في الشوارع والازقة وكانا يدفعان الرشوة لكل من يساعد جانباً منهما والنتيجة ان كل جماعة كانت تشتكي مرّ الشكوى من المعاملة التي تعاملها بها الجماعة الاخرى . ومما يحكى عن انبا شنوده في هذا المقام انه حضر مرّة في الغرفة التي اجتمع فيها الاساقفة وكان فيها عرش وضع عليه كتاب الانجيل ثم حضر بعده نسطور الذي لم يراعِ حرمة الكتاب المقدس بل نقله من على العرش المخصص له وجلس مكانه فلما رأى شنوده ذلك نهض من مكانه مغضباً وتناول الانجيل وصفع به وجه نسطور صفعاً عنيفاً واهانه اهانة فادحة . وقد عد عمل شنوده هذا مذموماً لانه اراد ان يحفظ كرامة الانجيل من حيث هو اهانه لانه ضرب به الذي اهانه اولاً . وقد تساءل نسطور عن غريمه هذا الذي ضربه وحقره فقيل له انه انبا شنوده فاعترض على وجوده في الجمع مادام هو ليس اسقفاً ولا كاهناً ولكنه راهب بسيط . فرد عليه انبا شنوده بقوة عارضة قائلاً « ألا تعلم من انا؟ — انا رجل ارسله الله ليزيح الستار عن شرورك ويطلب لك القصاص على خطاياك وغرورك » قال المؤرخ الذي نقلنا عنه هذه الفقرة ان نسطور حالما سمع هذه الكلمات سقط على الارض وسط الجمع كمن اصابته نوبة او كان به صرع . وقد قال اكثر

المؤرخين ان البطريرك كيرلس سام شنوده كاهناً في تلك اللحظة لكي يكون له الحق في حضور جلسات هذا المجمع

ومن الذين ساعدوا كيرلس في هذا المجمع بوطيخوس رئيس احد الاديرة الذي بعد هذا الزمن بعشرين سنة حكم عليه بالحرمان لاتهامه بالهرطقة . وبين الذين عضدوا كيرلس في هذا الشأن ومدوه بقوتهم الروحية ومواهبهم السامية هو الراهب دلماطيوس الذي قلنا انه كان جندياً في الحرس الامبراطوري واصبح الآن زاهداً حتى ظل مقيماً في صومعته ثماني واربعون سنة ولم يبرحها مرة واحدة . وقد ذاع صيت دلماطيوس في جميع الانحاء الرومانية ولذلك شعر كيرلس بعظم الفائدة التي ينالها من استمالة مثل هذا المتبتل الشهير الى جانبه وانه يقدر يؤثر على افهام العامة بصداقته ومودته . كذلك تمكن كيرلس من برطلة نصف بطانة الامبراطور بغاية ما يكون من التبذير والاسراف حتى انه استنفذ خزينة الكنائس المصرية في هذا الصدد وبهذا وذاك تم له ما يتمناه وفاز بمبتغاه . فلما رفع الامر الى دلماطيوس طلب جميع الرهبان الذين في اديرة القسطنطينية ومعهم رؤساء الاديرة المذكورة وسار هو في مقدمتهم باحتفال حافل مشى فيه جميع سكان هذه المدينة الكبرى وهم يغنون اغنية حماسية ويصيحون بأعلى صوتهم طالبين مقابلة الامبراطور . وقد التف هذا الجم الغفير حول سراي الامبراطور كالحلقة المفرغة التي لا يعرف طرفاها وكان الرهبان في وسطهم يتغنون ويترغون بينما كان رؤساء الاديرة قد حظوا بلقاء الامبراطور الذي اذن لهم بمقابلته خوفاً من هؤلاء الرهبان الذين كانوا

بجيش عرمرم يرهب العدو العنيد . وبعد هنيهة خرج الرؤساء من حضرة الامبراطور واوعزوا الى رهبانهم بأن يذهبوا الى الكنيسة وينتظروهم هنالك فعاد هؤلاء الرهبان الحفاة الى الكنيسة وفي ايديهم المشاعل تبدد ذلك الظلام الحالك ونغمات اصواتهم العالية تشق عنان الفضاء ثم لحقهم دلماطيوس وامتطى متن المنبر واخبرهم صراحة بان الامبراطور اجاب ملتمسهم ووعدهم بالتعضيد والمساعدة

ولم يكن هذا الكلام لغواً بل هو حقيقي لامشاحة فيه فان الامبراطور ارسل اوامره الى افسس يطلب عزل نسطور وذلك في اكتوبر سنة ٤٣١ فعزل واختير مكانه رجل اسمه مكسيميان . اما نسطور فأعيد الى ديره القريب من انطاكية ومكث هنالك اربع سنوات وأخيراً طلب يوحنا أسقف هذه المدينة نقله من هذا المكان الى مكان آخر حيثما نفوذه الشخصي لايوجد تأثيراً في النفوس فأجيب طلبه ونُفي نسطور الى الواحة الكبرى في مصر الوسطى وقد كانت في ذلك الحين آهلة بالسكان المسيحيين عامرة بخيراتها الكثيرة واراضيها الخصبة

وفي مدة الصيف من هذه السنة كان هؤلاء الثلاثة بطاركة وهم نسطور وكيرولس وممنون — يعتبرون معزولين محرومين بواسطة الاحكام التي صدرت عليهم من المجامع التي عقدها بعضهم ضد البعض ولذلك فهم كانوا أيضاً تحت الحفظ ينام حرس خصوصي على باب الغرف التي يقطنونها . ولكن لما صدر حكم مجمع افسس ضد نسطور بناء على ايعاز الامبراطور صرح

لكيرلس واساقفته بالرجوع الى وطنهم في اكتوبر سنة ٤٣١

ومن موجبات الأسف ان هذا الشقاق لم ينتهِ عند هذا الحد بل استغرق أكثر اوقات كيرلس . اما سبب استفحال هذا النفار فهو انه كان لنسطور حزب قوي في المملكة الرومانية لا يزال موجوداً ليومنا هذا . وقد اشتد الحنق بكيرلس ضد نسطور وهرطقته لدرجة تطرّف فيها هذا لايجاد بدعة اخرى هي قوله ان المسيح طبيعة واحدة(١)

اما اتباع نسطور فهاجروا زرافات ووحداناً الى بلاد العجم وما جاورها حيث لا يزالون متمسكين بذاك الرأي السقيم العقيم ولكنهم من بعض الوجوه يحافظون على تقاليد الكنيسة الاساسية خصوصاً وانهم قرروا في مجمع لهم حرم كل من يقدم على الرهبنة ضد رغبته . اما نسطور فلم يبرح مصر بل ظل فيها الى ان هاجم الواحات قوم من الغزاة الذين عاثوا فيها فساداً وخربوها وأخيراً اخذوا نسطور اسيراً مع غيره من الاسرى حيث اذاقوه مرّ العذاب . وبعد ان اطلق سراحه عاد وقدم نفسه لحاكم اقليم مصر الوسطى الذي القى القبض عليه حالاً لينفيه وقيل انه مات من شدة القسوة

(١) ان هذا التعليم تنكره الكنيستان اليونانية والرومانية وتتبرآن منه ولكن كيرلس وخليفته ديسقورس كانا يعتقدان بذلك الاعتقاد الذي حوكم لاجله ديسقورس وحكم عليه بالحرمان . اما هذا الاعتقاد او البدعة الجديدة التي كتب عنها كيرلس في اجتماعه مع يوحنا اسقف انطاكية قائلاً (اذا فكرنا في الطبائع التي تنحصر في الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح نجدها طبيعتين اتحدتا وصارتا واحدة . وحيث ان انفصال الطبيعتين زال بعد الصلبوت وصارتا طبيعة واحدة فنحن نعتقد الآن ان طبيعة الابن هي واحدة اي انه اله متجسد او ان الكلمة صارت جسداً)

التي عاناها في منفاه واسره ولكن سنة موته لا تعلم بالتدقيق الا انه يحتمل انه مات بين سنة ٤٣٩ و٤٥١

اما البطريرك كيرلس فتنيح سنة ٤٤٤ بعد ان جلس على السدة البطريركية نحو ثلاثين عاماً وخلفه رئيس شمامسته ديسقورس وهو رجل اكثر ثباتاً واوفر مقدرة واغزر مادة من كيرلس . ولكن « لا تعدم الحسناء ذاماً » فان جماعة من نحارير الكتاب في الامور الدينية انتقدوا صفاته وآدابه في كثير من كتاباتهم تنجلي لك حقيقتها فيما يلي

الفصل الرابع والعشرون

منافسة البابوات

سنة ٤٤٤ للمسيح و ١٦٠ للشهداء

لما استوى ديسقورس على عرش البطريركية المصرية كانت الملاقات بين الثلاثة كراسي اللاهوتيـة الكبرى وهي الاسكندرية ورومية والقسطنطينية قد اخذت في الفتور والضعف . فانه لما تنيح البابا سلستين في رومية خلفه ليو الكبير فصرف كل همه لاعادة الاولوية والاسبقية لكرسيه اعتقاداً منه بانه حق لرومية لا يجب ان ينازعها فيه منازع فتم له الامر وتقرر في المجمع الثاني العام اعطاء الكرسي الروماني حق السيادة على باقي الكراسي الاخرى . كذلك بطريركية القسطنطينية التي كان قد تقرر

لها في هذا المجمع العام الدرجة الثانية وكانت ايضاً مركز الامبراطرة لم يهدأ لها بال لانها لم تكن قوية في حدّ ذاتها ولذلك كانت تكثر من الشكوى والتذمر من زميلتيها • أما ضعفها بالنسبة لغيرها فهو ان كثيرين من بطاركة القسطنطينية بما فيهم كريسوستم الطائر الصيت حكم عليهم بالعزل اما باتحاد رومية والاسكندرية معاً او بالاسكندرية فقط مع انه لم يصدر هذا الحكم على احد من باباوات الاسكندرية باتحاد رومية والاسكندرية كما انه لم يحكم على بابا روماني بالهرطقة سوى هونوريوس الذي حكم عليه بالابتداع في المجمع السادس والسابع والثامن • ولقد سعى بابا رومية جهده للاتحاد مع بابا الاسكندرية كما يتضح ذلك من خطاب ارسله ليو الى ديسقورس في شهر يونيو سنة ٤٤٥ يطلب فيه المؤاخاة والعمل على التداخل في مهام الامور سوية مادام الاثنان متساويين في الرتبة والدرجة الا ان بابا الاسكندرية رفض هذا الطلب هازئاً مخطئاً للمقترح ومسفهاً اقتراحه

أما وقد عرفنا مركز الباباوات الثلاثة تجاه بعضهم ومنافسة كل منه لنده فعلينا ان نعرف مركز ديسقورس بابا الاسكندرية وصفاته الادبية فنقول ان هذا الحبر اتهم بتهمات كثيرة مثل التي لوثبها غيره من الاحبار السابقين ولكننا اذا دققنا البحث في جوهر هذه الوشايات والتهائم نجدها ألصقت به بعد ان اتهم بالهرطقة التي وُصم بها اثناسيوس وغيره من ائمة الكنيسة القبطية في مثل هذه الظروف التى سهلت على اخصامهم والاعداء وصمهم بوصمات مشينة لا اساس لها ولا مسحة من الصحة فيها فضلاً عن انه

ديسقورس لم يسمح له الزمان بدحض هذه التهم كما دحضها زملاؤه ليس لانه لم يكن قادراً على نقضها مثلما نقضها اثناسيوس بل لانه رأى ان هذه اللمزات والغمزات لا تستحق الالتفات ولا تحتاج الى نقض وابرام مادامت محض كذب وافتراء . والذي وقفنا عليه من صفات ديسقورس ما جاء في أقوال احد المؤرخين حيث اورد انه رجل « عنيف شديد وطاع خاطف كثير الاعتداد بآرائه والتمسك بافكاره . في آدابه سبة ومعرة تهين وتشين » هذا الوصف تناقله الكتاب الغربيون عن ذلك البطريرك وبنوا عليه العلالي والقصور من الاوهام والمزاعم مع انه لم يقم احد دليلاً على صحته ولم يستطع كاتب اثبات حقيقة فيما يختص بطمعه ونهمه او بفساد آدابه وانحطاط اخلاقه ولو ان الشدة والعنف كانا من صفاته كما كانا من مميزات جماعة الأئمة والآباء في هاتيك الايام . صحيح ان ديسقورس كان قوي التمسك بآرائه متصلفاً عنيداً ولكن هذا العناد والتصلف كانا يتملكان فيه عند ما يظهر امام عينيه أمر مجحف بوطنه او بعقائده الدينية وافكاره اللاهوتية

اما الذين رموا هذا البطريرك بشين الآداب وسوء السمعة فقد بنوا زعمهم على امر لم يتثبتوا من حقيقته وهذهِ الحقيقة هي ان ديسقورس كان متزوجاً زواجاً سرياً بمعنى انه كان قد اخفى امر قرانه لئلا يقف هذا القران عثرة في سبيل ترقيته . ولا غرو في ان عملاً مثل هذا يعد دناءة وسفالة ولكنه ليس زنىً وفجوراً . زد على ذلك ان يوحنا النيقاوي وجماعة المؤرخين المصريين كتبوا عنه كتابة ملؤها الاحترام والتكريم حتى ان رجلا

اسمه تاودروس اختصمه ديسقورس وعامله بالضغط والقسوة واتهمه بالهرطقة والبدعة — رجل مثل هذا لا يقال ان له ضلعاً مع البطريرك — شهد عنه شهادة يحسن سكوت المتكلم عليها

ولما كان الشيء بالشيء يذكر نقول هنا ان ديسقورس في اول رئاسته اعتدى على تاودروس هذا اعتداء فاحشاً واتهمه بالانحياز لمبداء نسطور (١) وهزاء ببطريرك انطاكية الذي هو بطريرك تاودروس المذكور ولم يقبل منه شفاعة ولا سمع له كلاماً حتى ان ليو بطريرك رومية وفلافيان بطريرك القسطنطينية نسبوا الى ديسقورس العناد والمقاومة وعدم الميل الى فض المشاكل التي تقع في دائرة كنيسته . وكان من نتيجة اعتقاد هذين البطريركين في بطريرك الاسكندرية انه عند ماتداخل هذا البطريرك في امر يوطيخوس كما سيجيء اغتصبا عليه وأغاظاه غيظاً عظيماً

اما يوطيخوس وهو أرخن من القسطنطينية كان من اشد الناس مقاومة لنسطور وبدعته أتهم بالهرطقة في سنة ٤٤٨ . والذي رمى يوطيخوس بهذه التهمة رجل اسمه يوسيبوس قصد بذلك اقلاق بال هذا الشيخ البالي الذي

(١) إن اتهام تاودروس بالتشيع لتعاليم نسطور افتراء واضح كما يظهر ذلك جلياً من اقراره الآتي وهو « ان الذي يقول عن العذراء الطاهرة بانها ليست أم الله والذي يذهب الى ان ربنا يسوع المسيح هو انسان فقط أو يقول انه اله وانسان معاً يكون محروماً من الخلاص بعيداً عن المسيح محروماً من أم الآباء والقديسين » وهذا الاقرار هو عين الذي اعترف به ديسقورس وخلفاؤه من بعده ولو انهم دخلوا في غمار مناقشات ومناقشات في هذا الصدد مند الدادهم . والذي يتحرى الصدق يرى ان هذا الخصام لم يكن منشأه حب الدين والخوف على العقائد والتعاليم الصحيحة بل نجم من حب الرئاسة والميل الى العظمة والتحكم مما تسلط دائماً في صدري ليو وديسقورس

انزوى في ديره وارتكن القرار من دار الغرور هذه والعيشة في ظلال السلم والسكينة . الا ان فلافيان بطريرك القسطنطينية قاطع يوسيبوس عند ما قام هذا في مجمع الاساقفة المنعقد في القسطنطينية يوم ٨ نوفمبر وقرأ على مسامع الحضور رقعة جاء فيها ان بوطيخوس مجدّف ملحد وعندها قال فلافيان ان هذه التهمة تستدعي الاستغراب والتعجب ولم يزد على قوله هذا حرفاً لانه كان كغيره من بطاركة الاسكندرية ورومية كثير التعجب والخيلاء يخشى انتقاد المنتقدين ولوم اللائمين حتى في ساعة الدفاع عن المظلومين . اما يوسيبوس فلم يعبأ بمدافعة فلافيان ولا هو التفت الى قوله بل اقنع الحضور بطلب بوطيخوس امام المجمع الذي أجَّل التئامه الى اليوم الثاني عشر من الشهر المذكور . فلما حل هذا اليوم لم يحضر بوطيخوس فضرب الاعضاء صفحاً عن مسألته في هذه الجلسة ايضاً واخذوا يتناقشون في تقرير قاعدة لحكاية الطبيعة والطبيعتين وانتهوا على هذا القرار وهو : — « ان المسيح آله تام وانسان تام متحد مع الآب في اللاهوتية ومع مريم العذراء في الناسوتية . فهاتان الطبيعتان اتحدتا بعد التجسد في شخص واحد هو يسوع المسيح » ولم يعارض أحد في هذا القرار الآ باسيلي اسقف سلوشيا الذي قال « انى أعبد المسيح ذا الطبيعتين حتى بعد التجسد »

وبعد هذا ارفضّ المجمع واعيد احتشاده في ١٥ نوفمبر حيث عاد الرسل الذين أُنفذوا لاحضار بوطيخوس وقالوا انه تعذَّر عليه الاتيان معهم لانه آلى على نفسه ان لا يبرح الدير باقي ايام حياته وانه يعتبر يوسيبوس عدواً لدوداً

٥ · ثم اعترف لهم بايمانه قائلاً انه يؤمن بأن المسيح انسان تام ولكنه ليس ذا لحم ودم نظيرنا وليس هو ذا طبيعتين بعد اتحاد اللاهوت بالناسوت فلم يقتنع المجلس بهذا الاقرار بل ارسل قوة اخرجت ذلك الناسك من صومعته قهراً وجاءت به امام المجمع وخلفه عدد لا يحصى من الضباط والعساكر والرهبان ولذلك خافت الحكومة على حياته فأوفدت اميراً يتولى حراسته ويذود عنه

فلما مثل يوطيخوس امام المجمع اعاد على مسامع اعضائه اعترافه الاول وقال انه لا يزال يعتقد اعتقاد البطريركين اثناسيوس وكيرلس (١) وانه يؤمن مثلهما ان للمسيح طبيعتين قبل التأنس قد اتحدتا بعد ذلك وصارتا آلهاً كاملاً وانساناً كاملاً · فلم يرضَ المجلس بهذا التصريح بل حكم على يوطيخوس بالحرمان والشجب لابتداعه في قوله ان للمسيح طبيعة واحدة بعد التجسد · فاستأنف يوطيخوس هذا الحكم الى بطريركي رومية والاسكندرية فانحاز هذا الى جانب يوطيخوس وقام يدافع عنه دفاع الابطال · وقبل ان يتمكن بطريرك رومية من الاجابة على مكتوب يوطيخوس لتأخره في الوصول اليه وصله اعلان من الامبراطور ثيودوسيوس الثاني بناء على طلب ديسقورس يقول فيه انه عهد بفض هذه المشاكل الى مجمع يلتئم في مدينة أفسس تحت رئاسة البطريرك الاسكندري

فعند ما سمع بطريرك رومية بهذا الخبر احتدمت نار الغيرة والغيظ

(١) ان المجمع اعتبر اقرار اثناسيوس الذي تمسك به كيرلس ويوطيخوس بعده مزوراً ملفقاً ولذلك رفضه بتاتاً مع ان هذين الاخيرين اعتقدا بذلك الاعتراف على انهما انه صحيح مضبوط

في صدره وكشر عن ناب العداء والخصام نحو ديسقورس و « محسوبه » بوطيخوس فلم يحضر بنفسه الى افسس بل أرسل نواباً الى المجمع يحملون مكتوباً خصوصياً الى فلافيان يشرح فيه رأيه في هذا المعضل . ولم يكتف ليو بذلك بل وصم هذا المجمع بوصمة الاختلاس والتدليس واظهر احتقاراً لحكمه وازدراء بعباراته التي كانت تتضمن شيئاً من المغامز وقوارص الكلم . ومما يجمل ذكره هنا ان بعض المجامع الكنائسية كانت تصدر احكاماً شديدة اللهجة عنيفة المنطق ولكن هذا العنف لم يكن ينسخ الاحكام ولم يبطل مفعولها

وقد وجد في الفاتيكان (وهو مسكن باباوات رومية) كتاب قبطي قديم بخط اليد يؤخذ منه ان ناسخه تلقن الاقوال الموجودة فيه من فم ديسقورس نفسه لما كان في منفاه . وهذا الكتاب يحتوي على سفر ديسقورس الى مجمع افسس وما تم فيه . وقد جاء في هذه النسخة حكاية كلها ثناء وتعظيم لمكاريوس احد مشاهير الرهبان المصريين في ذلك العصر الذي تعين أيضاً اسقفاً لناحية ادكو (بمديرية البحيرة) . ويظهر من هذه الحكاية ان هذا الراهب مكاريوس كان قد وفد على الاسكندرية مع تلميذ له اسمه ينوشن وفي نيتهما الذهاب الى مجمع افسس مشياً على الاقدام . فلما رست السفينتان المعينتان لنقل ديسقورس واساقفته جاء ربانهما الى مكاريوس وطلب منه باحترام أن يرافقه في سفينته لصعوبة السفر الى أفسس على القدم ولما فيه من مشقة وعناء . فرفض مكاريوس طلبه وقال له « اني لا اسعى خلف الراحة والاستكانة بل يلذلي التعب في سبيل الخدمة الدينية

ولذلك عزمت أن أسير الى المجمع راجلاً » فلم يتركه ربان السفينة بل ألحّ عليه متوسلاً ان يركب السفينة فاجابه الراهب « الله يباركك يا ابني فلا تكثر من الالحاح عليَّ فليس في وسعي ركوب المراكب خصوصاً وليس عندي دراهم ولا امتلك شيئاً من حطام الدنيا الفاني » فرد عليه قائد السفينتين قائلا « اذا كانت الدراهم تعوقك عن النزول في سفينتي فيمكنك ان تذهب مجاناً مع البطريرك في سفينته » ولما علم مكاريوس انه يسافر مع البطريرك فرح وانسرَّ قلبه وشكر هذه الظروف التي أهلته ان يرافق خادم الله ولكنه لم يجلس على مقربة منه بل اتخذ له مكاناً قصياً في مؤخرة السفينة . على ان ديسقورس لما سمع بخبر قدومه رحب به ورجاه ان يختار له محلا مناسباً في وسط الجارية لاان يبقى في مؤخرتها . الا ان هذا الناسك المتعبد لم يكن يفهم كلام البطريرك ولا استطاع هذا فهم كلامه لانه كان امياً لا يعرف الا لغة الارياف التي لا يدركها غير جماعة الفلاحين ولذلك استدعى البطريرك ترجماناً ليترجم بينهما . وحدث ان شماساً نظر الى مكاريوس شذراً بمؤخر عينه دلالة على احتقاره اياه وعجب من احتفال البطريرك والاساقفة برجل غرّ جاهل مثل هذا الراهب الذي لا يعرف شيئاً من المعارف ولا حتى اللغة ولكن ديسقورس وبخ الشماس المذكور على خفته واضطره ان يلتمس العفو والغفران من مكاريوس مع ان هذا لم يفهم معنى كلام الشماس ولا هو عرف مقدار الاهانة التي لحقت به ولذلك اندهش لما رأى هذا الشماس جاثياً امامه على ركبتيه يطلب منه الصفح والسماح فمدَّ يده واقامه وهو يسأل

عن سبب ذلك الخضوع والاستغفار فشرح له ديسقورس المسألة وطلب منه ان يسامح الشماس على خطأه او يكون عقابه الحرمان . فصفح عنه مكاريوس قائلاً « اسأل الله ان يغفر لك خطاياك يا بني »

ومن ذلك الحين اصبح مكاريوس موضوع احترام جميع المسافرين الذين كانوا يحبونه و يعتبرون مقامه لدرجة انهم ظنوا فيه المقدرة على اجراء آيات وعجائب توهموا ان باقي النساك والزهاد الذين من طرز مكاريوس يجرونها متى شاؤا حتى اكثروا من السؤال على تلميذه بينوشن ان يسرد لهم حكاية احدى العجائب التي تمت على يد معلمه . فقص عليهم التلميذ خبر هجوم مكاريوس على بلدة وثنية فيها هيكل وثني اتهم سكانها بخطف صبيان المسيحيين وذبحهم على مذابح اصنامهم . فسار مكاريوس في الحال على هذه البلدة ومعه ثلاثة رجال فقط . فعند مارأى رجال مكاريوس الهيكل وقبته الشامخة السامقة مكتظة بجيش عرمرم من الوثنيين وبأيديهم السيوف والرماح تضيء كالدراري انهلعت قلوبهم واصطكت ركبهم وخارت قواهم وخانتهم شجاعتهم خصوصاً لما نهاهم الوثنيون عن الدنو من هيكلهم قائلين لرئيسهم مكاريوس بصوت كقصف الرعد « مالك ولنا ياهذا ولماذا جئت هنا »

اجابهم الراهب بقول ملؤه الهيبة والحماس « لقد اتيت اليكم حتى ارى ماذا انتم فاعلون بغلمان المسيحيين الذين اختطفتموهم اختطافاً لتذبحوهم لاوثانكم الكاذبة »

قال الوثنيون « ان الذي ابلغك هذا الخبر كاذب غاشم اذ لا صحة لهذا القول »

فرد عليهم مكاريوس «اذا كان مابلغني غير صحيح فاسمحوا لي بدخول الهيكل لكي اتأكد صحة ماسمعته او كذبه»

قال يينوشن راوي هذا الخبر «وحينئذ اشار الينا الوثنيون بالدخول ولكن رجلين من الذين كانوا معنا امتنعا عن الدخول فولجت الهيكل مع معلمي ورجلين آخرين ولم يكن كلمح الطرف حتى هجم علينا عشرون رجلاً يقصدون اخذنا غيلة وهم يقولون لنا لقد دنا اجلكم الآن ولم يبق لكم في الحياة مطمع ثم امسكوا مكاريوس وكادوا يذبحونه على مذبح آلهتهم الكاذبة لولا ان هوميرس رئيس كهنتهم الذى يحتم عليه اجراء هذه الذبيحة لم يكن موجوداً في الهيكل فارسلوا يستدعونه . وقد انتهزت هذه الفرصة وهمست في اذن معلمي الذي كان مغلولاً معي وقلت له «لقد آن لك ان تصلي وتطلب النجاة من الله لانه قد حان حيننا وهو ذا كأس الحمام يترع لنا» فاجابني مكاريوس «تشجع يا بني ولا تجزع فان يسوع سوف يخلصنا من مخالب الموت الزؤام» ولم يكد استاذي يكمل كلامه حتى طرق مسامعنا صوت ويصا على الباب يطلب فكنا من عقالنا»

فبل ان ويصا هذا علم بذهاب مكاريوس لمهاجمة هيكل الوثنيين فتبعه على الاثر في نفر من الرجال وادرك مكاريوس في آخر انفاسه فكسر باب الهيكل وانقذ ذلك الراهب البالي والذين معه ثم قبض على هوميرس رئيس كهنة الوثنيين واحرقه حياً واضرم النار في جميع الاصنام فلاشاها ودار في البلدة يحرق الهتها ويوقع الرعب في قلوب ساكنيها حتى اضطر كثيرون منهم ان يتعمدوا !!!

وبينما كان ينوشن يسرد هذه القصة العجيبة كان الاساقفة والقسوس المصريون يصغون اليه برغبة وشوق شديدين وهم يعجبون بشجاعة مكاريوس وبسالته وقد تناسوا امر الهرطقة والهراطقة والبدع والمبتدعين وهي فترة لم تسنح لحضرات الاحبار والائمة الذين كانوا يلوكون في افواههم هذه المسألة الموجبة للشقاق والخصام واللدد والانقسام مما اوصى سيدهم باجتنابه لفائدة الكنيسة وتقدم الانجيل ولكن هؤلاء الاتباع كانوا قد اغمضوا الطرف عن السلام وصرفوا جهدهم الى ما يقضي بالبغضة التي تفعل في النفوس اكثر من فعل الحسام ·

الفصل الخامس والعشرون

مجمع خلكيدونية

سنة ٤٤٩ للمسيح و ١٦٥ للشهداء

في اليوم الثامن من شهر اغسطس سنة ٤٤٩ التأم مجمع خلكيدونية في كنيسة العذراء بافسس حيث حكم فيها على نسطور بالحرمان قبل هذا الوقت بزمان · ثم جلس ديسقورس بطريرك الاسكندرية في كرسي الرئاسة وبيده المكتوب الذي ارسله له ليو بطريرك رومية واشرنا اليه قبلاً ولكن ديسقورس اعتذر عن قراءة هذا الخطاب على مسامع اعضاء المجمع وتذرع باسباب انتحلها لهذا الغرض · وكان الامبراطور تيودوسيوس قد اوفد لسوء

لحظ ارخنا (ارشمندريتي) سوريا اسمه برسوم لينوب عن باقي اراخنة الشرق في المجمع . وكان برسوم هذا كغيره من الرهبان السوريين جاهلاً متصلفاً ومتعصباً متحيزاً يكره يوطيخوس وينفر منه . فلما ارسله الامبراطور للمجمع لم يحضر جنابه وحده بل جلب معه جيشاً من الرهبان زملائه لا يقل عديدهم عن الف راهب ضربوا خيامهم حول الكنيسة حتى ضايقوا حرس الحكومة وزادوا عنه في المد والعدد ومنعوه عن اتمام المأمورية التي جاء لاجلها (اي الحرس) وهي حفظ السلام واستتاب الامن في المجمع

فلما افتتح المجلس جلساته بدأ الهرج يظهر بين اعضائه الا انهم كانوا متفقين جميعهم على نتيجة عملهم الا يوسيبوس الذي جاهر برغبته في الحكم على يوطيخوس بالحرمان وذلك لعداوته وبغضه له . وعند ما قرأ كاتب الجلسة قرارات مجمع القسطنطينية الذي حكم فيه على يوطيخوس بالحرم كان الاعضاء ساكتين ساكنين يصغون ويفهمون الى ان وصل القارئ للتعديل الذي ادخله باسيلي اسقف سلوشيا على اقرار فلافيان بطريرك القسطنطينية فيما يختص بالطبيعتين والمشيئتين وهو قوله « اني اعبد المسيح ذا الطبيعتين حتى بعد التجسد » فهاج الاعضاء وماجوا وازداد هرجهم الى درجة الهوس والجنون ولكن ديسقورس وجماعته خرجوا من هذه المعمعة منتصرين ظافرين . ثم قام اسقف اورشليم وطلب من باسيلي ان ينكر اعترافه او يحذف منه الكلمات التي اوجبت هذا السخط . وبعد ان هدأ الهياج سأل ديسقورس المجمع عما اذا كان يحكم على يوطيخوس او يبرئه

فاجاب الاعضاء بالتتابع ببراءته واعادته الى وظيفته كما كان (١)

ولو اقتصر الامر على ما ذُكر لغابت هرطقة يوطيخوس وحكايته عن الاذهان ولما تجدد ذكرها تلك الوقائع التي حدثت في مصر فيما بعد . وان ديسقورس انتفخت اوداجه لاجل الغلبة التي احرزها في المجمع وعمل على اذلال بطريرك القسطنطينية خصمه فسطر عبارة ليست ضد يوسيبوس فقط بل ضد فلافيان نفسه مما اوقع المجمع كله في خوف واضطراب فقام النائب عن بطريرك رومية وابدى معارضة لرأي ديسقورس اما فلافيان فقال بعدم اعتباره لسلطة المجلس واستحابه منه ولكن لم يسمع احد اعتراض النائب او انسحاب البطريرك لسبب الغوغاء والجلبة التي اعقبت ذلك

وتفصيل هذه الجلبة ان كثيرين من الاساقفة رموا انفسهم على اقدام ديسقورس وطلبوا منه الرأفة والتساهل قائلين« اذا كان فلافيان يستحق اللوم والتعنيف فلومه وعنفه ولكننا نتوسل اليك ان لا تحكم على بطريرك نظيره بالحرمان لاجل قس بسيط لا هو في العير ولا في النفير» . حينئذ نهض ديسقورس نهضة الاسد من عرينه وصعد على درج عرش الرئاسة وشخص في الحضور فساد السكوت والهدوء فقال يخاطب الاعضاء « اسمعوا يا هؤلاء ان الذي يتوقف منكم عن التوقيع على الحكم على فلافيان فيكون له معي شأن آخر . انني لا زلت انادي بجرم فلافيان وشجبه ولو شد لساني من عنقي . اما اذا

(١) لقد يعسر على العقل تصديق القول بان الاساقفة برأوا يوطيخوس عند ذمنهم . أما الهياج الذي حدث ضد فلافيان فكل واحد يعلم ان ديسقورس هو الذي احدثه وان اللوم فيه واقع عليه

كنتم قد عولتم على الثورة فهذا ليس في طوقكم ولا يستطيع حتى امرأوكم اتيانه »

وبينما كان ديسقورس يتلو هذه الاقوال اذ سمع رهط برسوم ضجة الداخل فلم يجدوا الى التصبر والتبصر سبيلاً بل اندفعوا الى الكنيسة السيل العرم ومعهم خليط من الجنود والرهبان وخدمة الكنيسة قندلفتية ، وعدد كثير من الزعانف والحرافيش واخذوا يصيحون ويضجون صخبون ويصرخون ثم عمدوا الى المضاربة والملاكمة مما لطخ مجمع افسس اني بالطخة سوداء . ولم يكتفوا بهذا كله بل تعدوا على فلافيان واوسعوه ربا واهانة ورموه تحت اقدامهم وداسوه بأرجلهم وكان برسوم يشجعهم عملهم هذا ويحرضهم على قتل ذلك البطريرك اليائس طعناً بالمدى الحراب . وقد خاف الاساقفة اعضاء المجمع على انفسهم فاجابوا كل طلب وهم اياه ولم يتأخروا عن شيء خوفاً على حياتهم حتى انهم امضوا ورقة بيضاء كتب عليها بعد ذلك الحرمان ضد فلافيان . اما النائب الروماني فاركن الى الفرار من الكنيسة دون ان يؤذه احد او يعمل شيئاً . وقد اثرت الضربات واللكمات في فلافيان تأثيراً شديداً فمات على اثرها

وعلى ذلك عاد ديسقورس الى مصر يحف به النصر وتعلو هامته علامات الظفر وتلوح على سيمائه علائم الفخر مما اغاظ ليو واحرق احشاءه خصوصاً لان بطريرك الاسكندرية هذا كانت له سلطة في المشرق تعلو على سلطة الملوك والحكام بينما كان بابا رومية يعمل جهده في الحط من قوة خصمه وتخفيض

شأنه فلم يدع واسطة لمقاومة بابا الاسكندرية ومناجزته والا وطرق بابها حتى انه كتب الى الامبراطور ثيودوسيوس يقول له ان الدين المسيحي سوف يتلاشى ويضمحل من الوجود مالم يلغ حكم مجمع خلكيدونية وتهمد قوة ديسقورس . ثم أعقب مكتوبه هـذا بخطاب آخر الى بولكريا شقيقة الامبراطور التي كانت ساخطة على حرمان فلافيان سخطاً يدل على شريف الاحساس وحسن العواطف . وآخر الكل كتب ليو هذا جواباً الى فلافيان الذي كان قد انتقل من ارض الشقاء الى دار النعيم والبقاء وسطر تحريراً الى كنيسة القسطنطينية يحرضها على نبذ قرارات المجمع والازدراء بها . ولما لم تفده كل هذه الحيل والوسائل رمى بنفسه بين يدي فالنتنيان امبراطور رومية ورجاه ان يطلب من زميله الامبراطور ثيودوسيوس التداخل في مسألة فلافيان وطرحها على مجمع عام يحتشد في رومية

ولما اكثر ليو الالحاح على امبراطوره لم يسع هذا الا القبول فكتب لثيودوسيوس كطلب ليو ولكن ثيودوسيوس لم يغير رأيه بل رد على زميله يقول له انه يعتبر مجمع خلكيدونية مجمعاً قانونياً صحيحاً وان الحكم الذي صدر على فلافيان كان في محله فلا يقبل نقضاً ولا تحويلاً . ومما ينبغي الاشارة اليه في هذا الصدد ان فالنتنيان كان يلقب ليو في جواباته لثيودوسيوس بالبابا الاعظم الا ان ثيودوسيوس كان يسميه البطريرك المحترم او رئيس الاساقفة الموقر . وكان تاريخ هذه الخطابات في فاتحة سنة ٤٥٠ وفي شهر يوليو من هذه السنة انتقل ثيودوسيوس الى رحمة مولاه

ولما رأى ديسقورس ان ليو تمادى في عدوانه وافرط في المعاكسة شرع في حرمانه وتجريده من وظيفته وذلك لانه سعى في ابطال قرارات مجمع نظامي شرعي · وقد اختلف المؤرخون فيما اذا كان ديسقورس قد شرع في مشروعه هذا قبل موت الامبراطور ثيودوسيوس او بعده · والذين قالوا ان ديسقورس ناصب ليو العداء قبل موت الامبراطور بنوا رأيهم هذا على ان صاحبنا بابا الاسكندرية كان قد بلغ ذرى المجد والعظمة ابان حياة ثيودوسيوس لان هذا الامبراطور كان ميالاً لتعضيده والاخذ بيده في جميع اعماله لانه من رعاياه المخلصين له كما انه كان يسعى في الخفض من شأن بابا رومية الذي لم يحسب لاوامر الامبراطور حساباً ولم يجب طلبه عند ما دعاه للحضور في مجمع خلكيدونية كباقي اقرانه مما اهاج سخط ثيودوسيوس عليه وظنه ساعياً في ايجاد قوة ونفوذ له في المملكة الشرقية - اما الذين زعموا ان ديسقورس فعل ما فعله ضد ليو بعد وفاة ثيودوسيوس فاسندوا زعمهم على ان ذلك البطريرك عمل على حرم ليو عند ما تشكل مجمع نيقية سنة ٤٥١ حيث امضى عشرة من الاساقفة الحكم الذي صدر ضد البطريرك الروماني مما حدى ببعض الكتاب الى الظن بان هذا الحكم برز من مصر وليس من نيقية لان اكثر الاساقفة الذين امهروه كانوا مصريين

وكان بعد موت الامبراطور ثيودوسيوس ان اخته بولكريا اخلفته على سرير المملكة واختارت احد النبلاء الاشراف المسمى مركيانوس ليكون زوجاً لها ويساعدها في تدبير مهام الملك · وكانت هذه الامبراطورة ميالة

الى فلافيان ومبدئه ولكن ميلها هذا لم يكن شيئاً يذكر بالنسبة الى الاحوال السياسية التي تجلت امام عينيها وكانت مغمضة على اخيها ثيودوسيوس . ذلك انها رأت الحد الذي وصل اليه بابا الاسكندرية من القوة ومنعة الجانب وان اتساع سلطته هذه قد تضر بمملكتها ضرراً لا يحمل السكوت عليه اذ لا يبعد ان تضيع مصر من يدها وهي اخصب اراضي سلطتها واوفرها ثروة واعظمها غنىً واكثرها رضوخاً . فلذلك سلكت بولكريا مع زوجها مسلك دهاة السياسة فلم تسمح لامبراطور رومية بالتداخل في امر بطاركتها ومجامعها كما انها اتخذت مسألة الاختلافات المذهبية والانشقاقات الكنائسية آلة ماضية تقاتل بها خصومها ورأت بدهائها ان اقوى سلاح يقطع اوصال ديسقورس ويقوّض اركان سلطته هو اتهامه بالهرطقة . وكان لديسقورس في ذلك الحين سفير مفوّض ينوب عنه امام حكومة القسطنطينية ثم ترقى هذا السفير بواسطة ديسقورس وصار بطريركاً للقسطنطينية . فاول عمل شرعت فيه الامبراطورة مع زوجها اجبارها سفير ديسقورس على حرمان يوطيخوس ونسطور في مجمع رسمي والمصادقة على مبادىء ليو ثم كتب مركيانوس الى ليو يقول له انه مستعد ان يجمع له مجمعاً تحت رئاسته اذا احب الانتقال من مكانه والا اذا رأى في السفر مشقة وعناء فان مركيانوس يرأس المجمع بنفسه وينوب منابه (اي مناب ليو)

فردّ ليو على مركيانوس بخطاب مؤرخ في ابريل سنة ٤٥١ يقول له ان لا حاجة لهذا المجمع بالبحث في تخطئة اعتقاد يوطيخوس او تفنيد آراء

ديسقورس واحكامه لان هذه المسائل قد مضى وقتها وانقضى — ولكن اذا عقد مجمع فليكن اول موضوع يتناقش فيه الاوجه التي يجب الصفح بها عن اولئك الاساقفة الذين اتبعوا رأي ديسقورس وساروا في طريقه في ذلك المجمع الاخير · ومعلوم ان مركيانوس لم يكن يروق له تشكيل المجمع في رومية حسب فكر ليو بل اصدر امره باحتشاد جميع الاساقفة في نيقية فساء عمله هذا ليو ولم يذعن للحضور هذه المرة ايضاً ولكنه ارسل نواباً عنه ادّعى فيما بعد انهم رأسوا الجلسات باسمه والحقيقة ليست كذلك بل ان مركيانوس انتخب تسعة عشر عضواً من اشراف المملكة وكبار موظفيها ليترأسوا على المجمع بدلاً عنه اما النائبون عن بابا رومية فانهم اكتفوا بالرئاسة في انهم جلسوا على منصات اعلى من التي جلس عليها زملاؤهم

اما المجمع فلم يلتئم في نيقية بل ان اكثر من خمسمائة اسقف الذين وفدوا على هذه المدينة صدر لهم الامر بالرحيل الى خلكيدونية وعقد المجمع بها وقد كان كذلك وافتتحت الجلسات في اليوم الثامن من شهر اكتوبر سنة ٤٥١ في كنيسة خلكيدونية ·

وكان اول اقتراح طلبه مندوبو بابا رومية انسحاب ديسقورس من المجلس · فسأل الرئيس عن الباعث لهذا الانسحاب وعن الاسباب التي تلجيء المجمع الى اخراج هذا البطريرك من قاعته · فكان اعتراض هؤلاء المندوبين ان ديسقورس شكل مجمعاً دون ان يستأذن الكرسي الرسولي وهم يقصدون بالكرسي الرسولي بابا رومية وهي دعوى لم يبق لهؤلاء

البابوات غيرها من اشكال الرئاسة والخيلاء ولو انها صارت في يدهم اسماً لا فعلاً) فلم يصادق مندوبو الحكومة على هذا الرأي السقيم وقرَّ قرار المجمع على بقاء ديسقورس ضمن اعضائه ولكن ليس على كرسي الرئاسة كما كان في المجامع السابقة لانها اصبحت في يد رجال الامبراطور · والذي فتح باب هذا الاقتراح المار ذكره هو يوسيبوس عدو يوطيخوس الالد فرد عليه البابا ديسقورس بغاية الرصانة والتعقل قائلا انه لم يكن في حاجة لاستئذان « الكرسي الرسولي » في عقد المجامع مادام قد صدر امر من الامبراطور يقضي بتشكيلها ثم طلب قراءة القرارات التي قد قرَّ عليها المجمع الاخير · وقبل ان يبدأ القاري بسرد ما عنده دخل ثاودروس الانطاكي فاحدث دخوله عجيجاً وضجيجاً في المجمع كما حدث في افسس قبلاً وقام الحزبان ضد بعضهما يرمي كل منها خصمه ببذيء المثالب وقبيح المطاعن حتى كادت غرفة الجلسات تصير ميداناً للمضاربة والمحاربة لولا ان مندوبي الامبراطورة استعملوا نفوذهم وسلطتهم في اعادة النظام والسكينة ووقف واحد منهم وخطب في المجمع قائلاً : — « انه لا يجدر بالاساقفة وأئمة الدين ان يأتوا مثل هذه الاعمال المشينة من صياح وصراخ وسب وقذف وضرب ولكم بل يجب عليهم ان يكونوا قدوة للشعب في الهدوء واجراء الامور على محور الحكمة والسداد · ولذلك ارجوكم ان تستعملوا البرهان بدل المهاترة والدليل عوضاً عن القول المراء واميلوا اذانكم الى سماع ما يتلى عليكم »

فقرأ الكاتب قرارات المجمع السابق وكان اعضاء الحزبين يقاطعونه

بضجيج الاستحسان او الاستهجان الا ديسقورس فانه سار سير العاقل الحكيم ولم تبدُ منه اشارة تدل على النزق والتهور بل كان يجرد سيف البرهان القاطع ويلفظ كلامه بمنتهى الفصاحة والحصافة ويبوح بما يعتقد به في مسألة الطبيعتين والمشيئتين غير هياب ولا وجل . ومما فاه به ديسقورس في هذا المجمع قوله « ان الاسباب التي بني عليها الحكم على فلافيان واضحة صريحة هي انه كان يعتقد بوجود طبيعتين للمسيح بعد التجسد . ولقد عثرت على شواهد من اقوال البطاركة اثناسيوس وغريغوريوس و كيرلس (١) وفيها انهم كانوا يعتقدون بعدم وجود طبيعتين للمسيح بعد التجسد بل ان الكلمة المتجسدة اتخذت طبيعة واحدة فقط . فاذا كان في اعتقادي خطأ فيكون اصله من خطأ هؤلاء الاباء المحترمين الذين اقول انا بقولهم ولا احول عن مبادئهم . وحتى يكون المجمع على ثقة من قولي الخبر ، اني نقلت اقوالهم هذه بالحرف الواحد واعتنيت كثيراً في ضبطها على الاصل والتحقق من صحتها »

وقد تذمر مندوبو بابا رومية من حرية ديسقورس في افكاره وكلامه وقالوا ان فلافيان لم يسمح له بمثل هذه الحرية في مجمع افسس فاجابهم الرئيس « ان هذا المجمع يقتفي آثار العدل والحق في اعماله فهو يمنح حرية الافكار الصحيحة لجميع الاعضاء على السواء »

وبعد هذا نظر المجمع في الشدة التي استعملها ديسقورس في مجمع افسس

---

(١) ان الحزبين المتضادين في هذا المجمع اتفقا على السير بمقتضى رأي كيرلس لانه وافق كلاهما في كونه قابل للتأويل والتفسير مثل نص العهد الجديد نفسه

والعنف الذي ظهر في جميع تصرفاته . فاقترح مفوضو الحكومة عزله هو وخمسة اساقفة من وظائفهم لانهم اختطوا لهم حينئذٍ خطة غير حميدة . فصادف هذا الاقتراح تصفيق الاستحسان وتهليل الفرح من الخصوم ولكن اغلبية المجمع لم تقر عليه . ثم طرح بعضهم آراء ليو بخصوص الطبيعتين وطلب غيره البحث في الخطاب الثالث الذي كان قد بعث به البطريرك كيرلس الى نسطور وكان الوقت قد ضاق فرأى مندوبو الحكومة تأجيل المجمع الى خمسة ايام . ولكن حزب بطريرك رومية اقنع باقي الاعضاء بالالتئام بعد ثلاثة ايام بدلاً من خمسة وذلك لكي يستطيعوا تنفيذ اغراضهم دون ان يتداخل مندوبو الحكومة في امرهم . فلما التأم المجمع بعد ايام ثلاثة لم يحضره ديسقورس لان رجال الامبراطورة لم يكونوا هنالك ولم يعترفوا بصحة هذا الاجتماع . فانتهز اخصامه فرصة غيابه وغياب اولئك المندوبين العاليين ووجهوا اليه كل انواع التهمات الشائنة والوصمات المعيبة كما عمل اسلافهم مع اثناسيوس في الايام الغابرة واخيراً قرّ رأيهم على عزل ديسقورس وارسلوا له اعلاناً رسمياً بهذا القرار ثم بعثوا بصورته الى اعضاء كنيسته واساقفته الموجودين معه في خلكيدونية والى مركيانوس والى بولكريا والى فالنتيان والى كرسي القسطنطينية وخلكيدونية

وفي ١٧ اكتوبر احتشد المجمع بهيئته الرسمية وكان من فاتحة اعماله اعتراض مندوبي الحكومة على عزل بابا الاسكندرية في اثناء غيابهم وبدون تصديق الامبراطورة وكان من ذلك ان الحكم على ديسقورس لم يصادق عليه

المجمع بطريقة قانونية مع انه نفذ وذكر في اول القرارات الصادرة منه· اما الخمسة اساقفة الذين حكم عليهم معه فصفح عنهم المجمع وردهم الى وظائفهم·

ثم ارسل المجلس واستدعى ثلاثة عشر اسقفاً مصرياً وطلب منهم ان يحرموا يوطيخوس ويصادقوا على آراء ليو · وبعد اخذ ورد وتمنع واباء قبل هؤلاء الاساقفة حرم يوطيخوس ولكنهم رفضوا الاقرار على مبادىء ليو الا باذن من بطريركهم الاسكندري · ومما قالوه اعتذاراً على رفضهم هذا انهم اذا عرف عنهم مخالفة رأي رئيسهم او السير على غير منهاجه فلا ريب ان الاقباط في مصر يوردونهم حتفهم ويمزقون اجسادهم عند ما يؤوبون الى بلادهم فوعدهم رجال الحكومة بالدفاع عنهم او بالتصريح لهم بالاقامة في القسطنطينية على الرحب والسعة الى ان يتم انتخاب بطريرك جديد لمصر ولكن الاساقفة لم يقبلوا ولم يقروا على صحة آراء ليو

وحيث ان باقي قرارات هذا المجمع لا تهمّ الاقباط اصحاب هذا الكتاب فلا حاجة الى ايرادها هنا خصوصاً وانها مشهورة ومسطورة في كل كتاب ديني جدلي · فقط نقول ان نتيجة المجمع المذكور كانت خلع ديسقورس من كرسيه كما يخلع الملوك من عروشهم وهذا سببه الحدة والشدة اللتان اشرنا لهما آنفاً ولذلك قبل ديسقورس هذا الحكم بكل طاعة ورضوخ وعزم على عدم العودة الى مصر وصرف باقي ايام حياته في بلدة اسمها كنجرة كان قد نفي اليها عقيب صدور ذلك الحكم حيث عاش عيشة هادئة مطمئنة·

اما اقباط مصر فلم يذعنوا لهذا القرار الذي صدر ضد بطريركهم ولا زالوا الى يومنا هذا يرفضون قرارات مجمع خلكيدونية ويقولون بعدم صحتها ولذلك فالكنيسة القبطية لا تعتبر المجمع المذكور من المجامع المسكونية الشرعية ٠

الفصل السادس والعشرون

نتيجة الشقاق بين الكنائس

ومركز الاروام في مصر

سنة ٤٥١ للمسيح و١٦٧ للشهداء

لما طرق مسامع المصريين ما لحق ببطريكهم من الحرمان والعزل هاجوا وغضبوا واتفقوا على عدم الاعتراف بقرار المجمع الذي اصدر هذا الحكم واعلنوا رضاءهم ببقاء هذا البطريرك رئيساً عليهم ولو انه محروم محجوب وان ايمانه ومعتقده هو عين ايمانهم ومعتقدهم ولو خالفه فيهما جميع اباطرة القسطنطينية وبطاركة رومية ٠ والذي اغضب المصريين كثيراً هو انهم اعتبروا ان الحكم الذي صدر ضد بطريركهم ماس بحريتهم الوطنية مجحف بحقوقهم السياسية ولو انه حكم ديني صرف لا يهمهم امره ما دام ان القانون الاساسي لكنيستهم قد صادق عليه البطريرك المذكور وصاروا يتمسكون به تمسكهم بقواعد دينهم ٠ وكانت نتيجة هذا كله ان اسباب الشحناء والبغضاء نمت وتعاظمت بين الاقباط الوطنيين وبين الرومانيين المقيمين

في مصر وزادت عوامل الجفاء والخصام بينهم خصوصاً عند ما انحاز جماعة اليونان الى الكنيسة الرومانية مع انهم كانوا مثل المصريين في العوائد والاخلاق · وكان المصري في ذلك الحين يبرهن على صدق وطنيته واخلاصه لبلاده برفضه قرارات مجمع خلكيدونية رفضاً باتاً والمزء باعماله

وعندما وفد على مصر اربعة من الاساقفة مع مندوب من قبل الامبراطورة لانتخاب بطريرك جديد احتدم الشعب المصري غيظاً وبدأ دخان غضبه يتعالى مما يدل على كمون نار قد تلتظي اذا حركتها ايدي العوامل الفعالة · ذلك ان المصريين كانوا لا يزالون يقولون بأن ديسقورس هو بطريركهم وحاكمهم المطلق وولي امرهم وانهم لا يقبلون بديلا عنه مادام هو على قيد الحياة · ولكن قوة الحزب الروماني في كنيسة الاسكندرية تغلبت على نخوة المصريين وانتهى الامر بترشيح رئيس كهنة الاسكندرية واسمه بروتوريوس للبطريركية مع ان ديسقورس كان يثق به حتى عهد اليه بادارة امور الكنائس اثناء غيابه الا انه خالف هذه الثقة وصرح بقبول احكام مجمع خلكيدونية ليكون مقبولاً في عيني منتخبيه الاروام كما انه صادق على اراء البابا ليو عند ما طلب منه هذا المصادقة عليها (١)

(١) ان بابا رومية نفسه لم يكن راضياً من مجمع خلكيدونية ولم ترق في عينيه القرارات التي أصدرها مع انه تمكن بواسطته من سحق خصمه العنيد ديسقورس ولكنه لم يتحصل على غايته القصوى التي كان يسعى اليها وهي التصديق من الامبراطورة أو المجمع بأولوية الكرسي الروماني واعطائه الرئاسة على باقي الكراسي فضلا من ان المجمع قرر في المادة الثامنة والعشرون تجريد كرسي رومية من هذه الدعاوي الفارغة وبأن لاحق له في الاسبقية على الكنائس الشرقية · وقد اغتاظ ليو أيضا لانه كان يقصد ادخال هذه العبارة في القرار الذي

ولما اتفق الاساقفة المصريون على رسامة بروتوريوس ثارت الامة المصرية عن بكرة ابيها واشتد هياج الشعب وضجيجه لانهم اعتبروه خائناً لوطنه غاشاً لكنيسته وعدّوه منافقاً مرائياً . وحدث ان الحكومة ارسلت كتيبة من الجند لاخضاع هذا الشعب الثائر ولكن الاقباط هزموا جيش الفرسان هذا وحصروه في قباب هيكل سيرابيوم الذي كان قد عفت آثاره وتهدمت اركانه ثم اوقدوا النيران فيه واحرقوا العساكر وذروا تراب اجسامهم في الهواء . فاغاظ هذا العمل فلورس والي مصر وقائد جنودها فعوّل على الانتقام منها انتقاماً قاسياً مؤلماً فقطع عن السكان جراية الخبز التي كانت تصرف للتكايا والمساطب واغلق الحمامات العمومية وابطل المعارض والمجتمعات ثم ارسل يطلب مدداً من القسطنطينية فامدته الامبراطورة بألفي رجل وصلوا اليه في ستة أيام ولكنهم لم يكونوا من الجنود المدربة بل هم كانوا حديثي العهد في الخدمة العسكرية ولذلك تمردوا وعصوا الاوامر فزادوا الشر تفاقماً والحرق اتساعاً فاضطر فلورس ان يعقد هدنة مع المصريين واجتمع مع نخبة منهم في ميدان سباق الخيل وتعهد هذا الوالي لهم بالغاء الاحتياطات الصارمة التي اتخذها ضدهم ولذلك تم الصلح بينهم ولكنه صلح ظاهري فقط غير صادر من القلوب والافئدة الا ان المصريين لم يعترفوا برئاسة

صدر بحرمان ديسقورس وهي « نحن نواب بابا رومية رئيس الكنيسة الجامعة نحرم ديسقورس بمصادقة المجمع على ذلك » الا ان المجمع رفض هذه الجملة واكتفى بالتالية وهي « رئيس أساقفة رومية العظمى » . ومع ان بروتوريوس ساق ليو وصادقه الا انه لم يتنازل له عن أولوية الكنيسة القبطية في اصدار رسائل عيد الفصح التي كان يكتبها بطاركة مصر على الدوام

بروتوريوس الذي عينته الامبراطورة بطريركاً عليهم فكان الرجل شاعراً
بالخطر المحدق به ولذلك كان اذا انتقل من مكان للآخر تخفره ثلة من
الجنود كما ان القسوس كانوا يبغضون هذا البطريرك الخائن ويضمرون له
الشر ولم يرافقه احد في سيره سوى اربعة عشر اسقفاً واما باقي الاساقفة
والقسوس فكانوا يحتقرونه ويهزأون به لانه رفض ذكر اسم ديسقورس في
القداس ولانه صادق على مجمع خلكيدونية . وكان رئيس هذه العصبة
الكارهة لبروتوريوس رجل اسمه تيموثاوس كان قد حكم عليه بالحرمان مع
شماس اسمه بطرس ونفيا الى ليبيه مع خمسة اساقفة ورهط من رهبان
الاسكندرية لانهم ابوا الاعتراف ببروتوريوس بطريركاً عليهم مادام
ديسقورس لا يزال حياً

وفي سنة ٤٥٤ توفي ديسقورس وبعد وفاته كان المصريون لا يزالون
ينكرون بطريركية بروتوريوس ولكنهم لم يتمكنوا من رسامة خلف له الا بعد
مضي ثلاث سنوات عند ممات الامبراطور مركيانوس الذي كان معضداً
لبروتوريوس . فلما سمع تيموثاوس بوفاة الامبراطور عاد مسرعاً الى الاسكندرية
فرسمه الاساقفة الذين يكرهون بروتوريوس وينفرون منه . قيل ان تيموثاوس
هذا لعب العاباً خيالية في احدى الليالي خارج مناسك الرهبان وعمد الى
مثل هذه الحيل والاوهام السافلة لكي يحمل الآخرين على انتخابه . وهو
عمل يشير الى ان رسامته لم تكن قانونية ولكنه لم يتفرد فيه وحده بل ان
بروتوريوس عمد الى مثل هذه الخديعة ولذلك لم تكمل فيه وفي تيموثاوس

الشروط الضرورية التي تطلبها الكنيسة من الذي يتصدر لمسند البطريركية . واتفق انه عند رسامة تيموثاوس كان الوالي غائباً عن الاسكندرية فساءه تعيين البطريرك اثناء غيبته ولذلك شرع في نفيه من الاسكندرية بغاية الحنق والعنف وكان في مشروعه هذا بدء شقاق وخناق وقعت نتيجتهما السيئة على رأس بروتوريوس المسكين . وتفصيل ذلك ان جماعة من غاغة القوم وحرافيشهم هجموا على منزل بروتوريوس ولكنهم لم يتمكنوا من القبض عليه لانه كان قد التجأ الى كنيسة مجاورة لبيته فظل اولئك الاوباش واقفين امام المنزل وهم يموجون ويضجون ثم اندفعوا الى الكنيسة بقوة لا تقف امامها قوة وقبضوا على بروتوريوس وستة من القسوس الذين كانوا مختبئين في مكان المعمودية وذبحوهم بالمدى والنصال ثم سحبوا جثة بروتوريوس وطافوا بها في شوارع المدينة وبعد ان مثلوا بها شر تمثيل واهانوها منتهى الاهانة احرقوها في لهيب من النار المضطرمة . وكانت هذه ثالثة الاثافي او هي ثالثة حوادث القتل المعيبة التي تلطخت بها مدينة الاسكندرية اذ لا يخفى ان الاولى قتل جرجس الاريوسي والثانية قتل هيباشا الفيلسوفة المصرية الشهيرة .

وكان تيموثاوس غائباً عن الاسكندرية في ذلك الوقت ولم تكن له يد في هذه الجناية الفظيعة ولكنه لا يخلو من اللوم الذي تلطخ به سالفه كيرلس في حكاية هيباشا لان الاثنين كانا قادرين على معاقبة القاتلين والاقتصاص منهم ولكنهما لم يفعلا بل ان تيموثاوس صب غضبه على القسوس والاساقفة

الذين كانت لهم علاقة مع بروتوريوس ثم تبرأ من كل شركة او اتحاد بين كنيسته وكنائس رومية والقسطنطينية وانطاكية وسعي سعياً زاد الشقاق والخصام بدل ان يعمل جهده على ايقافهما واستئصالهما

فرفع الاربعة عشر اسقفاً الذين حكم عليهم بالعزل والحرمان العرائض الى الامبراطور والى بطريرك القسطنطينية وكذلك تيموثاوس ارسل كتاباً مع وفد من الاساقفة والقسوس الى الامبراطور ولا تزال بقايا هذا المكتوب باقية الى يومنا هذا ولكنها بالية ممزقة لا يؤخذ منها شيء. ولذلك فجميع ما وقع لتيموثاوس وما نسب اليه مأخوذ من اقوال الكتاب الذين لهم ضلع مع مجمع خلكيدونية وبروتوريوس وهي ليست ثقة كما هو معلوم ومفهوم (١)

فارتبك الامبراطور الجديد واسمه ليومن كثرة الدعاوي والمشاكل التي رفعها اليه بطاركة الاسكندرية ورومية والقسطنطينية واختبل باله من المسائل التي عرضتها عليه جماعة قوية الشوكة ظهرت في القسطنطينية لمقاومة اعمال المجمع الخلكيدوني ونسخ قراراته فلم يكن له مناص الا بطلب جميع أئمة الدين في المملكة باسرها لعقد مجمع عام والاقرار عما اذا كانت احكام مجمع خلكيدونية صحيحة يجب العمل بها ام لا فترفض وعما اذا كان انتخاب

---

(١) قال يوحنا النيقاوي الذي عاش في القرن السابع ان تيموثاوس عاش عيشة راهبية تقية بينما كان راهباً في دير القلمون بمديرية الفيوم الى ان تعين شيخاً في كنيسة الاسكندرية ثم خلف ديسقورس بعد وفاته وهو آية في التقوى والتدين . وقد قال يوحنا هذا ان تيموثاوس كان مثال المؤمن الحقيقي وانه سار ضد أنصار المجمع الخلكيدوني الذين أتعبوا العالم وأزعجوه (ولكن الرجل تغيرت مبادئه عند ماوضع قدمه على سلم الارتقاء اذ استعمل الحيل والخديعة ثم هو الآن يطلب تغيير معتقده لانهم عولوا على نفيه . وكأنه قدر للمصري ان لايثبت على مبدأ قط)

تيموثاوس قانونياً اصلاً . قال يوحنا النيقاوسي المؤرخ انه لم يقم لتعضيد تيموثاوس سوى اسقفين فقط وهما فقط اللذان اشارا برفض اعمال المجمع الخلكيدوني اما باقي الاساقفة فان بعضهم قالوا ان انتخاب تيموثاوس يعتبر لغواً اذا صح قول اعدائه فيه وبعضهم لفظ جميع انواع السباب والشتائم ضد هذا البطريرك الاسكندري

وقد رأى الامبراطور من حسن السياسة وسداد الرأي ان يترك المصريين وشأنهم ولا يتداخل في امرهم عسى بذلك يهدأون ويسكتون . وكاد يصدق ظنه وتكف المناقشات وتنقطع وسائل الخصام لولا ان بابا رومية تمادى في غيه وأخذ يدبر الدسائس والمكائد حتى اقنع الامبراطور في سنة ٤٦٠ بان يرسل الاوامر المشددة الى قائد الجنود في الاسكندرية بنفي تيموثاوس من الاسكندرية وتنصيب بطريرك مستقيم الرأي بدله

فلما علم تيموثاوس بذلك ونظر خطارة هذا الامر واهميته من الوجه السياسي وليس من الوجه الديني فقط اعلن انه يقبل تغيير آرائه ومعتقداته وينحاز الى مجمع خلكيدونية اذا عدل الامبراطور عن نفيه ولكن البابا ليو اغرى الامبراطور بدسائسه وخداعه على عدم قبول هذا الرأي من تيموثاوس وحينئذٍ نفي هذا البطريرك الى كنجرة

وبعد ان نفي تيموثاوس اختير تيموثاوس آخر بدلاً عنه وهو لم يكن مثل سميه وسلفه في الصفات والاخلاق بل كان يقدّم حب الديانة على حب الوطن حتى استمال جميع الاحزاب اليه بحسن آدابه وتقواه واستقامة

اطواره ووداعته · وقد جلس تيموثاوس هذا على الكرسي البطريركي ستة عشر عاماً قضاها في سلام وامان مظهراً الانعطاف والانصاف لجميع الناس على السواء غيوراً على كنيسته غيرة صادرة من قلب سليم وايمان قوي · ومع انه اغاظ البابا ليو والامبراطور ليو بذكر اسم ديسقورس في القداس الا ان هذين العنيدين لم يستطيعا معاندته ومقاومته لانه امتلك اعنة قلوب الشعب والاكليروس في قبضة يده وفض جميع الخلاف الواقع بين كل الطبقات حتى ان المتطرفين الذين رفضوا في بادئ الامر الاعتراف برئاسته كانوا اذا نظروه ماراً في الشوارع العمومية يحيونه بتهليل وتكبير قائلين «انا وان لم نقر على انتخابك ولكننا نحبك حباً مفرطاً» · وقد اظهر هذا البطريرك حكمة وتعقلاً في جميع اعماله وتصرفاته حتى انه كان يحتقر اوامر الامبراطور المشددة باضطهاد الهراطقة ويزدري بمثل هذا القول وبقائله ذاهباً في ذلك مذهب العقلاء الذين يقولون ان كل انسان حرٌ في اعتقاده وايمانه · ولو لم يقصف الله عمر ليو بابا رومية حالاً لكان صاحبنا تيموثاوس لاقى من دسائسه ومكائده كل انواع المتاعب والمصاعب · وجاء بعد ليو على كرسي رومية بطريرك اسمه هلاري لم يكن لديه من الوقت ما يسعه للتداخل في شؤون الكنائس الشرقية كما كان سلفه ليو يكثر من التداخل والتطفل بحجة الرئاسة المطلقة على جميع الكنائس المسيحية في العالم باسره وهي دعوى فارغة تركت لليو أثراً أسود

وفي سنة ٤٧١ توفي بطريرك القسطنطينية وخلفه اكاشيوس · وفي

سنة ٤٧٤ توفى الامبراطور وجلس مكانه زينو الذي لم يمض سنة في كرسي ملكه حتى فرّ هارباً من وجه جبار مغتصب اسمه باسيليكوس طرده وتربع على العرش بدله

وكان باسيليكوس هذا منحازاً الى مذهب يوطيخوس المار ذكره ولذلك انتهز رجال هذا الحزب تلك الفرصة وأرسلوا وفداً يطلب من الامبراطور المذكور إعادة تيموثاوس المنفي الى مسند البطريركية فأجاب هذا الامبراطور الغاشم الظالم طلبهم . أما تيموثاوس الحالي فآب الى ديره راضياً مسروراً دون أن يعترض أو يقاوم هذا الامر اعتقاداً منه ان هكذا شاءت مشيئة الله « وان كل ما يعمل انما يعمل معنا للخير لاجل البنيان » ثم عاد تيموثاوس الاول « وعادت ريمة الى عادتها القديمة » فانه عوضاً عن ان يقتدي بزميله تيموثاوس الثاني ويتخذ السلم والسكون دثاراً وشعاراً له سعى الى التحزبات والتعصبات الذميمة واوعز الى الامبراطور ان يصدر منشوراً يطعن في مجمع خلكيدونية ويطلب من البطاركة والاساقفة عدم تنفيذ قرارات هذا المجمع وعدم اعتبار احكامه . وكان في مقدمة الذين رفضوا هذا العمل اكاشيوس بطريرك القسطنطينية ولذلك عقد مجمع في افسس سنة ٤٧٧ لمحاكمته فحكم عليه بالعزل ولكن هذا الحكم كان اسمياً فقط بمعنى انه لم ينفذ .

اما فرح تيموثاوس وانتصاره فلم يدوما طويلاً لانه في سنة ٤٧٧ استرد زينو الملك انفسه وكاد يصدر امره بنفي تيموثاوس هذا لولا انه وجده طاعناً في السن لا يحتمل وعثاء السفر واتعابه كما ان تيموثاوس الثاني (ويعرف بصاحب

القلنسوة البيضاء) لم يتحفز للعودة الى كرسيه ولم تبدُ منه ادنى بادرة يشتم منها انه راغب في السلطة والرئاسة حتي انه لما مات تيموثاوس الاول وعلم صاحبنا الثاني انه توجد جماعة كبرى في الاسكندرية تعانده وتضادده فضل البقاء في ديره طلباً للسلام وحسماً للنزاع والخصام وعليه اختير بطرس صديق تيموثاس الاول الحميم بطريركا للاسكندرية . وقد تضاربت الاقوال واختلفت الاسانيد في امر انتخاب بطرس هذا وذهب اكثر الكتاب والمؤرخين الي ان معظم الاساقفة لم يصادقوا على تعيينه وهذا ربما كان صحيحاً ولكن القول الذي لا يقرب من العقل هو ماقاله الاستاذ نيل المؤرخ من ان اسقفاً واحداً فقط حضر رسامة هذا البطريرك (١) ولا يبعد ان اكثر الاساقفة لم يحضروا خوفاً من الامبراطور زينو الذي كان يبغي تعيين البطريرك بنفسه مخالفاً بذلك المنقول والمعقول . وكان خوف هؤلاء الاساقفة من سلطة الامبراطور وغضبه في محله فانه عند ما بلغه خبر رسامة بطرس للبطريركية أصدر الاوامر بنفيه واعادة تيموثاوس صاحب القلنسوة البيضاء . الا ان بطرس لم يبعد من الاسكندرية بل ظل مختبئاً فيها مدة

(١) عرفنا فيما مرَّ ان عدد الاساقفة المصريين الذين صادقوا على أعمال المجمع الخلكيدوني وقبلوا رئاسة كرسي القسطنطينية على الكرسي المصري كانوا اربعة عشر أسقفاً فقط . وليعلم القارئ ان جملة الاساقفة المصريين في ذلك العصر كانت مائة اسقف اوتزيد

الخمس سنوات التي حكم فيها تيموثاوس شعبه حكماً مملوءاً من الحنان والامان والسلم والاطمئنان

وقد خطر على بال تيموثاوس وشعبه فكر سديد هو وضع قاعدة تسير عليها الامة في انتخاب خليفة للبطريرك الحالي بعد موته منعاً للخصام العتيد وقوعه بين كثيرين يرشحون انفسهم لهذه الوظيفة ويتحفزون لاغتصابها عند فراغها . فاتفق رأي الشعب على ارسال وفد خصوصي الى الامبراطور يطلب منه تخويل المصريين حق انتخاب بطريرك لهم كما جرت به العادة من قديم الزمان وهم يشترطون مقابل ذلك ان الذي يتم تعيينه يتحتم عليه قبول الاوامر الصادرة من مجمع خلكيدونية . وكان زعيم هذا الوفد رجل اسمه يوحنا التلاوي (ربما نسبة الى تلا منوفية) وكان صديقاً متيناً للبطريرك تيموثاوس الحالي وللوالي الروماني المسمى ايلوس . ولكن صداقة يوحنا لهذا الوالي اضرّت به كثيراً مع ان المصريين استبشروا بها وذلك لان الوالي المذكور كان من المغضوب عليهم من البلاط الملوكي لاتهامه بالمروق والخيانة . وقد روى المؤرخون المتقدمون ان الامبراطور اعتقد في يوحنا السعي للحصول على رتبة البطريرك ولم يكن يرغب في تعيينه لها لانه ظنه رجلاً لا يليق لمثل هذه الوظيفة الخطيرة ولذلك فبعد ان اجاب الامبراطور سؤل المصريين ومنحهم ما طلبوه استدعى اليه يوحنا وحلفه يميناً مغلظة بعدم السعي خلف مسند البطريركية . على ان يوحنا حنث في يمينه ولذلك اضاع المصريون الرجاء الذي كان يملأ صدورهم باستتباب الامن في الكنيسة بناء على هذا

النظام الذي عملوه وصادق عليه الامبراطور . فانه عند ما تنيح تيموثاوس سنة ٤٨٢ اختير يوحنا التلاوي بطريركاً وقبل الوظيفة جذلاً مسروراً فهاج عمله هذا سخط الامبراطور وزاد الطين بلة او زاد البلة طيناً عند ما كتب منشوراً الى جميع الاساقفة المسيحيين في المسكونة يخطرهم بانتخابه وكان ضمن المنشورات التي ارسلها منشور بعث به رأساً الى سمبليشيوس بابا رومية ومنشوران احدهما للامبراطور والثاني لاكاشيوس بطريرك القسطنطينية ولكنه لم يرسلهما اليهما تواً بل وضعهما داخل الغلاف المرسل لصديقه ايلوس وقيل انه كان داخل هذا الغلاف الكبير رشوة بعثها يوحنا اصديقه ليرشي بها من يتوسم فيه التعضيد له لنوال غرضه . وحدث ان ايلوس الذي كان مغضوباً عليه كما قلنا كان غائباً في انطاكية ولذلك تأخر المنشوران عن الوصول للامبراطور وبطريرك القسطنطينية فوجد الوشاة فرصة بها يزيدون ما بقلب الامبراطور من الحقد والغل ضد البطريرك ذلك انهم قالوا له ان هذا البطريرك لم يكتف بحنثه واخلافه لوعده بل خرج عن حدود السلطة ووضع نفسه تحت كنف البابا الروماني لانه كتب له يخطره بانتخابه ولم يتنازل ويخطر امبراطور او بطريرك القسطنطينية بذلك وهذا يعد احتقاراً للامبراطور واستخفافاً بهيبته . فحقد زينو وحرد وسطر خطاباً الى بطريرك رومية ينبئه بعدم اعتماد يوحنا بطريركا للاسكندرية وانه عازم على تعيين بطرس لهذا المنصب لان تعيينه يوجد سلاماً في مصر مادام المصريون انفسهم يميلون اليه لاعتقادهم بصحة معتقده ورسوخ قدمه

في الايمان الصحيح . فرد هذا البطريرك على الامبراطور رداً يظهر من خلال سطوره الانتفاخ والافتخار وحب الرئاسة وطلب التداخل في امور الكنيسة المصرية كما فعل « المرحوم » ليوقيلاً . ذلك لانه قال للامبراطور انه وان لم يصادق على انتخاب يوحنا فهو لا يقبل تعيين بطرس بطريركاً لمصر (كأن بطريرك مصر لا يعين الا بتصديق بابا رومية المحترم !!!)

فلما قرأ زينو واكاشيوس اقوال بطريرك رومية ودعواه الفارغة ضربا بها عرض الحائط واغتاظا من هذا التطفل والتعلل وارسل الامبراطور امراً الى الاسكندريه بتنصيب بطرس على كرسي بطريركيتها بشرط ان يوقع على القرار المرسل له على يد برغامس والي مصر الجديد . اما هذا القرار الذي اشتهر امره فكان عبارة عن خطاب ارسله الامبراطور الى جميع الاساقفة والقسوس والرهبان والعلمانيين في الاسكندرية ومصر وليبيا والخمس مدن الغربية مصدَّق عليه من بطريرك القسطنطينية ويقول بعضهم ان البطريرك نفسه املاه للامبراطور . ومحوى هذا الجواب ازالة اسباب الشقاق الموجودة بين الطوائف المختلفة في مسألة الطبيعة والطبيعتين فهو يفسر على معان مختلفة يأخذ كل منها ما يوافق مذهبه واعتقاده حتى سمي « اساس الاتحاد » . وكاد نجاح هذا المشروع يتم لولا ان بطريرك روميه عارضه وقاومه مدعياً ان الجواب المذكور مستخرج من قرارات مجمع خلكيدونية التي لا يصادق عليها هو وكان مبدأ هذا البطريرك وسلفاه وخلفاه ان يزيدوا الشقاق استحكاماً في الكنيسة المصرية وان يوجدوا شقاقاً آخر بين كنائس

الشرق والغرب استمرت ناره مشتعلة مدة اربعين سنة او تزيد . اما البطريرك بطرس فمع قبوله هذا الجواب وقراءته له جهاراً على مسامع شعبه لم يسلك مسلك المسيحي الحقيقي الذي يسعى نحو السلام ويقطع اوصال النزاع والخصام بل الصق بأخصامه والمعارضين كل تهمة قبيحة وافتراء مذموم مما يدل على اقتداره في اقامة برهان على لا شيء . او على ايجاد دليل من الهواء وهو ما يسميه المنطقيون « السفسطة » او الحجة الواهية الفارغة وكان غرضه من ذلك حفظ مركزه والبقاء على سلطته وعدم التزعزع من كرسيه وهي خطة جرى عليها الكثيرون في اعلاء شأن انفسهم بالحط من كرامة الآخرين . صحيح ان هذا البطريرك بطرس لم يكن ميالاً وحده الى هذه المنازعات والمنافسات . وصحيح ايضاً انه قبل مبدأ الاتحاد وسعى الى ادخاله في عقول الآخرين ولكن هذا السعي كان ممقوتاً من بعض الوجوه لانه بلغ درجة التطرف لحداثه في كثيرين من الاساقفة والرهبان المصريين لان اذهانهم لم تقبل هذا المبدأ او لأنهم لم يألفوه لاول وهلة او لانهم كانوا يقولون بصحة مجمع خلكيدونية ويذهبون الى تصديق احكامه . اما يوحنا التلاوي فلم يرجع الى مصر بعد نفيه مع انه رفع دعواه الى اناستاسيوس خليفة الامبراطور زينو لوجود معرفة قديمة العهد بينهما ظناً تشفع في تحيز الامبراطور لجانبه او تستميله اليه ولكن هذا الامبراطور الجديد لم يلق بسمعه نحو دعوى يوحنا بل اكتفى بتعيينه اسقفاً في احدى الابروشيات

ولم يجلس البطريرك بطرس على كرسيه سوى ثمان سنوات فقط وتوفى

في اكتوبر سنة ٤٩٠ وتوفي اكاشيوس بطريرك القسطنطينية سنة ٤٨٩ والامبراطور زينومات في ابريل سنة ٤٩١ والبطريرك فيلكس الروماني الذي قطع كل صلة بينه وبين الكنائس الشرقية مات في فبراير سنة ٤٩٢ وكأن الله جلّ وعلا اراد ايجاد عصر جديد للراحة والسلام فأخمد انفاس هؤلاء الاشخاص الذين اشتركوا في جميع انواع الشقاق والخلاف والتخالف والتحالف والتباغض والتباعد والتنافر والتناقش والتنافس والتحاسد والتحاقد مما شتت شمل الكنيسة المسيحية في القرن الخامس وفض وحدتها فأصبحت الآن منقسمة الى كنائس متكاثرة متنافرة متزاحمة متألبة تطعن الواحدة في الاخرى لا لسبب سوى لحب الرئاسة والانتفاخ الممقوت

ويجدر بنا الآن ان نذكر ما كتبه احد المؤرخين في هذا الصدد حيث ذهب الى ان اصل هذا الشقاق غرسه الشيطان كما غرس الزوان في وسط الحقول · قال المؤرخ المذكور: ان هذا الاختلاف نشأ عن كلمة واحدة هي ان بعضهم ذهب الى ان المسيح «ذو» طبيعتين وبعضهم قال انه مكوّن «من» طبيعتين · فلو تدبر الفريقان لوجدوا انه لا يوجد اختلاف مطلقاً بين الرأيين · فان الذي يقول بان المسيح «ذو» طبيعتين يعتقد انه اله وانسان في آن واحد وهذا يثبت اللاهوت والناسوت في المخلص · والذي يذهب الى انه «من» طبيعتين يقصد ان له لاهوتاً وناسوتاً وهذا ولا ريب عين الاعتقاد الاول لا فرق بينهما الا في كلمتي «ذو» و «من» وهو فرق لا يدركه الاضعاف العقول - انتهى

ومن ذلك الحين لحد يومنا هذا ومركز كنيسة القسطنطينية في مصر — واسمها الآن كنيسة الاروام — لم يتغير ولم يتبدل ولم يدخل عليه عامل من عوامل التقدم أو التأخر مع وجود شبه قرابة بل صلة رحم قوية بينها وبين الكنيسة القبطية الوطنية خصوصاً في التعاليم والتقاليد ولكن الفرق كبير عظيم بينهما في العواطف والامال بالحياة الابدية · ولو لم يتداخل امبراطرة الرومان قديماً ويضغطون على الاقباط في تعيين بطاركة اروام لما قبل الاقباط بطريركاً منهم ولو كان من نسل الملائكة كما حدث من سنة ٤٨٢ لغاية ٥٨٩ وبعد الفتح الاسلامي بنحو سبعين سنة حيث لم يجلس على الكرسي القبطي بطريرك ضد رغبة الشعب

والنتيجة ان عدد التابعين الان للكنيسة الرومانية في مصر على اختلاف مذاهبهم وجنسياتهم لا يتجاوز ٦٠٠٠ نفس مع ان ابناء الكنيسة الوطنية او هم الاقباط قد بلغ تعدادهم الحديث نحو عشر سكان القطر عموماً

الفصل السابع والعشرون

زمن الراحة والسلام

سنة ٤٩١ للمسيح و ٢٠١ للشهداء

ان الامبراطور الجديد اناستاسيوس الذي ملك بعد زينو واقترن بأرملته اريادن كان عارفاً بأحوال مصر ملماً باخبارها وذلك لانه ظل

مدة منفياً فيها عندما ابعده سلفه حيث اقام في مركز منوف (بمديرية المنوفية) وكان له فيه اصدقاء كثيرون · وحدث ان واحداً من اعيان منوف اشار على اناستاسيوس وهو منفي بزيارة راهب مشهور اسمه ارميا كان يقطن احدى بلاد هذا المركز وله فيه سمعة طيبة التقواه وقداسته عساه يفرج كربته وينفث غمته · فسمع اناستاسيوس هذه النصيحة وسار مع نفر من اصدقائه حتى جاؤا الى ارميا وسألوه ان يمنح اناستاسيوس البركة ويطلب من الله في صلواته ان ينيله غرضه ويعيده الى عرشه · فقبل الاب ارميا طلبهم وباركهم اجمالاً ولم يخص اناستاسيوس بكلمة واحدة حتى بعد ان انصرفوا من امامه نظروا الى اناستاسيوس فوجدوه مغتماً مهموماً توهماً منه ان هذا الناسك المتعبد علم خفايا قلبه وظهر له انه انسان غير مستقيم النية فلم يمنحه البركة لانه لا يستحقها · فبذل اصحابه المصريون ما في وسعهم لكي يصرفوا عنه هذا الفكر الذي ازعج خاطره فلم يفلحوا ولذلك آب جماعة منهم الى منسك الاب ارميا واخبروه ان اناستاسيوس الذي وفدوا لاجله وانتقلوا معه طلباً لفائدته خرج من لدنه حزيناً كئيباً · وعليه امرهم ارميا ان يأتوا له باناستاسيوس ثانية فلما مثل بين يديه اختلى به هو وثلاثة من خلانه الذين يثق بصدقهم واخلاصهم وشرح لهم السبب الذي لاجله لم يمنح اناستاسيوس بركة خصوصية ذلك لانه رأى في حلم واذا بيد الله موضوعة على رأسه (اي اناستاسيوس) فلا حاجة له بطلب المزيد من البركة ما دامت قد صدرت من العلا · ثم طفق ارميا يوصي اناستاسيوس قائلاً « ان الله

تبارك اسمه قد اصطفاك من بين ملايين من الآدميين لترعى شعبه وتنوب عنه في الدفاع عن رعيته · فاذا تمت هذه النبوَّة التي أُنبئك بها اليوم فيتحتم عليك ان تتمم انت ايضاً ما اوصيك به وهو ان لا ترتكب الخطايا ولا تسير بقدمك نحو الشرور والآثام وان لا تعمل عملاً لمقاومة الديانة المسيحية وان لا تصادق على مجمع خلكيدونية لان المصادقة على احكامه تغيظ الله وتغضبه»

فلما صفى الزمان لاناستاسيوس وجلس على كرسي المملكة ارسل في طلب بعض الاقباط من تلامذة ارميا لكي يزوروه فيكرمهم · فسار اليه وفد من مريدي الاب ارميا ومعهم راهب اسمه وريدنوس من اقارب هذا الناسك المحترم الذي اوصاهم ان لا يقبلوا هدية او عطية من الامبراطور الا ان يكون بعض بخور أو أواني مقدسة يرسلها جلالته لخدمة الكنائس وليس للرهبان انفسهم · ولما كان هذا الامبراطور منفياً بنى كنيسة كبرى ارسل اليها مع هذا الوفد أواني من الذهب والفضة وبخوراً ونذوراً ثمينة القيمة كما انه بعث بهدايا فاخرة الى اصدقائه المصريين وعين بعضهم حكاماً ومديرين في الاقاليم · ومن ضمن احساناته الى مصر انه شاد لها قلعة على شاطئ البحر الاحمر ورمم منارة الاسكندرية المشهورة وكانت قد آلت للسقوط والدمار

والخلاصة انه لم يقم بين الاباطرة الرومانيين امبراطور كان محباً لمصر ومحبوباً من المصريين مثل اناستاسيوس · وقد ازداد المصريون غبطة وهناء عند ماقام بينهم بطريرك اسمه اثناسيوس انتخبه الشعب باجماع الآراء بعد وفاة بطرس ولذلك كان انتخابه قانونياً · وقد صرف الامبراطور وهذا

البطريرك همهما في اعداد معدات السلم والراحة في الشرق عموماً ومصر خصوصاً التي ذاقت من المخاصمات والمنافسات ما كاد يذهب برونقها الديني والسياسي معاً . وكانت رغبة اناستاسيوس ان لا تقوم للمناقشات الدينية والمجادلات المذهبية قائمة وان كل بلاد تتبع المذهب الذي يشير به رئيسها الديني وان يكف هؤلاء الرؤساء عن محاكمة ومطاردة كل من لا يتمذهب بمذهبهم او لا يوافقهم في معتقدهم . وقد قال احد المؤرخين ان الامبراطور لما رأى بعض الاساقفة لا يزالون يتخذون البحث والخصام دأباً لهم عوّل على ابدالهم أو نقلهم الى اماكن قاصية حتى لا يعودون يكبرون اوجه الشقاق لغاية في النفس فيحرمون من يصادق او لا يصادق على مجمع خلكيدونية حتى يتمكنوا بذلك من ايجاد وسائل الانقسامات والتحزبات . وبهذه الطريقة زالت اسباب العداء وظلت الاربعة كراسي الكبرى — وهي الاسكندرية وانطاكية والقسطنطينية واورشليم — على غاية ما يكون من الصداقة وحسن الوداد الا كرسي رومية فان حضرات باباواته المحترمين لم يكفوا عن تعصبهم الذميم وتحزبهم الممقوت وآلوا على انفسهم ان لا يؤاخوا الكنائس الشرقية ولا يصافوها اذا هي لم تصادق على اعمال مجمع خلكيدونية مصادقة عمياء بدون بحث او تنقيب وان تصدر ايضاً قرار الحرمان نسطور و يوطيخوس وديسقورس وبطرس واكاشيوس حرماناً باتاً « من فم الاباء والقديسين » (ولو انهم ماتوا وانتقلوا من دار يقول باباوات رومية انهم خلفاء الله والرسل فيها ويقول كل مسيحي حقيقي انه لا يحب البقاء في هذه الدار اذا صح ان

حضراتهم وكلاء بطرس ونوابه المفوضين)

ولم تكن فائدة هذه الراحة والسلام قاصرة على المسيحيين فقط فان جماعة الوثنيين في الاسكندرية ذاقوا طعمها اللذيذ واستمروه . فان هيروكليس احد مشاهير فلاسفة الاقباط الوثنيين الذي ذاق في اوائل القرن الخامس مرارة الاضطهاد والعذاب لاجل افكاره حتى جلدوه جهاراً في شوارع القسطنطينية — قد تمتع في ايام السلم هذه بالحرية التامة وآب الى وطنه شاكراً نعمة العدل والمساواة . وكان هيروكليس هذا من ضمن العلماء الذين بذلوا جهدهم ليوفقوا بين الديانة الوثنية والديانة المسيحية بان يطابق آداب وتعاليم تلك بهذه . ولا تزال بعض مؤلفاته في هذا المعنى باقية الى يومنا هذا ويجدر بكل من يعثر عليها ان يدرسها حق دراستها لما فيها من الفوائد الجمة والمعاني الفلسفية . اما باقي الكتاب والمؤلفين الذين نبغوا في مصر في ذلك العصر فليس فيهم من يستحق الذكر سوى اتيوس وهو طبيب قبطي بارع ولد في انطاكية وتربى في الاسكندرية واعتنق مذهب اريوس وتطرف في التحيز اليه . والذي يراجع تاريخ هذا النطاسي المشهور وهو بعد وثني او عند ما اعتنق الديانة المسيحية وهرطق فيها يجد فيه اموراً لا يمكن العقل قبولها لغرابتها وبعدها عن الحقيقة . وقد وضع هذا الطبيب مؤلفاً مسهب العبارة يرى فيه القاريء مقدار اهمية الطبيب وارتفاع شأنه وغزارة مادة رجاله في مصر في هاتيك الايام الاولى . وكان اتيوس هذا يعتقد بوجود منافع عديدة في ماء النيل وانها مفيدة للصحة وفيها شفاء للناس ويزعم ايضاً

بمنفعة حجر اليشب اذا وضعه الانسان في خاتم ولبسه في اصبعه اثر على مزاجه تأثيراً حسناً

وجلس اثناسيوس على كرسي البطريركية سبع سنوات فقط وبعد نياحته اخلفه رجل اسمه يوحنا عرف بالحكمة والتعقل اللذين عرف بهما سلفه ولذلك ظلت مصر تمرح في ميدان الراحة والسكينة بينما كانت اكثر انحاء المملكة الرومانية في قلاقل مستمرة وخصومات دائمة حتى في القسطنطينية نفسها حيث تعدى جمهور من الرعاع على الامبراطور واهانوه فتهددهم بالنزول عن الملك والقاء حبل السلطنة على غاربها اذا هم لم يرجعوا عن معاكسته ومقاومته · اما مصر فكانت في مدة حكم الامبراطور اناستاسيوس بعيدة عن كل نزاع وثورة الا انه شاب صفوها شائبة مرض مخيف تفشى في انحائها قيل انه نوع من الجنون تسلط على السكان على اختلاف اعمارهم واجناسهم فكان الذي يصاب به يبيت يطوف في الشوارع وهو ينبح ويهر كالكلب الى ان يفقد النطق ويعتريه الصمم · وقد شخص بعضهم هذا الداء بانه داء الكلب وذهب آخرون الى ان داء الكلب لم يكن موجوداً في مصر في تلك الايام وانه نوع من الصرع المعدي (هستيريا) انتقل من شخص الى آخر بطريق العدوى

ثم تنيح البطريرك يوحنا وخلفه يوحنا آخر يعرف بيوحنا النيقاوي (وهو غير يوحنا النيقاوي المؤرخ) · وقد صرف هذا البطريرك بضع سنين قبل رسامته في دير القفار الذي كان على مقربة من بلبيس «بمديرية الشرقية»

حيث كان راهباً فيه · ولما جلس على السدة البطريركية تبادل الرسائل الدينية بينه وبين انطاكية وظلت هذه الرسائل سائرة على محور الوداد الى ما قبل ايامنا بقليل · وكان بطريرك انطاكية في ذلك الوقت اسمه ساويرس قد اشتهر بين الحزب القائل بان للمسيح طبيعة واحدة لتحزبه ضد مجمع خلكيدونية · وكان قبل رسامته مقيماً في الاسكندرية فاختاره الامبراطور بطريركاً لانطاكية وقد أسف الامبراطور فيما بعد لتعيين ساويرس في هذا المنصب لانه كان لا يعرف للتساهل والتسامح معنى بل كان يضطهد كل من لا يقول بقوله او يقبل المبداء الذي قرره المجمع الخلكيدوني بشأن الطبيعة والطبيعتين

ومافتئت الكنيسة الحبشية تحافظ على شروط الطاعة والخضوع لامها الكنيسة المصرية فرفضت قرارات مجمع خلكيدونية وأبت الاعتراف بسلطة البطاركة الاروام الذين كان الامبراطور يعينهم على الكرسي المصري ويرغم المصريين بقبولهم كما سيجيء · وكانت رسامة مطران الحبشة تتم على يد بطريرك الاقباط في مصر ويستحيل على الاحباش قبول اي مطران آخر لا يعينه بطريرك مصر وهم ظلوا محافظين على هذا المبداء الى وقتنا الحاضر

وفي سنة ٥٠١ غزا مصر جيش من الفرس واستباح باحة الوجه البحري حتى وصل الى اسوار الاسكندرية ولكن الجيوش الرومانية صدتهم وهزمتهم في مواقع عديدة واجلتهم عن البلاد بالمرة بعدان اخرب الفرس الزرع والضرع فوقع الشعب المصري بين مخالب الشغب واشتدت المجاعة في مصر · وحدث

ان احد اليهود المتنصرين في الاسكندرية تبرّع بتوزيع مقدار عظيم من الحنطة على جماعة الفقراء الجياع وكان ذلك في يوم عيد القيامة اذ ازدحم جمع غفير من الناس حول الكنيسة لاختطاف هذه الصدقات فتألب القوم وتكأكأوا وتجمعوا حتى سقط نحو ثلثمائة منهم تحت الاقدام المزدحمة وماتوا دوساً بالارجل

وقد نبغ بمصر في هذا الزمن شاعر قبطي مفلق لا تزال قصائده الرنانة واراجيزه الرقيقة مسطورة في الكتاب الخامس من منتخبات الاشعار عند اليونان وكانت قد نشرت بعد وفاته بمدة قصيرة في القسطنطينية واسم هذا الشاعر كريستودورس من طيبة (الاقصر) كان قد عانى صعوبات قاسية في نسخ اشعاره وترتيبها لان الكتاب والمؤلفين في ذلك الحين كانوا يتعبون كثيراً في كتابة ما تجود به قرائحهم الا في ارض مصر مصدر الكتابة والتصوير فانها اقل صعوبة من غيرها في هذا الفن والدليل على ذلك كثرة النسخ التي لا تزال تصدر من هذه البلاد الى انحاء العالم كله بعد ان تكتشفها الايدي الاجنبية في القبور القديمة او الابنية المهجورة وفي الاديرة والمناسك ايضاً . ومن اشهر مؤلفات ذلك العصر كتاب وضعه عالم قبطي ايضاً اسمه ديسكوريدس عن النبات بناء على طلب احدى الاميرات الروميات مزين بالرسوم الجميلة محلى بالصور والنقوش الباهرة وهو موجود في مكتبة فينا ببلاد النمسا الى يومنا هذا . وفي المكتبة المذكورة نسخة من سفر التكوين كتبت في مصر نحو هذا الزمن وهي تحتوي على اكثر من ٨٨ صورة تختص بمواضيع تاريخية

حسنة الوضع جميلة الصنع

ولما توفى البطريرك يوحنا النيقاوي رغب الامبراطور في تنصيب ديسقورس ابن عم تيموثاوس الاول وكان محبوباً من الشعب ولكن الامة رفضت قبوله مع حبها له لانها لم تكن ترضى بتداخل الامبراطور في امر تعيين بطاركتهم وزاد حنق الاقباط كثيراً حتى كاد هذا الحنق يفضي الى ثورة ولكن ديسقورس هدأ خاطرهم وسكن جاشهم اذ وعدهم برفض تعيين الامبراطور له وان يسلم نفسه لارادة الشعب فينتخبوه او لا ينتخبوه حسب مايطابق رغبتهم ويوافق القواعد المرعية في الكنيسة · وقد سلك المصريون في ذلك مسلك الحكمة والسداد فانهم لم يشرعوا في انتخاب ديسقورس الا بعد مضي زمن طويل اذ اجروا الرسوم المعتادة في كنيسة مارمرقس ثم طافوا ببطريكهم الشوارع في احتفال حافل حتى وصلوا الى كنيسة ماريوحنا حيث قام البطريرك بالخدمة الكنائسية وتناول الاسرار المقدسة · ولكن حرافيش الاسكندرية والزعانف لم يكفوا عن الهياج لا لسبب سوى لتطبعهم به (كما هو حالهم الان) فجالوا في المدينة طول يوم الاحتفال يهيجون ويرغون ويعربدون ويزأرون حتى عثروا في طريقهم بثيودوسيوس ابن الوالي الروماني فأوردوه حتفه ومزقوه تمزيقاً · وقد لاقى القاتلون جزاء اثمهم وشرهم الا ان الامبراطور غضب وحنق عند ما بلغه خبر هذا الهياج والقتل فخاف الاسكندريون شر غضب الامبراطور وتوسلوا الى بطريكهم ان يذهب اليه ويستعطفه ويطيب خاطره · فذهب البطريرك الى القسطنطينية وتحصل

على عفو عام لمدينة الاسكندرية . ومما يسطر لهذا البطريرك بمداد الثناء والاعجاب في رحاته هذه انه احتمل بكل صبر وسكون تلك الاهانات المرّة التي اهانه بها انصار مجمع خلكيدونيه في القسطنطينية وسلك بغاية الحكمة والرصانة ولم يرد بكلمة واحدة على هؤلاء السفلة الذين كانوا يشتمونه ويحقرونه اثناء مروره في الشوارع العمومية

وكان من سوء حظ مصر انه مات الامبراطور اناستاسيوس ولحق به البطريرك ديسقورس ففقدت مصر بموتهما رجلين عملا على تقدمها وبذلا جهدهما في راحتها ورفاهيتها . فجلس على الكرسي الامبراطوري يوستينوس وكان عسكرياً بسيطاً امياً من الجنس السلافي المغولي فقاده طبعه وجهله الى السير ضد الخطة الحميدة التي سار فيها سلفه اناستاسيوس فضلاً عن انه كان معضداً لمبادىء المجمع الخلكيدوني ولذلك كان مع ساويرس بطريرك انطاكية وعدوّ خلكيدونية ومجمعها على طرفي نقيض . قيل ان هذا الامبراطور اصدر امره بالقبض على ساويرس وقطع لسانه ولكن هذا فرّ هارباً الى الاسكندرية حيث اضرب اهليها لانه اوجد فيهم ميلاً الى تجديد المنازعات الدينية والمجادلات المذهبية وكان يزيد الخطب تفاقماً لولا ان العزة الالهية رزقت مصر بطريركاً عاقلاً حكيماً هو تيموثاوس الثالث الذي اعقب ديسقورس الثاني . وقد ابى هذا البطريرك الانحياز الى حزب من احزاب الكنيسة مع انه كان شبيهاً بساويرس في كراهته لمجمع خلكيدونية ولكنه لم يظهر هذا الكره مطلقاً

والنتيجة ان مصر تمتعت بالسكينة في مدة حكم يوستينوس الاول القصيرة المدى وظلت في هذه الحالة خمس سنوات في اوائل حكم يوستينايوس لانه كان مشغولاً عنها بتوطيد دعائم ملكه في المشرق والمغرب وعمل صلح بين الكنيستين اليونانية والرومانية . وبعد ان انتهى يوستينانوس من هذا وذاك حوّل انظاره نحو مصر قاصداً اضطهاد المسيحيين فيها لانه كان من انصار مجمع خلكيدونية ومعضديه . واول عمل شرع فيه انه ارسل خطاباً يحتم على تيموثاوس بطريرك مصر بالحضور الى الاسكندرية . فانصاع هذا ورضخ للامر واخذ يستعد للسفر ولكنه اصيب بمرض عضال كان السبب في انتقاله ليس من الاسكندرية الى القسطنطينية ولكن من هذه الدار الفانية الى الدار الاخرى الباقية

الفصل الثامن والعشرون

كل اول وله آخر

سنة ٥٢٧ للمسيح و٢٣٧ للشهداء

عرفنا ان يوستنيانوس جلس على العرش الامبراطوري سنة ٥٢٧ وقلنا انه لم يهتم بامر مصر وشؤنها الا بعد مضي سنوات خمس على ملكه . ومع ان هذا الامبراطور كان منحازاً الى مجمع خلكيدونية الى ان زوجته تاودورا كانت تذهب مذهب المصريين وتعتقد كما يعتقدون وهذا ما دعاه الى

الاعتدال في تحيزه وعدم التهور نحو امياله او الاندفاع وراء تيار اغراضه · وكان في مدة رئاسة تيموثاوس الثالث ان السلام تخلخل بنيانه في ارض مصر وكادت اركانه تنهار لاسباب اختلف المؤرخون في شرحها وتأويلها · فمن قائل ان يوستينيانوس انفذ قائداً اسمه ابو ليناريس في جيش عرمرم لكي يجبر المصريين على قبول مذهب مجمع خلكيدونية — وكانت النتيجة ان الدماء سالت انهاراً في هذا السبيل ولم تؤثر في اعتقاد المصريين ولا استمالتهم لجهة الامبراطور · ومن زاعم ان هذا الامبراطور عين بطريركاً للاسكندرية سنة ٥٥٠ اسمهُ ابو ليناريس من تلقاء نفسه دون اخذ رأي الشعب المصري · فاذا صح هذان السببان او اذا كان منشأ هذه القلاقل نزوع أهالي الاسكندرية الى العصيان والخصام عند دخول القائد أبوليناريس الى مدينتهم — سواء صدق هذا او ذاك فان الاضطرابات والمنازعات وقعت في مصر وزعزعت قوائم السلام الذي تمتع به اهلوها مدة غير قصيرة · وقد ورد في كلام يوحنا النيقاوي في هذا المعنى ان الامبراطور شرع في اجراء القوة القاهرة على المصريين حتى يقبلوا مذهبه ويدينوا بدينه وعين لذلك قوة عسكرية وفدت على الاسكندرية لكي ترغم اهلها على قبول قرارات المجمع الخلكيدوني · فاوفد البطريرك تيموثاوس وفداً مؤلفاً من الرهبان والنساك الى القسطنطينية ليطلبوا من الامبراطور استرجاع اوامره والغاء اجراآته خوفاً من حدوث معركة عظيمة تصطك من هولها الركب وتشيب منها نواصي الولدان وان يترك رعيته في أمن وسلام تعتقد ما كان

يعتقده الآباء والاجداد . قيل ان هذا الوفد لاقى نجاحاً في مأموريته بواسطة تداخل الامبراطورة تاودورا التي اوعزت الى قرينها ان يتنازل عن رأيه فقبل وارسل الاوامر الى جيشه بمبارحة الاسكندرية والذهاب الى أقاليم شمالي افريقيا الغربية . وقد قال يوحنا النيقاوي ان البطريرك ابوليناريس الذي عينه الامبراطور كان على جانب عظيم من رقة الجانب والتقوى عاش بسلام مع جميع الاحزاب ولو انه كان خلكيدونياً وامبراطورياً — اي صنيعة الامبراطور — وكان قبل تعيينه في هذا المنصب شماساً في دير انبا سلامه بالاسكندرية

ويغلب على الظن ان الامبراطور يوستنيانوس لم يسعَ الى تعيين بطريرك روماني في مصر الا بعد وفاة تيموثاوس . وقد كان في نية هذا الامبراطور ان لا يتداخل في هذا الامر بتاتاً لو اتفق المصريون فيما بينهم على تعيين بطريرك لهم . ولكنهم للاسف « اتفقوا ان لا يتفقوا » فانه بعد موت تيموثاوس نشأ في الكنيسة شقاق جديد بين حزبين قويين يقول احدهما ان جسد المسيح كان شبيهاً بجسدنا في جوهره ومادته فهو نظيرنا قابل للفناء والفساد . ويذهب الحزب الثاني الى ان جسد المخلص لم يرَ فساداً بل كان يشبه جسدنا شبهاً ظاهرياً وليس حقيقياً . وكانت النتيجة ان اكثرية الشعب مالت الى انتخاب ثيودوسيوس احد رجال الحزب الاول وكان كاتب سر تيموثاوس الاول واختار الحزب الثاني رجلاً اسمه غيناس لمركز البطريركية

وكانت العادة الجارية في الكنيسة القبطية في ذلك الحين ان الذي

يرشح للانتخاب ينبغي ان يصرف ليلة ساهرة وهو جالس بجانب جثة البطريرك المتوفي . وحدث انه بينما كان ثيودوسيوس ساهراً كالمتبع اذ سمع ضجة لفيف من الاوباش داخلين بعنف في الكنيسة وفي مقدمتهم غيناس . فخاف ثيودوسيوس على حياته وهرب من المدينة ولم يمض سوى يومين او ثلاثة حتى اختير غيناس بطريركاً . فهذه هي الفرصة التي سنحت ليوستنيانوس بالتداخل في شؤون البطريركية المصرية اذ ارسل نواباً من قبله الى الاسكندرية اعادوا ثيودوسيوس الى كرسي البطريركية . ولكن عودة ثيودوسيوس الى مركز وظيفته بواسطة الامبراطور لم ترق في عيني المصريين فزادت امامه الصعوبات والمتاعب في حفظ نظام كنيسته بل بلاده بأسرها وسلك كل طريق في اقناع شعبه بأن تداخل الامبراطور في امر ارجاعه لا يلجئه الى الخضوع لارادة الامبراطور ولا قبول مذهبه ومعتقده . ولما رأى الامبراطور حرج مركز ثيودوسيوس قصد ان يزيد في طريقه عثرة ووعورة فاستدعاه اليه وطلب منه المصادقة على المبداء الخلكيدوني وان يمنحه في مقابل ذلك امتيازات وقوة كبرى يخضع لها شعبه رغم انوفهم ولكن هذا البطريرك رفض كل هاته المواعيد مستخفاً بها هازئاً بقائلها .

فلما رأى يوستنيانوس عناد البطريرك وصلابة رأيه وان الوعد والوعيد لا ينفعان معه دبر امراً جديداً لاخضاعه وكان هذا التدبير مكيدة ابتكرها والي مصر الروماني هي تعيين رجل اسمه بولس لمسند البطريركية وكان هذا

الرجل اجنبياً عن مصر شب ودب في طرسوس – وليس في تونس كما يزعم المقريزي · ومن الغريب ان يوستنيانوس لم يخطر الاقباط باختيار هذا البطريرك لهم بل رسمه في القسطنطينية وأرسله الى مصر تحت حراسة قوة عسكرية هائلة · وقد تم هذا كله سنة ٥٤١ اي بعد نفي البطريرك يوحنا النيقاوي بنحو ستين عاماً · اما المصريون فلم يعبأوا برئاسة بولس هذا ولم يحسبوا لوجوده بطريركاً عليهم ادنى حساب وما تجرأ احد منهم على التكلم معه أو مخاطبته في أمر من الامور بل كانوا يلقبونه بيهوذا الثاني (ويهوذا الاول هو يهوذا الاسخريوطي الذي خان سيده المسيح وسلمه للصلب) ولم يكونوا يعرفون بطريركاً لهم غير ثيودوسيوس المنفي الذي كانوا يطيعونه ويخضعون لاوامره كما لو كان جالساً على كرسي البطريركية · وقد قنع بولس من الرئاسة بوضع يده على الكنيسة الكبرى المسماة بالكنيسة القيصرية ثم استحوذ بمساعدة الجيش على عدة كنائس مهمة غيرها فاضطر المصريون الى تشييد معابد جديدة سموا احدها الكنيسة الملائكية نكاية في الكنيسة القيصرية

ولم يكن المصريون فقط يبغضون بولس وينفرون منه بل شاركهم في هذا النفور كثيرون من الموظفين الرومانيين في مصر الذين رفضوا الاعتراف بسلطانه عليهم ولذلك شرع هذا البطريرك في اتخاذ طرق بها ينتقم من الجميع ويمد ظل نفوذه في مصر · وكان الامبراطور قد امده بقوة عظمى وأطلق يده للتصرف كما يريد ويشتهي وعليه قصد بولس نقل ايلياس قائد الجنود في الوجه القبلي من مركزه الى مركز آخر حتى يضعف بذلك قوة

الاقباط في الصعيد · وكان ايلياس غائباً في الاسكندرية حينذاك فأحس احد اصدقائه واسمه يبوس بهذا المشروع فكتب الى صديقه ايلياس يعلمه بأمر هذه الدسيسة التي نسج بردها بولس ضده · وكان يبوس هذا شماساً في الكنيسة القيصرية التي كانت تحت سلطة بولس فوقع كتابه الى ايلياس في يد احد اتباع هذا البطريرك الذي امر للحال بالقاء القبض على يبوس متهماً اياه باهمال مصلحة الكنيسة وتبديد ايرادها فسلمه الى عهدة رودون والي مصر الذي عذب هذا الشماس المسكين عذاباً مريعاً ثم اخمد انفاسه · فرفع اقارب يبوس دعواهم الى الامبراطور الذي امر بعزل رودون وتعيين ليبر يوس والياً لمصر واعطاه تعليمات باجراء تحقيق دقيق في هذه المسألة واظهار الفاعل الحقيقي لها · فدافع رودون عن نفسه بقوله ان الاوامر الصادرة له من الامبراطور تقضي عليه باطاعة بولس طاعة عمياء وتنفيذ اغراضه · اما بولس فقال انه لم يأمر رودون بقتل يبوس وانكر انكاراً باتاً ما عزاه اليه رودون من انه ارسل له الاوامر باعدام يبوس على يد وطني اسمه ارسينوس وكانت نتيجة هذا التحقيق ان صدر الحكم بالاعدام على رودون وارسينوس ونفي بولس الى غزة حيث اجتمع مجمع مؤلف من والي مصر وبطريركي انطاكية واورشليم وحكم عليه بالعزل والحرمان · ومن ثم عين الامبراطور بدله رجلاً اسمه زويلوس ليجلس على كرسي مار مرقس الذي اصبحت تتلاعب به الايدي تلاعب الصبيان بالأكر

ولم يكن حظ هذا البطريرك الجديد عند الاقباط احسن من حظ

سالفه فانهم قابلوا تعيينه بمزيد الاحتقار والهزء ولم يغيروا رأيهم في رئاسة تيودوسيوس عليهم ولو انه كان لا يزال بعيداً عنهم في منفاه بعد ان جيء به من القسطنطينية حيث صرف مدة سجيناً في سجونها · ومن ذلك العصر الى زمن الفتح الاسلامي ومصر يحكمها بطريركان في آن واحد — البطريرك الاسمي الذي يعينه الامبراطور ويقيم في السراي البطريركية ويضع يده على اغنى الكنائس في الاسكندرية ويبتلع ايرادها ولكن الامة القبطية عن بكرة ابيها كانت تحتقره وتزدري بسلطته · والبطريرك الثاني هو البطريرك الحقيقي الذي كان يقطن دير وادي النطرون ويسوس رعيته باوامره ونواهيه التي يصدرها من هذا الدير

وما كان الضرر الذي لحق بالكنيسة المصرية قاصراً على الامور الدينية والسياسية فقط بل مسها شرّ العوز المالي ايضاً · فانه من ذلك الحين لحد دخول العرب مصر وولاة مصر الرومانيين ينهبون المرتبات والصدقات المخصصة للكنائس ويعطونها الى البطريرك الذي يعينه الامبراطور أو هو البطريرك الاسمي وكانت تبلغ هذه المرتبات نحو ثمانين الف جنيه ايراداً سنوياً · ومن ذلك اليوم بطل استعمال اللغة اليونانية في الكنائس والمجتمعات المصرية فلم يبقَ لها اثر سوى في كنيسة الحكومة التي شادها الامبراطور للموظفين · ومن ثم صار الاقباط يصلون في كنائسهم بلغتهم الاصلية المعروفة باللغة القبطية وترجموا جميع كتب الطقوس والخدمة اليها

وقد ترك جهل اليونان في مصر اثراً سيئاً من الخرافات والاوهام

التي ملأت العقول وغشت الافهام من ذلك العصر الى هذه الايام ولا يزال المصريون يعتقدون بها ويصعب نزعها من اذهانهم. مثال ذلك ان سائحاً جال مصر في ذلك القرن وقال انه وجد احد ابواب هيكل افتاح (وكان هذا الهيكل كنيسة للمسيحيين في القرون الاولى) موصداً لا يمكن فتحه. فسأل احد المصريين عن سبب اغلاق هذا الباب على الدوام فأجابه المصري ان الباب المذكور كان قد اغلق في وجه المسيح بعنف عندما وفد على مصر مع والديه منذ خمسمائة سنة مضت فدعى عليه المسيح ببقائه مغلقاً دائماً ولذلك لا توجد قوة في الكون تستطيع فتحه !!!

ومن اعمال يوستنيانوس في مصر انه امر ببناء ثلاثة حصون قوية في الاديرة من الدراهم المخصصة للاكليروس والكنائس فبنيت هذه الحصون ووضع فيها رهبان يقومون بالدفاع ورد غارات المهاجمين وقت الحاجة. وكان احد الحصون المذكورة قائماً في دير جبل سينا والاخران في ديري مار انطونيوس ومار بولس على شاطئ البحر الاحمر من جهة مصر. ومعلوم ان الديرين الاخيرين كانا موجودين قبل زمن يوستنيانوس بكثير فلم يزد عليهما الا ترميم وتحصين. وقد بقي هذان الديران محافظين على عهود الاخاء والاخلاص للكنيسة المصرية فلم يحولا عن اقتفاء اثرها لحد يومنا هذا

مرّت السنون على الحالة التي وصفناها لك والشقاق يزداد تفاقماً والغل يغلي ويجيش كالقدر في صدور زمرة الرومانيين المستوطنين مصر من الجهة الواحدة وجمهور المصريين المسيحيين من الجهة الاخرى حتى انه لم يمر على

هذا الخلاف الا قرن واحد اذ قام الاقباط يرحبون بالمسلمين ويمدون لهم ايديهم لينقذوهم من ظلم ظالميهم الرومانيين المسيحيين

صحيح ان الذنب كبير لا يغتفر لفئة قليلة من الاقباط غررت ببلادها وسلمتها الى اعداء دينها . وصحيح ايضاً ان هـذه الفئة حصدت نتيجة مازرعت وذاقت من القصاص المريع من ايدي الذين ادخلوهم ما يذيب من هوله الحجر الصلد وتخر من فظاعته الجبال الشم . كل هذا صحيح حق ولكن « امل لهم عذراً وانت تلوم » فان الرومانيين اغاظوا الاقباط واغضبوهم ووضعوا يدهم على كنائسهم الكبرى واختلسوا ايراد هذه الكنائس عنوة وأعطوه لمختلس كرسي بطريركتهم الذي حل محل رئيسهم الوطني وحجر عليه في ديره فلم يكن يغادره الاخلسة . وقد اتخذ حزب الرومانيين وحزب المصريين لونين اختص كل جماعة منهم بلون (كما عملت في اتخاذ الانكليز لونين من الوان الورد لحزبين كبيرين نشأا بينهم وكانت النتيجة شبوب نار الحرب بين الحزبين لا زالت تعرف بحرب الوردتين) فاختار الرومانيون اللون الازرق والمصريون الاخضر . والذي يتصفح التواريخ المصرية القديمة يجد فيها بياناً وافياً عن فساد الحكومة وانحطاط قوانينها في ذلك الوقت مما نتج عنه نزاع وخصام بين الحزبين الازرق والاخضر ولها حكايات محزنة يطول شرحها ويتعذر سردها وتعدادها

وقد زاد الامبراطور يوستنيانوس نار الشقاق ضراماً وابعد عنه قلوب الكثيرين في مصر وفلسطين لما اصدر امراً يقضي بحرم اوريجانوس عميد

الاكليروس المصري وشجب افكاره وتكفيره . ثم في سنة ٥٤٤ وزع هذا الامبراطور منشوراً فيه حرم ثلاثة من مشاهير المؤلفين في فلسطين متهماً اياهم بالهرطقة وطلب من جميع البطاركة والاساقفة في انحاء المملكة الرومانية المصادقة على هذا الحرمان والتوقيع على المنشور الخاص به وكان عبارة عن تفنيد اعمال المجمع الخلكيدوني وتسفيه آراء القائلين بصحة قراراته لان اولئك الكتاب الثلاثة كانوا من معضديه . ولم يكن لدى الكنيسة المصرية مانع لقبول هذا المنشور لانه وافق مشربها سوى انها رفضته قطعياً لانها قد اتبعت المبداء الذي اختطه الاساقفة في شمالي افريقيا وهو عدم جواز حرمان الاشخاص الذين انتقلوا من هذا العالم الى العالم الآخر بل يكتفي بتشهير اغلاطهم والابتعاد عن افكارهم . كذلك الامبراطور لم يطلب من البطريرك المصري التداخل في هذا الموضوع بل انه سأل زويلوس بطريرك الامبراطور في مصر ان يضع امضاءه عليه ففعل ولكنه عاد فندم ولذلك نفاه الامبراطور وعين غيره اسمه ابوليناريس مكانه . ومعلوم ان يوستنيانوس كان امبراطوراً في الشرق والغرب معاً وكانت له السلطة على رومية كما على القسطنطينية ولذلك ارسل منشوره الى فيجيليوس بابا رومية وطلب منه ان يمهره بامضائه فراوغ هذا البابا كثيراً وماطل وتعلل وتمهل ولكنه رضخ اخيراً ووقع على المنشور في سنة ٥٤٨ . ولم يكتف يوستنيانوس بهذا بل ارسل الى فيجيليوس منشوراً آخر اصدره سنة ٥٥١ اشد لهجة واكثر ضغطاً من الاول ولكن هذا البطريرك الروماني أنف من التصديق عليه وتمنع من ختمه ثم علم بنتيجة هذا

التمنع ففرّ هارباً من وجهِ الامبراطور ولجأ الى كنيسة مار بطرس في القسطنطينية فطارده يوستنيانوس وارسل خلفه جماعة من الموظفين ليحضروه بالقوة والعنف حتى انهم هدموا اعمدة المذبح وقوضوا اركان الهيكل ليخرجوا البابا من الكنيسة ولكنه تمكن من الفرار وسار الى خالكيدونية حيث مكث فيها الى ان عفى عنه الامبراطور وأمنه على حياته حتى يعود الى القسطنطينيه ويحضر مجمعاً عاماً عقد سنة ٥٥٣ . وقد حضره هذا المجمع ابوليناريس البطريرك الامبراطوري في الاسكندرية اما الكنيسة المصرية فلم ترسل من ينوب عنها في هذا المجمع ولا هي اهتمت بقراراته واعماله

وكأن المصائب أبت الا تنصب بأجمعها على رأس مصر الاسيفة وتكون البلايا فيها سلسلة ذات حلقات متتابعة متلاصقة . فانها فضلاً عما لحقها من جراء المنازعات المدنية والدينية انتابتها زلزلة عنيفة اصابت الشرق باكمله ومصر أيضاً . قال يوحنا النيقاوي ان هذا الزلزال استمر فعله في مصر مدة سنة كاملة ثم اعقبه طاعون وجوع اضر بالوجه البحري ضرراً عظيماً وكادا يتركانه قاعاً صفصفاً . اما الصعيد فكان انعم بالاً واهنأ عيشاً من البحيرة ذلك لان سكانه لم يكونوا يهتمون بسطوة الامبراطور وما كانوا يعرفون شيئاً عن سلطته فزهى فيه زرع الديانة المسيحية وترعرع وازهرت اغصانها حتى ظللت تحت كنفها جميع بلاد الحبشة ونمت فيها نمواً عجيباً . ولم يكد المصريون يودعون القرن الخامس ويستقبلون السادس حتى صارت الديانة المسيحية عامة شائعة من الاسكندرية شمالاً الى اقصى بلاد الحبشة

وما جاورها جنوباً ولم يبق للوثنية أثر حتى في جزيرة فيلا (اصوان) حيث كانت هذه الديانة تحتضر الى ان ملك يوستنيانوس فاجهز عليها · وكان البطريرك المصري ثيودوسيوس لا يفتأ يبعث الارساليات الدينية للتبشير في اكناف البلاد القبلية · وكما ان الوجه البحري اختص بالنزاع والشقاق الديني فان الوجه القبلي عُرف بالغيرة الدينية والعمل على تقدُّم المسيحية وارتقائها · وما سبب ذلك الا لان اهالي الصعيد كانوا يتجنبون السياسة ويبتعدون عن التعصب المذهبي والتحيز لهذا المبتدع او لذاك الهرطوقي

وقد مات الامبراطور يوستنيانوس سنة ٥٦٦ وتنيح البطريرك ثيودوسيوس سنة ٥٦٧ وعند وفاته ظنّ ابوليناريس ان الجو قد خلا لهُ وانه يسهل عليه اعلان أمر رئاسته على الكرسي الاسكندري فاعدّ مأدبة فاخرة لهذا الغرض في الاسكندرية واحتفل احتفالاً باهراً لم ينته منه حتى ظهر له خطأه ظهوراً مجسماً فان الاقباط انتخبوا لهم بطريركاً اسمهُ بطرس من اطيب الاكليروس سمعة واكثرهم علماً واوسعهم عقلاً ومعرفة

وفي مدة رئاسة البطريرك بطرس وفد على مصر يعقوب البرادعي المشهور · وُلد يعقوب هذا في بلدة تيلا على مسافة ٥٥ ميلاً من اديسا بمقاطعة انطاكية وذلك في اواخر القرن الخامس فكان عند حضوره لمصر قد بلغ من العمر اشدَّهُ · وفي سنة ٥٤١ احضروه من ديره عند القسطنطينية ورسمه ثيودوسيوس بطريرك الاسكندرية اسقفاً مع جماعة من المصريين الذين كان يوستنيانوس قد حجزهم في ذلك الدير · وكانت رسامته على

اقليم اديسا اسمياً فقط لانه كان كرسل يجول في انحاء الولايات الرومانية عدا مصر لكي يضم سكانها الى حظيرة الكنيسة المصرية ويدخل في اذهانهم مذهبها واعتقادها بهمة لا يعتريها شيء من الكلل وقلب لا يعرف الخوف ولا يشعر بالخطر المحدق به من الموظفين والكهنة الرومانيين . قيل انه رسم ٨٩ اسقفاً والوفاً من الكهنة والقسوس . ومن ذلك الحين اطلقت كلمة « يعقوبيين » على جميع الذين يذهبون بان للمسيح طبيعة واحدة اشتقاقاً من اسم يعقوب البرادعي زعيم هذا الحزب . ولكن من الخلط الكبير والخبط الذي يدل على الجهل اطلاق لفظة يعقوبيين على الكنيسة القبطية المصرية اذ لا علاقة لها بيعقوب اما اذا سميت الكنيسة الرومانية بمصر بالكنيسة الملكية فأنت مصيب غير مخطيء لان هذا الاسم صار علماً للكنيسة المذكورة من بعد الفتح الاسلامي وهو اسم عربي الاصل مشتق من كلمة « ملك » ومعناها الذين ينحازون الى الملك او الامبراطور الروماني مذهباً وسياسة

والذي حدى بيعقوب لزيارته مصر هو سعيه لاصلاح ذات البين بين كنائسها وكنائس سوريا . وسبب هذا الخصام هو ان يعقوب كان قد رسم بطريركاً لانطاكية اسمه بولس كان من حزب القائلين بوجود طبيعة واحدة للمسيح ولكن لداعي الاضطهاد الشديد الذي وقع على بولس هذا اضطر ان يصادق على مجمع خلكيدونية ويقبل جميع قراراته وبالتالي يعتقد ان للمسيح طبيعتين . فساء هذا العمل يعقوب اساءة حرمه لاجلها وعزله من منصبه ولكن بولس فرّ من القسطنطينية بعد ان اعترفا بخطائه لامبراطورها وتاب عن زلته

هذه فلما سمع يعقوب بتوبته قبله في عضوية الكنيسة ثم اعاده لبطريركية انطاكية كما كان . فحنق المصريون لهذا التصرف وقيل ان البطريرك بطرس حكم على بولس بالحرم والعزل وهذا هو السبب الذي دعى يعقوب للمجيء الى مصر لكي يتفاوض في هذا الامر ويقنع بطريركها بالعدول عن رأيه ولكن البطريرك اقنعه ببراهين قوية واسانيد تعزى الى سيرة بولس هذا وسلوكه السابق في الاسكندرية التي هي مسقط رأسه ولذلك صادق يعقوب على الحكم بعزل بولس ولكنه يبقى عضواً في الكنيسة لانه تاب وندم . الا انه كان لبولس حزب قوي في سوريا رفض قبول هذا الحكم الذي اصدره بطريرك الاسكندرية وصادق عليه مطرانهم وزعيمهم يعقوب ولهذا وذاك نشأ في سوريا شقاق جديد استفحل امره وتعاظم شره . وبعد مضي بضع سنوات عزم يعقوب على زيارة الاسكندرية ثانية وكان البطريرك دميان قد اعقب البطريرك بطرس ولكن يعقوب أصيب بمرض عضال في الطريق فعرّج على دير في حدود مصر . فلما بلغ دميان خبر مرضه اسرع لعودته والسؤال عنه فلما وصل الدير كانت روح يعقوب قد وصلت الى باريها

ولم يحدث في مصر من الامور الهامة مدة رئاسة البطريرك بطرس الرابع الا زيارة يعقوب البرادعي لهذه البلاد كما ذكرنا وذلك لان بطرس لم يجلس على كرسي البطريركية سوى سنتين اذ توفاه الله وخلفه دميان الذي سار على خطة سلفائه الحسنة وهي الابتعاد عن كل شقاق ديني ونزاع مذهبي فكان هذا البطريرك يسوس رعيته بسياسة التعقل والتبصر وهو منزوٍ في صومعة في

دير وادي النطرون وقد مات ابوليناريس البطريرك الامبرطوري سنة ٥٦٩ وخلفه بطريرك آخر اسمه يوحنا اصله من قواد الجيش الروماني المتقاعدين تحت رسامته في القسطنطينية وارسل الى مصر ليقبض على ايراد الكنائس فيها ولم يكن هذا البطريرك كاسلافه معانداً مغاضباً بل هو اظهر ميلاً للسلام والهدو ولم يستعمل الضغط والقسر في اجبار الآخرين على ترك مذهبهم وتغيير عقائدهم ولكنه كان يخدم الله خدمة العبد المخلص لذاته تعالى

وفي ذلك العهد تفاقم امر الشقاق بين المصريين والرومانيين وذلك لان الحكومة الامبراطورية دققت جداً في عدم الحاق اي مصري كان بالجيش الروماني وهو قانون سارت عليه الحكومة من زمن مضى ولكنها كانت تتساهل فيه احياناً فاتبعت في هذا الحين الصرامة الكبرى في تنفيذه لانها راعت فيه جانب السياسة اكثر من جانب الوطنية او المذهب ولذلك جهل المصريون معرفة التمرينات العسكرية والحركات الحربية جهلاً تاماً وكان هذا سبب انكسارهم وفشلهم في الثورات التي قاموا بها ضد الرومانيين

وقد قاوم الرومانيون ايضاً تجارة مصر فاضعفوها قليلاً ولكنهم لم يقدروا على حصرها وملاشاتها فان السفن المصرية كانت تذهب الى انكلترا مشحونة بالغلال فتبيعها وتستعيض عنها بانواع المعادن خصوصاً القصدير

وفي هذا الزمن نبغ في مصر تاجر مشهور اسمه قزمان ولع بالملاحة والسياحة وسار الى اماكن قصية لحد خليج العجم وسيلان والهند . ولم يكن الرجل مولعاً بالتجارة ولعه بالبحث والتنقيب في اخلاق الناس الذين يراهم وطبائع

سكان البلاد التي يزورها وقد وضع مؤلفات عديدة حوت وصفاً مفيداً للاقطار التي رحل اليها وما فيها من انسان وحيوان ونبات وغير ذلك مما يماثل مؤلفات العلماء في عصرنا هذا · ومن موجبات الاسف الشديد ان يد الزمان عبثت بهذه الكتب كما عبثت بغيرها من مؤلفات المصريين القدماء ولم يبق من مصنفات قزمان سوى كتاب واحد موضوعه «وصف البلدان وصفاً ينطبق على مبادىء الديانة المسيحية» وقد ذكر في مقدمته «انه الفه ليدحض الوهم الفاسد الذي تسلط على بعض القائلين ان الارض كرة مستديرة مع انها مسطحة مستطيلة كما يتبين من مغزى الكتب المقدسة» ولا ريب في ان رأي قزمان هذا خطأ وخطل لا يقول به تلامذة المدارس في هذا الزمن

على انا اذا اغمضنا الطرف عن الهفوة الآنفة الذكر نجد الكتاب لذيذاً نافعاً يحتوي على امور مهمة دقيقة عن سيلان وبلاد الهند ليس فقط في ما يختص بحالة الديانة المسيحية فيهما بل يبحث ايضاً بالاسهاب عن محصولاتهما وتجارتهما وفنونهما · وفيه زيادة كما ذكر صورة كتابة اثرية قديمة وجدها منقوشة على بناء عتيق في مدينة ادول وهي ثغر من ثغور بلاد الحبشة واقع على شاطىء البحر الاحمر · وفي هذا الكتاب وصف لهذا الاثر القديم بانه «قطعة من الرخام الاسود على شكل السفين (الخابور) قائمة خلف كرسي من الرخام الابيض خص بالمريخ وعليه صورة هرقل وعطارد · (المريخ وهرقل آلهة الحرب عند القدماء) وكان على قطعة الرخام الاسود كتابة

محفورة فيها تشير الى بطليموس يورجيتيس (ملك من سنة ٢٤٧ الى ٢٢٢ قبل المسيح) وعلى كرسي الرخام الابيض كلام يشير الى ملك لم يذكر اسمه غزا بلاد الحبشة بعد التاريخ المذكور بقليل »

ولم يكف الاسكندرية ما اصابها من الانحطاط في تجارتها وعلومها بل ان المدينة نفسها اعيد رونقها وانقلب منظرها من وقت ما اتخذها الموظفون الرومانيون مسكناً لهم . وكان اكثر هؤلاء الحكام يقطنون مدينة طبوصيرس الواقعة على مسيرة يوم غربي الاسكندرية . ولا تزال خرائب قصورها واطلال حماماتها الشهيرة ودمن منازلها قائمة تدل على ما كان لها من المجد والعظمة

وكان علماء العالم باسره يفدون على الاسكندرية حينئذ لتصحيح ما بايديهم من النسخ القديمة التي لا يوجد عارف باصولها سوى علماء الاسكندرية . وبالجملة فان علوم المصريين ومعرفتهم في الطب والجراحة كانت لا تزال مشهورة مأثورة في جميع المسكونة

وفي مدة حكم يوستنيانوس وخليفتيه يوستينوس الثاني وطيباريوس الثاني اتسع فتق البغض والكره وعلا سعير العداوة والنفور بين المصريين والرومانيين الدرجة تتضح لك فيما يلي من الفصول



الفصل التاسع والعشرون

ثورة الثلاثة اخوة

سنة ٥٨٢ للمسيح و٢٩٨ للشهداء

في اوائل حكم الامبراطور موريس الذي جاء بعد طيباريوس الثاني حدثت ثورة في الوجه البحري تحت زعامة اخوة ثلاثة من الاقباط هم ابسخرون وميتا ويعقوب الذي اعتقلوا السلاح وقاموا يناجزون الرومانيين ويناصبونهم الشر والعدوان · وكان فاتحة اعمالهم انهم ساروا على جهة بنا وابو صير (بالقرب من سمنود غربية) واضرموا فيها النيران واعملوا الصارم البتار في رقاب سكانها· فلما احس واليها بذلك فرّ تحت جنح الظلام قاصداً القسطنطينية حيث عرض الامر على امبراطورها واخبره بهذا الثوران ومصيره· فارسل الامبراطور الاوامر مشددة الى يوحنا حاكم الاسكندرية يطلب منه وضع حد لهذا العصيان واخماد نيرانه بجميع الوسائل الممكنة · اما العصاة فبعد ان استتب لهم الامر في اقاليم الوجه البحري ووضعوا يدهم عليها جعلوا وجهتهم الاسكندرية يتهددونها ويتوعدون وكان اول ضرر الحقوه بها هو انهم اغتصبوا الحنطة التي كانت مرسلة اليها في السفن فنتج من ذلك جوع وتبي في الاسكندرية اهاج سخط الرعاع فقاموا على يوحنا حاكم المدينة يبغون قتله فلم ينقذه من ايديهم سوى بعض وجهاء المصر بين الاقباط الذين وقفوا في وجه الاوباش واخذوا يوحنا تحت حمايتهم · ومن غريب الاتفاق ان يوحنا هذا كان

صديقاً حميماً للاخوة الثلاثة الذين اوقدوا شواظ هذه الثورة · ولكن صداقة يوحنا لزعماء الثائرين لم تمنع هذا العصيان ولم تفد في ايقافه بل اضرته من وجه آخر لان الامبراطور عزله وعين بدله رجلاً اسمه بولس · وفي هذه الاثناء كان لهيب الثورة يندلع ممتداً في مصر مهدداً السلطة الرومانية بالسقوط والزوال · فان اسحق ابن اكبر الاخوة الثلاثة انتصر في عدة مواقع بحرية انتصاراً باهراً وغنم عدداً وافراً من المراكب والسفن وصار يطوف في البحار الى ان وصل قبرص وهو يكتسح في طريقه جميع المراكب الرومانية ويناوش الشطوط والموانى ويسلب منها الغنائم والذخائر · فخاف الامبراطور شر العقبي واوعز الى بطريركه في مصر ان يفاوض الثوار في شروط الصلح فقبل البطريرك وعين مكان الاجتماع للصلح في بلدة عيقلة (هي الآن زاوية صقر بمركز ابو حمص بحيرة) مسقط رأس الاخوة الثلثة

وكان هذا البطريرك الامبراطوري واسمه يولوجيوس قد جلس بعد يوحنا نحو سنة ٥٧٩ وهو اول بطريرك روماني استمال لجانبه المصريين بعض الميل واكتسب ثقتهم ومحبتهم · ولم يكن الرجل رومانياً او مصرياً بل هو من انطاكية رسم في القسطنطينية وانفذ الى مصر ليرأس ذلك الرهط الروماني القليل العدد الذي كان يعتبره امبراطور القسطنطينية وبابا رومية كأنه الكنيسة المصرية الاصلية وهو الذي اوجد كل هذه الثورات والحزازات · وكان يولوجيوس هذا صديقاً لغريغوريوس الكبير بابا رومية الذي جاء بعد بيلاجوس الا ان هذه الصداقة كانت شخصية فقط لا دخل للعقائد فيها لان

بولوجيوس كان مسيحياً حقيقياً على شيء كبير من رقة الاحساس وصفاء القلب وسعة العقل ولذلك ابقى على الكنيسة الرومانية في مصر بعدما اوشكت على الاضمحلال والبوار . وبناء على ايعاز الامبراطور له بشأن الصلح سار الى عيقلة مع شماس له اسمه عيلاس وهناك اجتمع الحزبان الاخضر (المصريون) والازرق (الرومانيون) وتباحثوا وتناضلوا وتجادلوا وتفاوضوا ولكن بدون جدوى ما دام ان الثائرين كانوا مصرّين على اعادة يوحنا والي مصر المعزول والا فهم يداومون القتال . وقد قام خطيب منهم وقال « ان يوحنا هذا لا يهاب احداً ولا يخشى العذل والعتب بل هو عدو للظلم نصير للعدل وكان يعاملنا معاملة حسنة نرضى بها ولا نرضى بغيرها فلا بد من اعادته »

فرأى الامبراطور من حسن السياسة اجابة طلب العصاة لانهم كانوا قد وضعوا ايديهم على الوجه البحري برمته واصبحوا اقوياء قادرين حتى انهم استولوا على الجزية التي كانت تدفع الى الحكومة الرومانية من مصر واخذوها لانفسهم . فأعيد يوحنا الى الاسكندرية وارسل رجل اسمه تاودروس ابن احد القواد المشهورين العارفين بمواقع البلاد ليقود الجيش الروماني ضد العصاة اذا لزم الحال

وكان الامر المهم الذي تذمر منه المصريون وتضجروا هو ان الحكومة الرومانية القت القبض على رجلين من اصحاب الحيثيات وارباب الوجاهة بين المصريين بدون سبب يعرف وسجنتهما والرجلان المذكوران هما قزمان ابن صموئيل وبانون ابن آمون فطلب تاودروس قائد الجيش الروماني

اطلاق سراح هذين الوجيهين وتسليمهما له لكي يظهرهما امام الثائرين فيكفوا عن عصيانهم . فاجابت الحكومة طلبه وافرجت عن ذينك الرجلين وعن ثلاثة آخرين من عظماء المصريين كانوا قد سجنوا معهما وسلمت الخمسة اشخاص الى تاودروس الذي دار يبحث عن العصاة حتى نظرهم من بعيد فضرب خيامه على شاطىء النيل المقابل لهم ووضع قزمان و بانون على رابية مرتفعة لكي يراها اخوانهما . ويظهر ان تاودروس استعمل الوعد والوعيد مع قزمان وبانون فكلما مواطنيهما قائلين ان يكفوا عن القتال والنزال ويعودوا الى السلم والامن لان الحكومة الرومانية لا تزال في عنفوان قوتها وان الثائرين لا يمكن لهم النجاح والاستقلال

فأثر كلام قزمان وبانون في اكثر الثائرين فطرحوا السلاح وعبروا النهر حيث التقوا باصدقائهم الخمسة وتشتت شمل الجيش المصري فلم يبق في ساحة النزال الا الاخوة الثلاثة وعدد قليل من اصدقائهم وقد قابلوا صفوف الجيش الروماني الذي هجم عليهم حينئذ بقلوب من حديد وصاروا يقارعون هذا الجيش العرمرم ويناوشونه ويهاوشونه الى ان اقبل الليل وقد خارت قواهم وكلت سواعدهم فلم يجدوا لهم مفرجاً الا الهرب ففروا الى بلدة صان (بالشرقية) حيث استراحوا قليلاً ثم ساروا عند شروق الشمس ولكن الجنود الرومانية ادركتهم فوقفوا في وجوههم مدة من الزمن يخترقون صفوفهم الى ان تكاثر عليهم الجنود واخذوهم اسرى على مقربة من الاسكندرية ومعهم الثلاثة اخوة واسحق ابن اكبرهم ثم وضعوا هؤلاء على جمال وطافوا بهم شوارع الاسكندرية حتى يعتبر

سكانها بما جرى للعصاة وليعلموا ان الثورة قد همدت · وبعد هـذا التشهير والتعيير طرح الاخوة وابنهم في السجن ولكن يوحنا الوالي صديقهم ظل يدافع عنهم طول مدة ولايته الى ان حل والٍ جديد محله فقطع رؤوس الاخوة الثلاثة ونفى اسحق نفياً مؤبداً · اما الامبراطور فكان حانقاً من هذا العصيان فلم يكتف بهذه النذالة والدناءة بل امر الوالي بضم جميع ممتلكات زعماء الثورة الى الحكومة واحراق مدينتي عيقله وصان

وعلى هذه الصورة المحزنة انتهت الثورة التي اوقد جذوتها اؤلئك الاخوة الابطال ولكنها لم تكن الاخيرة من نوعها لان العداء والبغضة وكل اسباب الحقد والغضب كانت تستفحل وتقوى يومياً عند المصريين ضـد الرومانيين ولذلك كثرت الثورات في مدة حكم موريس وخلفائه وقام العصاة في جهة اخميم (بمديرية جرجا) يقاومون الحكومة الرومانية ولكن جيشها تغلب عليهم وهزمهم الى بلاد جرداء لا زاد فيها ولا ماء واحاط بهم حتى ماتوا جوعاً وسغباً · ولما صار فوكاس امبراطوراً هبت خمس مدن مهمة الى الثورة والحرب وهي صان وخربتا و بسطره و بلقطر وسنهور (بمديرية البحيرة) وقد نالها فوق مانال غيرها من الفشل والهزيمة الا ان الروم استعملوا مع سكان هذه المدن جميع انواع القسوة والوحشية التي لا تأتيها الضواري المفترسة

ومن ذلك الحين علم المصريون حق العلم انه يصعب عليهم لوحدهم طرح ذلك النير الروماني الثقيل الذي زاد ضغطاً على اعناقهم منذ سنة ٤٥١ ولذلك نظروا في اوائل القرن السابع نظرة اليائس القانط عساهم يجدون من

يرفع عنهم هذا الشر فعمدوا الى العرب الذين بهرت فتوحاتهم الابصار وادخلوهم الى مصر ولكنهم لما استجاروا بعمر ابن الخطاب على القاذهم من ظلم الرومانيين وقعوا في ما هو امر وانكى وظلوا من ذلك العهد لحد يومنا هذا — مدة ثلاثة عشر قرناً ونيف — يذوقون من العرب مر العذاب ويسامون انواع الظلم والعسف ويضطهدون اضطهاداً لا يذكر بجنبه اضطهاد ديوكلتيانوس ونيرون · وكأن الشاعر العربي احس باستجارة الاقباط بعمر بن الخطاب او بعمرو بن العاص فعناهم بقوله :

المستجيرُ بعمروٍ عند كربتهِ ... كالمستجيرِ من الرمضاء بالنارِ

الفصل الثلاثون

الفتح الفارسي

سنة ٦٠٣ للمسيح و٣١٩ للشهداء

بينما كان قضيب السلطة الرومانية في مصر ينتفض و يرتجف حتى يكاد ينقصف كان المصريون يزدادون قوة ومنعة على توالي الايام · وقد جلس على السدة البطريركية بعد دميان البطريرك اناسطاسيوس سنة ٦٠٣ وكان رجلاً عالي الهمة قوي العزيمة فلم ترض نفسه الشماء القعود في دير وادي النطرون بل جاء الاسكندرية وخطر الموت يحدق به ورسم قسوساً واساقفة

ثم طاف جائلاً في الارياف يفتقد رعيته ويؤاسيها · وقد بنى كنيسة كبرى في الاسكندرية تضارع الكنيسة الامبراطورية وكرّسها باسم ميخائيل رئيس الملائكة(١)·وفي هذه السنة فاض النيل بغزارة في احدى الليالي حتى ارتفع على بلدة اسنا (بمديرية قنا) فغمر منازلها واغرق كثيرين من سكانها

وفي هذا الزمن حدث انشقاق وانقسام في المملكة الرومانية وقام هرقل الاكبر والي افريقيا ضد فوكاس امبراطور القسطنطينية يريد التهام مصر منه وهي اللقمة الدسمة السمينة التي سعت امم العالم من زمان قديم لازدرادها ولكن عسر هضمها على جميع هذه الامم · فلما وجد المصريون عدواً

(١) ان رئيس الملائكة مخائيل حل في مصر محل آله وثني كان المصريون يعتبرونه كثيراً ويعبدونه عبادة المخلوق لخالقه · ففي القرن الرابع قام البطريرك اسكندر على هذا الصنم وحطم تمثاله النحاسي باحتفال عظيم اقامه في الاسكندرية لهذا الغرض ثم ابدل مذبحه بكنيسة للمسيحيين · ولم يكن في امكانه اتمام هذا العمل بدون مقاومة حتى من المسيحيين انفسهم لولا انه وعدهم بتعضيد مخائيل لهم ومساعدته اياهم اكثر من ذلك الصنم الاصم وكذلك ابقى لهم جميع مراسم الاعياد والاحتفالات التي كانوا يقيمونها للاله الكاذب ولكنه حولها من اسمه الى اسم مخائيل ومن ذلك العهد لحد يومنا هذا والمصريون يعيدون ذلك العيد الوثني اكراماً لرئيس الملائكة. ولا يزال المصريون يتناقلون خرافة عن مخائيل ويزعمون ان باب الجحيم (او المطهر) يفتح في يوم معين من ايام السنة فيدخله هذا الملاك ويغوص في وسط لهب النيران المستعرة ثم يخرج حاملاً ارواحاً بقدر ما يستطيع جناحاه حملها · وهو تهريف وتخريف تصدقه العقول الصغيرة كما تصدق غيره من امثال هذه الخرافات الكثيرة

يناصب فوكاس العداء انضموا اليه بكليتهم وسار عدد كبير منهم مع الجيش الذي سيره هرقل لفتح الاسكندرية وكان مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل من الجنود الرومانية تحت قيادة قائد اسمه بوناكيس ضم اليه حامية مريوط لان واليها خاف شر الحرب وسار مع هؤلاء المغتصبين ضد رغبته ورغبة مولاه الامبراطور دون ان يبدي أدنى مقاومة · فلما عسكر جيش بوناكيس خارج اسوار الاسكندرية برز لهم واليها في نفر من الجند قليل العدد يريد رد هجماتهم ولكن بوناكيس طلب منه الانسحاب من المعمعة والقعود في مكانه بدون عراك وهو يشترط له في مقابل ذلك حفظ حياته من القتل · الا ان والي الاسكندرية أبى السكوت وشن الغارة على المغيرين ولم يقف طويلاً في ساحة القتال لان جيشه هزم ووقع هو اسيراً فقطعت رأسه وعلقت على اسوار الاسكندرية لكي يعتبر بها كل من يتنطح لامر فوق طوقه · فلما رأى تاودروس البطريرك الروماني ذلك علم ان الخطر محيط به فلجأ الى الكنيسة الرومانية لانه لم يجد له نصيراً في الاسكندرية مادام جميع سكانها رحبوا بهرقل وجنوده كما ان اهالي نيقية (ابشادي بمركز منوف) ساروا باجمعهم تحت رئاسة اسقفهم للقاء بوناكيس والاعتراف بحكم هرقل عليهم وقد نسج اكثر المصريين في المدن الاخرى على منوالهم ما عدا صاحبنا قزمان الذي اخمد نيران ثورة الاخوة الثلاثة فانه انحاز مع بولس والي سمنود ومركيانوس والي بنها وبعض الموظفين الرومانيين الى جانب الامبراطور فوكاس وانضمت اليهم ايضاً عقيلة ذات نفوذ وهيبة اسمها كرستودورا

واتفق هذا الحزب الضئيل القليل على مقاومة اعداء فوكاس بكل قوة خصوصاً لانهم سمعوا ان قائداً اسمه بونوز جاء من عند فوكاس بجيش جرار وصار على مقربة من الاسكندرية . ولذلك انقسم الوطنيون الى قسمين — قسم انحاز الى هرقل تحت رئاسة البطريرك الروماني تاودروس وافلاطون وتاودروس اسقف ابشادي وميناً وكيل الاسقفية . والقسم الوطني الثاني المعضد لفوكاس كان تحت زعامة قزمان وبولس وكرستودورا . وكلا الحزبين وقفا ضد بعضهما في مركز منوف ولكنهما لم يتحاربا بل انتظرا مجيء القائدين الرومانيين اللذين وفدا في ذلك اليوم فعسكر بونوز ظهير فوكاس في بنها وتقدم بوناكيس نصير هرقل من ابشادي ليلتحق بنصرائه من الوطنيين وحينئذ اشتبك الجيشان في معركة شعواء شرقي بلدة منوف عقد فيها النصر لواء ابونوز وقتل بوناكيس وفرّ افلاطون والبطريرك تاودروس الى دير عند اتريس واختبآ فيه . أما تاودروس اسقف ابشادي ووكيله مينا فلجآ الى خيمة بونوز وبيدهما الكتاب المقدّس يحتميان به ويطلبان باسمه رحمة وصفحاً فمنّ عليهما بونوز ومال للعفو عنهما ولكن من كيانوس وكرستودورا اغرياه على قتلهما وافعما قلبه بكل انواع الحقد ضدهما بقولهما له ان هذا الاسقف امر بتكسير التمثال الذي كان ممثلاً فوكاس في ابشادي وانه اول من حرض على مقاومة الامبراطور وحزبه فهو يستحق الموت . وعليه قطعت رأس هذا الاسقف المسكين في بلدته ووضع مينا تحت طائلة السياط والجلد المريع الى ان دفع ثلاثة آلاف قطعة من الذهب فدية له ولكنه مات بعد

يومين من ألم الضرب · وعند ما سمع سكان البلاد المجاورة هذه الاخبار
استولى عليهم الرعب والقلق خصوصاً رهبان اتريس الذين ساروا سير الجبناء
الانذال وسلموا الى بونوز جميع مواطنيهم الذين التجأوا اليهم فوضعوا السلاسل
والاغلال في رقاب افلاطون والبطريرك تاودروس وكثير من وجهاء
منوف واعيانها وثلاثة من ارباب المظاهر والحيثيات من الاقباط
وساقوهم الى بونوز في ابشادي حيث جلدهم بالسياط والمقارع جلداً امزق
جلودهم ثم قطع رؤسهم في المكان الذي لاقى فيه اسقف ابشادي حتفه

وما كان النصر الذي احرزه فوكاس وانصاره سوى سحابة صيف
انقشعت وزالت وهب وجهاء المصريين وجماعة الرومانيين المستوطنين مصر
والكنيسة القبطية عن بكرة ابيها للاخذ بناصر هرقل وتعضيده · ثم وفد
على الاسكندرية قائد مدرّب اسمه نسطاس من قبل هرقل ومعه جيش
زاخر فافتتح فتوحاته بسمنود ولم يقف واليها طويلاً في وجه هذا الجيش الجرار
حتى اغرقوا سفينته برميها بالحجارة ونجي هو بنفسه · وكان على مقربة من
سمنود راهب اسمه ثوفيلس عرف بالتقوى والقداسة ظل اربعين سنة قاعداً
فوق قمة عمود دون ان يطأ الارض بقدميه قصده نسطاس يستشيره في
مصير هذه الحرب ويستمد منه المساعدة لان الرجل كان نافذ القول مسموع
الكلمة بين الاقباط · فقال له ثوفيلس ان الغلبة ستكون له وان هرقل سوف
يصعد على كرسي المملكة بدون ريب ولا جدال · فاعتماداً على هذا التنبؤ
سار نسطاس نحو الاسكندرية واقام الحرب العوان على بونوز فهزمه والجاه

للفرار الى ابشادي وضم تحت رايته كل الحزب الروماني في مصر · ومعلوم ان الضعيف يعمد الى الحيلة والخديعة في جميع اموره ولذلك لما ضاعت القوَّة من يد بونوز ارسل عسكرياً الى نسطاس يدعوى اعلانه بالخضوع له واوصى هذا العسكري ان يأخذ نسطاس غيلة ويقتله بخنجره ولكنه لم ينجح لان احد رجاله اخطر نسطاس بهذه الدسيسة فقبض على الرسول وقتله بخنجره الذي حمله لاغتيال نسطاس · وبعد مصادمات وحروب عنيفة انذلَّ اتباع فوكاس وتشتت شملهم وقتل بونوز وتاودروس البطريرك الروماني واسر بولس والي سمنود وقزمان ولكنهما عوملا بالرفق واللين · ولما استتب الامر لنسطاس حوَّل نظره الى اجراء النظام والعدل في مصر لان الارتباك كان قد عمَّ نواحيها وقام جماعة من المصريين يقصدون نهب الرومانيين وسلبهم في اثناء هذا الاختباط والثورات ولذلك اضطرَّ الكثيرون منهم الى مهاجرة مصر بالمرَّة وغيرهم ترك الديانة المسيحية وعاد الى الوثنية كما يعود الكلب الى قيئهِ · وقد استعمل نسطاس القسوة تارة والرحمة طوراً لتسكين الخواطر الثائرة وكان من حسن اعماله انه اعفى مصر من كل جزية لمدة ثلاث سنوات فاستراحت برهة لم تكن الا كطرفة عين وانتباهتها

ذلك ان الزمان وهو ابو العجائب ابى على مصرام الغرائب ان تتمتع بالسلام والسكينة الا بقدر ما يرى الشقي السجين ضوء الشمس بعينيه ثم يعود الى حجرته المظلمة · فانه بعد مضي اربع سنوات على هذه الفترة افتتح جيش كسرى ملك الفرس بلاد الشام ووصل حدود مصر يتهددها ويتوعد · وكان

كثيرون من مسيحيي سوريا قد فرّوا الى مصر ملتجئين اليها من ظلم الفر
وقسوتهم فتسابق البطريرك الروماني يوحنا — الذي عينه هرقل خلي
لتاودروس في مصر — والبطريرك المصري اناسطاسيوس في اكرام جيرانه
المسيحيين اللاجئين اليهم وعملا ما في وسعهم لتخفيف ويلاتهم وتنفيس
كروبهم · ولا ريب ان يوحنا البطريرك الامبراطوري كان اوسع ثرو
واكثر مالاً من زميله المصري لانه كان واضعاً يده على ايراد الكنائس القبطي
ودخلها كله ولم يكن لدى الاقباط من المال سوى ما يجمعونه من المحسنين
لسد احتياجات بطريكهم والاكليروس · اما البطريرك يوحنا فكان عند
يوم تعيينه اربعة آلاف رطل من الذهب الاصفر او الاحمر مكوّمة مكدس
في خزائن كنيسة هذا عدا عن ايراده السنوي الوافر والمبالغ الباهظة الت
جاد بها المتبرعون اعانة لجالية السور بين اللائذين بمصر · وكان بين الذين
قصدوا مصر في ذلك الوقت البطريرك الانطاكي الذي استقبله اناسطاسيوس
البطريرك الاسكندري استقبالاً حافلاً وهش في وجهه وبش واكرم وفادته
كثيراً مع انه كان في ظروف حرجة ضيقة لان النيل كان واطئاً ولم يبلغ
ارتفاعه المعتاد · وقد اظهر البطريرك يوحنا سخاء زائداً وكرماً مدهشاً يدل
على احساس حساس وقلب رقيق لطيف فوزع جميع امواله بدون شيء · من
الحرص او الحزم حتى دعوه بعد موته بالقديس يوحنا المحسن · فانشأ مستشفيات
للمرضى وملاجئاً للبائسين والعجزة فضلاً عن انه كان يوزع الصدقات الكثير
يومياً على الذين يفدون الى داره ويمد للجائعين امتطة الاطعمة وموائد الما كل

فيأكلون ويسدون رمق جوع شديد · وكثيراً ما كان وكلاء هذا المحسن يجتهدون في كف كفه عن هذا البذل والجود بدعوى ان اغلب المتسولين يلبسون حلياً من الذهب والحجارة الكريمة وهؤلاء لا يصح الاحسان اليهم لانهم يمكنهم بيع هذه الحلى والاقتيات بثمنها فكان يوحنا يوبخ وكلاءه على قساوة قلوبهم وضعف ايمانهم وهو يقول لهم انه لو اجتمع على بابه جميع اهالي العالم باسره فهو يمكنه اطعامهم وامدادهم بما يحتاجون بنعمة الله وجوده الغير المتناهي · (وحري ببعض رؤساء الديانات في هذا العصر ان يتعظوا ويقتدوا بهذا الجواد ويبذلوا شيئاً مما يمتصون من دماء رعاياهم على فقراء يتضورون جوعاً واراملٍ يكدنَ يبذلنَ ماء الوجه للحصول على القوت الضروري وحضرات الاحبار الذين يقولون انهم خلفاء ذاك الذي لم يكن له اين يسند رأسه يكنزون لهم كنوزاً في الارض حيث لا وارث سوى الصداء الذي يقول عنه يعقوب الرسول انه يأكل تلك اللحوم كنار في اليوم الاخير)

وكانت نتيجة هذا السخاء المفرط ان المال فرغ من خزائن يوحنا قبل ان يفرغ هو من الاعمال الضرورية فوقع صاحبنا في ضيق شديد ولم يجد له مخرجاً من هذا العسر المالي · وحدث ان مثرياً شهيراً من الاسكندرية وعد يوحنا باعطائه مقداراً وافراً من الحنطة و١٨٠ رطلاً من الذهب على شرط ان يعينه يوحنا شماساً — وكانت هذه الوظيفة الخطوة الاولى للوصول الى رتبة البطريركية · وكان عسيراً على يوحنا مخالفة النظامات والقوانين الكنائسية لان هذا الغني كان قد تزوج مرتين ففقد بذلك اول شرط من شروط

الكهنوتية وهو ان يكون الشماس قد تزوج مرة واحدة فقط (١) اي لم تمت امرأته الاولى و يقترن باخرى » . فوقع هذا البطريرك المفضال في ورطة وحيرة لانه كان في اشد الاحتياج لهذا المبلغ الوافر ولكنه رد على هذا المحسن المشترط بقوله انه لا يستطيع انكار فائدة هذه الهبة الكبرى التي تفيد الكثيرين وتنفعهم ولكنها حيث هي مبنية على غاية ذات اساس فاسد فلا ينبغي التردد في رفضها وعدم الندم على ردها لواهبها . ثم خاطبه قائلاً « ان الله الذي عال هؤلاء المساكين كل سنيهم السالفة قبل ان يعرفونا قادر ان يقوتهم في ما بقي لهم من الايام . وان ذاك الذي بارك في الخمسة ارغفة فاشبعت عدداً عديداً من الناس هو وحده قادر ان يبارك في كيلتي الحنطة الباقيتين في مخازني »

فلما سمع هذا الوجيه كلام يوحنا المؤثر اسقط في يده ومضى حزيناً يتعثر باذيال الخيبة والفشل ولم يكد يخرج من امامه حتى دخل رسول يقول ليوحنا ان سفينتين من السفن الخاصة بالكنيسة عادتا من جزيرة سيسليا (بالقرب من ايطاليا) مشحونتين بالغلال شحناً كاملاً . فللحال جثا هذا البطريرك الورع على ركبتيه وشكر الله كثيراً على نعمائه وفيض بركاته ولانه اغناه فلم يسمح له ببيع المواهب الروحية بذهب او بفضة

---

(١) ان البطريرك يوحنا من جزيرة قبرص كان أرمل ولم يكن راهباً ولا شماساً ولذلك كان تعيينه في مسند البطريركية غير قانوني . ولكنه ما دام رسم للحزب الامبراطوري وبأمر من الامبراطور فلا يعد عبثاً اذا جاء تعيينه ضد كل قانون كنائسي ومخالف للاصول الشرعية والمرعية

ولو ان يوحنا هذا كان واضعاً يده على ايراد الكنائس تعضده قوة الحكومة وتساعده يد الامبراطور الا ان نفوذه لم يكن معروفاً سوى في مدينتين او ثلاث حيث كانت تقيم الحاميات الرومانية وهذا كان حال جميع البطاركة الرومانيين الذين يعينهم الامبراطور لمصر فان المصريين لم يكونوا يشعرون بوجودهم لعدم اهتمامهم بهم . الا ان هذا المحسن المشهور اكتسب محبة الاسكندريين وصداقتهم بواسطة فضائله وفواضله لا بقوته وسلطانه . واعظم هذه الفضائل احسانه الذي اسهبنا في وصفه لك وتقتيره على نفسه وعيشته بغاية البساطة والابتعاد عن كل ترف واسراف كما كان يفعل بطريرك الاسكندرية المصري اناسطاسيوس الذي سار مع يوحنا بغاية الوداد والصداقة الخالصة من كل رياء ونفاق . ولما تنيح البطريرك اناسطاسيوس الذي كان محبوباً ومحترماً عند رعاياه وخلفه اندرونيكوس أذنت له الحكومة بالبقاء في الاسكندرية بغاية ما يكون من الحرية ولذلك مد السلام رواقه بين الكنيسة المصرية وربيبتها الرومانية بعد طول ذلك الشقاق والخناق . ولم ينس المصريون هذا الجميل بل ذكروه للامبراطور بالشكر الوافر كما انهم عدّوا البطريرك يوحنا الروماني قديساً بعد موته مع انهم لم يكونوا يعترفون لاحد بالقداسة ما دام هو خارج حضن كنيستهم القبطية

ومن الفضائل التي تسطر للبطريرك يوحنا بمداد التبر انه خصص جزءاً من ايراد الكنيسة السنوي بدفع فدية للمسيحيين الذين وقعوا اسرى في حرب الفرس . وحدث ان يوحنا اتضح له امراً غريباً هو ان المستخدمين

الذين عهدت اليهم هذه الخدمة كانوا يأخذون رشوة من اهل الاسرى حتى
يسرعوا بفك هذا قبل ذاك فجمعهم اليه والقى عليهم التنبيهات المشددة بعدم
العودة الى مثل هذا الامر الشائن مرة اخرى ثم انه زاد رواتبهم زيادة طيبة
حتى يقتنعوا بها فلا يمدون ايديهم للرشوة (وما اجدر حكومتنا بمثل هذا الصنيع
مع بعض مستخدميها) . قيل ان هذا اللطف والكرم اثرا كثيراً في بعض
الموظفين حتى انهم تبرعوا بهذه الزيادة لخدمة الكنيسة

ولنذكر لك القصة التالية وفيها دلالة على نباهة يوحنا وحذقه وغيرة
ولطفه ذلك ان جرت العادة في جميع الكنائس ان كل مسيحي يلزمه متناول
الاسرار المقدسة في الصيامات ولكن بعض الاقباط والاروام اهملوا هذ
الامر بالكلية . ثم ان بعض شبان الاروام في الاسكندرية ابتدعوا بدع
جديدة هي انهم كانوا يخرجون من الكنيسة بعد قراءة انجيل القداس ول
يمكثون لحد ما تنتهي الخدمة . فلما رأى البطريرك يوحنا هذا الابتدا
ترك الكنيسة وخرج في اثر الشعب قبل ماتتم الخدمة . فعجب الشعب من عم
هذا وسألوه السبب مندهلين متعجبين فاجابهم يوحنا بكل سكوت وتعق
قائلاً « لا يخفاكم انه يحتم على الراعي ان يذهب حيثما تذهب الرعية . فما د
حضراتكم لا تمكثون في الكنيسة التي شيدناها لكم فلا حاجة لي بالبقاء في
بعدكم لانني انما اذهب اليها لاجلكم اما انا فيمكنني ان اصلي في منزلي او
اي مكان آخر بعيد عن الكنيسة » قيل ان السامعين نخستهم ضمائرهم م
هذا التوبيخ اللطيف وصاروا يمكثون في الكنيسة الى ما بعد انتهاء الخدمة

ومع ما اشتهر به يوحنا من الفضائل الذكية فلم تكن عنده الشجاعة المسيحية التي تقود امثاله الى الموت استشهاداً في سبيل الايمان . فانه بعد ما انقضت فترة السلام هذه وكان الفرس قد وطدوا قدمهم في سوريا ساروا نحو مصر فقابلهم المصريون بصدر رحيب لانهم كانوا يسعون بجميع الوسائل الفعالة للخلاص من جور الرومانيون وتسلطهم وتحكمهم تحكم الظالمين الغاشمين . اما نسطاس القائد الروماني الذي انتصر قبلا على شراذم المصريين الجاهلين بالحركات العسكرية فلم يبد حراكاً ضد الفرس لانه اعتبر ان مقاومتهم والوقوف في وجههم ضرب من الهوس والجنون فاتفق مع البطريرك الامبراطوري يوحنا على الفرار من الاسكندرية التي احتلها الفرس سنة ٦٢٠ وخضعت لهم كل ارض مصر خضوعاً تاماً من الاسكندرية شمالا لحد بلاد الحبشة جنوباً حتى صارت مصر اقليماً فارسياً . وكان الامبراطور هرقل مشغولا حينئذ بالدفاع عن عاصمة مملكته (القسطنطينية) وصد هجمات الاعجام عنها فلم يحرك ساكناً لاسترداد مصر من ايديهم ولا هو عين بطريركاً لكنيسة الاروام فيها مع ان يوحنا مات في السنة التي فيها فرّ هارباً وقد عدّه هروبه هذا جبناً وضعفاً كما قلنا . وبعد وفاة يوحنا بسنة تنيح البطريرك المصري اندرونيكوس فاصبحت الكنيستان المصرية والرومانية بلا رئيس مدة الى ان شرع الاقباط في انتخاب بطريرك لهم فتنبه رهط الاروام كأنه كان نائماً وعلة هذا الانتباه ان الاروام عرفوا انهم اذا ظلوا بلا بطريرك فلا ريب في ان البطريرك القبطي الذي يعين يضع يده على ايراد الكنائس الوافر وهم لا يستطيعون

المقاومة لانهم بدون عضد فلم ينتظروا امر الامبراطور بل وقع اختيارهم حالاً على بطريرك اسمه جرجس لا يعرف عنه شيء يستحق الذكر سوى انه خدم جماعته كما خدمهم اسلافه

وقد اختار الاقباط بنيامين بطريركاً لهم وهو من عائلة اشتهرت بالثروة الكثيرة والنفوذ الواسع مما ساعد هذا البطريرك في اعماله التالية وجعل له شهرة فائقة · وكان بنيامين راهباً في احد الاديرة حيث عرف فيه بالزهد الكثير والميل الى الصلوة والعبادة · وقبل انتخابه ببضع سنوات جاء الاسكندرية واقام فيها مدة مع سلفه البطريرك اندرونيكوس الى ان اختاره الاقباط لمسند البطريركية

الفصل الحادي والثلاثون

مشروع الاتحاد

سنة ٦٢٩ للمسيح و٣٤٥ للشهداء

في سنة ٦٢٩ اقام هرقل حرباً عواناً على الفرس في انحاء المملكة الرومانية احرز فيه نصراً باهراً وحينئذ ادار وجهه نحو مصر ليستردها من ايديهم · وقد علمته الاخبار ودربته الحنكة والتجارب انه لايستطيع اعادة هذا القطر لقبضة يده الا اذا هو اصطلح مع الاقباط واتفق مع سكان مصر على العموم · فلذلك جمع لديه اثناسيوس بطريرك انطاكية (الذي لجأ الى مصر منذ سنوات

مضت) وسرجيوس بطريرك القسطنطينية وكيروس احد اساقفة المملكة الغربية واستشارهم على تباين آرائهم في انجح الطرق لاتمام هذا الصلح . فبعد جدال طويل اتفقوا على عدم ذكر مجمع خلكيدونية على الالسنة حيث ان ذكره بالمدح او بالذم يثير ثائرة الاحزاب ويغضبهم . ثم قرروا ايضاً وضع مشروع سموه « مشروع الاتحاد » ومعناه القول بان لربنا « مشيئة » واحدة بدل قولهم « طبيعة » واحدة . فصادق الثلاثة احبار السالف ذكرهم على هذا الرأي ومن ثمّ عين الامبراطور الاسقف كيروس بطريركاً للاسكندرية وانفذه اليها بكل انواع السلطة والقوة التي يمكنه استعمالها في اتمام الصلح الذي قرّ القرار عليه

فلما وصل كيروس الى الاسكندرية لم يجد صعوبة في اتمام مأموريته لان عامة الشعب القبطي والاكليروس قبلوا مبدأ الاتحاد هذا ما دام ان القول بمشيئة واحدة يؤيد اعتقادهم بطبيعة واحدة فلذلك اتحدوا مع الكنيسة الرومانية من هذا الوجه وقالوا بان هذه الكنيسة قد انضمت اليهم وصارت تذهب مذهبهم . وكذلك الاروام صادقوا على هذا الرأي الجديد وقبلوا المبدأ الذي وضعه الامبراطور بكل رضى وارتياح . الا انه قام في الاسكندرية رجل من اصدقاء يوحنا المحسن اسمه صفرونيوس كان مسموع الكلمة في الكنيسة الرومانية مشهوراً بعلمه وسعة اطلاعه وحاجج البطريرك وجادله وناقضه ورجاه ان لا يذيع هذا التعليم الجديد ولا يقول به مطلقاً لانه عبارة عن هرطقة وبدعة جديدة رسمها الامبراطور لهم . فلم يعبأ كيروس بهذا

التحذير والكلام بل صرف انظاره لاقناع البطريرك القبطي بقبول ذلك المشروع ولكن هذا البطريرك ابى البحث فيه وقال انه لا يقبل قراراً دينياً يصدره الامبراطور لانه ليس من خصائصه ولا من شأنه وضع الشرائع اللاهوتية · فاحتار كيروس في هذا الامر وعلم ان الصلح لا يفيد شيء ولا ينفع النفع السياسي المطلوب ان لم يصدق عليه البطريرك ويقبله ولذلك سعى في تنفيذ رأيه بالقوة والقهر فاصبحت حيوة وجاه الاقباط الذين عضدوا البطريرك في فكره مهددة بالخطر وعليه برحوا الاسكندرية حالا ولم يمكثوا فيها مطلقاً · وانتهى الامر بنفي البطريرك بنيامين الى دير حقير في مصر الوسطى (١) وكذلك صفرونيوس غادر مصر الى سوريا حيثما اختير فيما بعد بطريركاً لاورشليم

وقد سرّ هرقل بالنجاح الذي صادفه بطريركه كيروس فاخذ يستعد للذهاب الى اورشليم في السنة التالية لزيارة الاراضي المقدسة · ففي هذه الزيارة حدثت حوادث مهمة سيأتي ذكرها نخ منها فرض صوم دعوه « صوم هرقل » لا تزال الكنيسة القبطية وكنائس الشرق باسره تصومه سنوياً الى يومنا هذا (٢)

---

(١) زعموا ان البطريرك بنيامين تشجع في منفاه برؤية سماوية انبأته انه بعد مضي عشر سنوات يرسل الرب عوناً للمصريين يأتيهم من امة تمارس فريضة الختان كما يمارسونها هم (اي امة العرب او الاسلام) وان هذه الامة ترفع من على اعناقهم النير الروماني فلا يعودون يحملونه بعد

(٢) من غريب الامور انه لم يبق بمصر من مشروع الاتحاد الذي وضعه

وتفصيل ذلك ان هرقل كان قد منح يهود سوريا الامن والسلام بناء على ما قدموه له من الهدايا الفاخرة والعطايا الثمينة . ولكن عند ماجاء اورشليم للزيارة او للحج اندهش وذهل عند مارأى الخراب والدمار قد استوليا عليها من افعال اليهود اكثر مما فعله الفرس فيها وذلك لان جماعة اليهود افنوا كل ما وصلت اليه ايديهم في هذه المدينة المقدسة مما دلّ على شدة كراهتهم للديانة المسيحية . فلما قابل مسيحيو سوريا الامبراطور طلبوا منه ان ينتقم لهم من اليهود . قال المقريزي في هذا الصدد : — « وحينئذ افهم هرقل المسيحيين انه لا يستطيع التصريح لهم بذبح اليهود لانه وعدهم بالامان واقسم لهم ايماناً مغلظة بحفظ حياتهم فهو لا يمكنه الحنث في يمينه او تغيير وعده . فقام جماعة الرهبان والبطاركة والقسيسين يحاجون هرقل ويقنعونه بقولهم ان يمينه لا يعتبر سبباً في عدم ذبح اليهود ما داموا هم قد مكروا به واستعملوا خبثهم المعروف عنهم في انهم تحصلوا على وعد منه ثابت بحفظ حياتهم قبل ما يعرف حالتهم والاضرار التي الحقوها بالمسيحيين . وفضلاً عن ذلك فانهم يأخذون على عاتقهم التكفير عن حنثه في قسمه بان يصوموا هم وجميع المسيحيين اسبوعاً كل سنة على الدوام

فاقتنع هرقل بهذا الكلام وامر بالحملة على اليهود حملة يحمر لها جبين الانسانية خجلاً وحزناً اذ فني هؤلاء المساكين ولم يبق منهم احد في ولايات رومية ومصر وسوريا سوى الذين هربوا او اخفوا انفسهم في مغائر الجبال وكهوفه .

هرقل سوى صوم جنابه ولم تكن الكنيسة القبطية في حاجة اليه لكثرة صياماتها وصرامتها

ومن ذلك الحين ارسل بطريرك اورشليم واساقفته منشوراً الى جميع البلدان يؤكدون فيه على المسيحيين بصوم سبعة ايام كل سنة لا يزالون يدعونها اسبوع هرقل

ولقد اعيدت سلطة الرومانيين على مصر ولكنها كانت الى حين كما انها لم تعد بقوتها الاولى · فانه بعد ما طرد الفرس من مصر اكتفى الرومانيون بوضع حاميات عسكرية في الوجه البحري لم تتعدَّ جنودهم مديرية الفيوم جنوباً وظل الوجه القبلي يحكم نفسه بنفسه الى ان جاء ذلك الشخص الوهمي الذي يسمونه المقوقس ولم يمض زمن يذكر بعد هذا التاريخ حتى بزغ من صحارى جزيرة العرب عدو جديد مخيف ظهر ليحط المملكة الرومانية وينزل بها الى الحضيض · وهذا العدو الالدود هو الامة العربية التي قامت مدفوعة بقوة هائلة مفزعة هي قوة الدين الحديث الذي ظهر بينها · ومع ان محمداً واضع هذا الدين كان قد انتقل من هذا العالم الا ان خليفته عمر سار في فتوحاته سيراً سريعاً اذ استولى على اكثر بلاد المشرق ولم تجيء سنة ٦٤٠ (وليست سنة ٦٣٨ كما يزعم بعض المؤرخين) حتى انتهى قائدهم المغوار عمرو بن العاص من فتح سوريا اذ جعل وجهته مصر ذلك البلد الطيب الامين وبواسطة الحيلة والخديعة (١) تحصل عمرو على تصريح من الخليفة عمر بفتحها ففتحها ودوخها كما سيجيء

(١) لما ارسل عمرو بن العاص يسأل عمر بن الخطاب التصريح له بفتح مصر أجابه عمر الله اذا كان قد دخل حدود مصر عند وصول الجواب اليه فليتقدم ويحاربها والا فليعد ادراجه · قيل ان عمرواً ادرك ما في الجواب بواسطة من الوسائط وكان لم يطاء ارض مصر بعد فلم يفتحه وما قرأه الا بعد ان عسكر بجيشه في الاراضي المصرية

الفصل الثاني والثلاثون

الفتح الاسلامي

سنة ٦٤٠ للمسيح و٣٥٦ للشهداء و ١٨ للهجرة

لقد عرفنا في الذي مرّ انه عند ما شرع العرب يفتحون مصر كان المصريون في ضيق وضنك شديدين من الحكومة الرومانية الحديثة التي استردت البلاد من الفرس · وقبل هذا الفتح العربي بنحو عشر سنوات وضع أكثر ولاة مصر ايديهم على الجزية التي كانت تتقاضاها الحكومة الرومانية من هذه البلاد لان هاته الحكومة كانت قد بلغت من الضعف والوهن مبلغاً لا تستطيع معه جمع الاتاوة المضروبة على القطر المصري فاصبح اثنان او ثلاثة من حكام الاقاليم المصرية ملوكاً غير متوجين لانهم استقلوا في ادارة امور ولاياتهم عن سلطة الفرس والرومانيين على السواء حتى انه لما طرد هرقل الفرس ٦٣٠ واسترجع مصر لقبضة يده لم يمكنه مد سلطانه عليها كما تقتضيه شروط الدول المحتلة لانه كان عارفاً بضعف قوته وزعزعة اركان سطوته فظل ينتظر الفرص المناسبة التي فيها ينقاد المصريون الى مشروعه الديني الآنف ذكره فيستميلهم لجانبه بواسطة الدين و يرفع من بينهم الاختلاف المذهبي الذي كان السبب القوي في كل تلك القلاقل والاضطرابات · ولكن ولاة الاقاليم المصرية — وجلهم من الاقباط — كانوا يفزعون من الحكومة الرومانية ويخافون اليوم الذي فيه تعود سلطة هذه الحكومة وأثقالك في رقابهم

لاسباب شخصية وسياسية معاً فلذلك كانوا يسعون في تقليص ظلها وتقويض اركانهم بجميع مالديهم من وسائل القوة والنفوذ

ولو اتاح الحظ للحكومة الرومانية وقبل البطريرك المصري بنيامين ذلك المشروع الديني الذي وضعه الامبراطور وقال فيه ان للمسيح مشيئة واحدة بدل طبيعة واحدة لاصبح اولئك الحكام بلا قوة تذكر ولاستتب الامر للرومانيين في هذه البلاد الاسيفة · ولكن الامبراطور هرقل اعماه ذلك النجاح الضئيل الذي صادفه بطريكه كيروس في مصر من قبول فئة قليلة من الاقباط لمشروعه ولذا فلم يحسب هذا الامبراطور للبطريرك بنيامين ادنى حساب بل اضطهده واناطه ثم نفاه لانه رفض قبول مبدائه مما جعل خاصة المصريين واكثر عامتهم يقلدون بطريركهم ويرفضون كل قول لا يصادق عليه هو وهذا دليل على ان الاقباط من قديم الزمن يتعلقون ببطاركتهم ويسيرون خلفهم ولو كان بعض هؤلاء البطاركة لا يستحقون كل هذا التعلق والميل · ومن ذلك الحين جمد الرأي العام المصري الامبراطور ونفر منه نفوراً كبيراً وبداء كيروس يشعر بخطارة مركزه وبالفشل الذي اصابه في مشروعه ومشروع امبراطوره كما ان بعض الحكام الخائنين اتخذوا هذا النفور فرصة يتخلصون فيها من سلطة الرومانيين ويطرحون نيرهم من على اعناقهم ولكن ليس ليستقلوا بل ليلقوا بانفسهم الى التهلكة الكبرى

وكان اكثر هؤلاء الولاة خيانة لمصر واشنعهم ذنباً واقبحهم عذراً ولوماً هو ذلك الرجل الذي يعرفه معظم المصريين اشهرته بالدناءة والنذالة الا وهو

المقوقس الذي لا يزال الكثيرون يبحثون في ماهية اسمه ووظيفته وجنسيته بحثهم في ذلك الجبان الذي احرق هيكل ارطاميس لكي يذكر اسمه في صفحات التاريخ · ومن محاسن الصدف ان احد علماء اوربا اكتشف اوراقاً من البابيروس (البردي) فيها ما يزيح الستار عن هذا الموضوع الذي تضاربت فيه الظنون وتشعبت في حقيقته افكار المؤرخين جميعهم

ذلك ان معظم المؤرخين ذهبوا الى ان كلمة «المقوقس» لم تكن اسم علم ولكنها لقب او رتبة · والحقيقة ليست كذلك فان هذا الرجل الذي كان والياً في مصر اسمه الصحيح جرجس بن مينا بركوبوس (١) فهو مصري لاريب فيه · وكان ولاة مصر في ذلك العهد ملكيين (اي ليسوا عسكريين) تعهد اليهم ادارة الولايات في ما يختص بمسائل الضبط والامن العام والادارة وتحصيل الضرائب الاميرية ومراقبة الاشغال العمومية مثل السكك والجسور وحفر الترع وتطهيرها وتشييد الكباري والقناطر وصك النقود وتحديد المقاييس والمكاييل وضبطها · فلم يكن خارجاً عن سلطة الوالي سوى الجيش الذي كان له في كل مديرية حامية صغيرة قليلة العدد وجماعة الكهنة وهم اقوى من الوالي والجيش معاً · وقد عرفنا من هذا الاكتشاف الحديث الذي اشرنا اليه اسماء ثلاثة من مشاهير الولاة في مصر وحدود وظائفهم وهم الذين كانوا موجودين

---

(١) ان لفظة مينا كانت اسماً دارجاً في مصر لا بد له من لقب يميزه عن غيره · وكثيراً ما كان هذا اللقب مأخوذاً من اليونانية كما ترى في اسم ابي جرجس

في وقت الفتح الاسلامي سنذكرهم لك بالتفصيل الكافي في الذي يلي من الكلام بعد ان نشرح معنى كلمة « مقوقس » واصلها واشتقاقها

معلوم ان لغة الحكومة الرسمية في مصر كانت اللغة اليونانية وكان ولاة مصر يفخمون ويعظمون بواسطة كلمة يونانية تضاف في اوائل اسمائهم كما نستعمل نحن في العربي كلمة جناب او المحترم او سعادة . وهذه الكلمة الرومانية هي « مقوقس » ومعناها الافخم ظنها العرب جزءاً من اسم ذلك الخائن الذي سلم مصر لعمرو بن العاص فاقتضبوها واستعملوها ونقلوها للخلف وظل هذا الوغد الزنيم يسمى « بالافخم » الى ان ظهرت الحقيقة حديثاً وهو لقب بعيد عنه بعد جرجس من المروءة والشرف

اما وقد عرفت معنى المقوقس ومبناه فلنسرد لك حكاية اولئك الولاة الثلاثة واولهم آمون مينا والي الوجه البحري لا نعرف عنه سوى انه كان كثير الادعاء والخيلاء جاهلا متغطرساً يكره المصريين كرهه للموت او للشياطين ولذلك بقي في وظيفته بعد استيلاء العرب على مصر . وثانيهم كيروس حاكم مصر الوسطى او الجانب الغربي من النيل المحتوي على اقاليم الفشن والمنيا وبني سويف ولم يشتهر بشيء الا باهتمامه واجتهاده في تسليم مصر للمسلمين . وثالثهم جرجس الذي يدعونه المقوقس والي الوجه القبلي بما فيه بابليون (عند مصر القديمة) التي اتخذها قاعدة لولايته . وكان في كل من هذه الولايات الثلاث قائد عسكري يدير مهام حامية تحتلها من قبل الحكومة الرومانية . ثم وجد بعد ذلك نظام — ربما بعد دخول العرب مصر بقليل — قضى بتعيين حاكمين

اول سلطة من اولئك الثلاثة . وهذان الحاكمان هما فيلوكسنوس للفيوم وشنوده للبلاد الريفية

ومما لا يقبل الشك والتخمين ان ثلاثة من هؤلاء الولاة الخمسة كانوا مصريين كما يستدل على ذلك من اسمائهم المصرية وهم آمون مينا وجرجس مينا وشنوده ولكنهم لم يكونوا اعضاء في الكنيسة المصرية الوطنية التي تسمى الآن الكنيسة القبطية (١) بل هم كانوا تابعين للكنيسة الرومانية والا فلا يمكن تعينهم في هذه الوظائف . والذين قالوا ان جرجس المقوقس مصري فهم مصيبون في قولهم ولكنهم اخطأوا في نسبتهم اياه للكنيسة القبطية لان الرجل كان روماني المذهب لاشك في ذلك ولا ريب . اذاً فالمقوقس كان مصري الموطن ولكنه روماني المعتقد روماني الوظيفة وفي جميع احواله فهو خائن للامبراطور الروماني خائن لكنيسته الرومانية خائن لبلاده المصرية خائن لامته القبطية خائن لنفسه الدنيئة

وعند ما افتتح العرب مصر كان جرجس قد مضى عليه زمن طويل وهو في وظيفته مما جعله قوي الساعد نافذ الكلمة خصوصاً وانه كان مقيماً في بابليون

---

(١) معلوم ان المدائن المصرية القديمة كان لها اسمان احدهما مدني والآخر ديني مثل منفيس (جيزه) مثلا فان اسمها الديني هو (ها كابتا) حرّفه اليونان الى (اكوبتوس) واطلقوه على القطر المصري كله . فلما افتتح العرب مصر دعوها (اقبطا) ودعوا كل ساكن فيها (اقبطي) ثم تبدلت الكلمة على توالي الايام وصارت (قبطي وقبط)

آخر حدود ولايته من الشمال مما جعل رعيته تنظر اليه كأنه ملكها المط
لا يفوقه ملك او امبراطور لان فتح الفرس مصر وبطشهم فيها علم المصر
ان الرومانيين اضعف من حكم وان قوتهم تلاشت واضمحلت . ومع
الفرس برحوا هذه البلاد واحتلها بعدهم الرومانيون واقاموا حامياتهم وجنود
في بابليون وفي بني سويف والفيوم فلم يكن سكان الصعيد يهتمون بهم
يحسبون لوجودهم حساباً ولم يكونوا يعرفون اذا كانت هذه الجنود فارسية ا
رومانية لانهم لا يختلطون بهم ولا يسألون عنهم ما داموا يدفعون الضرائ
الى واليهم وهو وشأنه يتصرف فيها كما يشاء . وكانت هذه الخطة في تصريف
الجزية من ضمن الدواعي التي الجأت جرجس المقوقس الى خيانة وطنه لا
بعد ان ظل عدة سنين يستحوذ عليها ويبقيها لنفسه دون ان يدفع شيئاً من
للحكومة الرومانية جاءه هرقل يضايقه بطلب الجزية وتنفيذ اوامر السلط
الرومانية في البلاد التي استردها من الفرس . فلهذا السبب ولاسباب اخرى
سياسية ارسل المقوقس وفداً الى محمد زعيم المسلمين وزوده بهدايا من عسل
النحل وعدد عديد من العبيد والارقاء . ولكن لم يمر الزمن الذي فيه يضمن
المقوقس النجاح حتى مات محمد ورفع هرقل راية سلطته في مصر فخاف هذا
الخائن المائن واسقط في يده لانه اذا دبت الحياة في جسم المملكة الرومانية
وعادت قوتها تتجدد بعد الاحتضار وتغلبت على العرب كما قهرت الفرس فلا
ريب في ان قصاص المقوقس يكون مثل ذنبه مريعاً هائلا . وحدث في ذلك
الوقت ان جيش هرقل اشتبك مع العرب في معركة كبرى بفلسطين فصار

جرجس يترقب اخبار هذه الحرب علماً منه ان مصر تأول لمن يخدمه السعد ويحوز النصر من الطرفين · ومن مميزات المقوقس انه كان ذا وجهين يتلون كالحرباء ويتقلب كيف شاء ولسان حاله يقول « انا مع الغالب » · فانه لما انتصر هرقل على العرب في موقعة عند فلسطين ظن جرجس ان النصر سيكون حليفاً لهذا الامبراطور ولذلك سعى في التقرب اليه والتملق له عساه يتناسى عدوانه وطمعه فدبر الطريقة الاتية هي انه كانت له ابنة بارعة في الجمال اسمها ارمانوسة فخطر على باله ان يزوجها بقسطنطين ابن هرقل الاكبر ووريثه وامهرها بصداق وفير جعل هذا الامير الذي كان حاكماً في قيصرية ان يقبل طلب جرجس ويتنازل عن المتأخرات الباقية عليه من ضرائب مصر التي لم يدفعها للخزينة الامبراطورية · ففي سنة ٦٣٩ سارت هذه العروس المصرية من بابيلون بابهة الملكات وفخفخة جداتها المصريات يحف بها جيش جرار ويمشي في ركابها امراء واقيال حتى بلغ مقدار الفرسان الذين كانوا في موكب زفافها الفا فارس او يزيدون عدا عن العبيد والهدايا النفيسة والعطايا الفاخرة التي تليق بعروس مصرية لعريس رومانى

ولكن عند ما وصلت هذه الآنسة الحسناء الى حدود مصر وكادت تعبر القنطرة (عند الاسمعيلية) الى العريش بلغها ان الغلبة كانت حليفة للعرب الذين شددوا الحصار على قيصرية وهم يستعدون للهجوم على مصر · فلما طرق هذا الخبر آذان سليلة رعمسيس وابنة فرعون وكريمة اولئك الاجداد الكرام الذين دوخوا العالم واجتاحوه قبل ان يوجد العرب طرحت حلى

العرس وزينة الفرح وتقلدت السيف بدل الوشاح ولبست الدروع بدل الدمالج وتمنطقت بعدات الهلاك بدل احزمة الذهب المرصعة باللآلي ونزلت من مركبتها وامتطت متن جواد اشهب وقالت للذين يسيرون معها ان هيا نخضب ايدينا بدماء الاعداء بدل خضاب الاوانس ونشرب بجماجمهم عوضاً عن شربنا بكاسات الذهب وطاسات الابريز . تعالوا نشنف آذاننا بصلصلة السيوف وصليل الخيل بدل وقع الدف ورنة العود . سيروا بنا نحو الاعادي وهناك اذا وقعت العين على العين وحمي وطيس الحرب وعلا سعير الطعن والضرب وتقابلت مع الفرسان تجدوني اردد ما قاله عنترتهم الاسود وانا فتاة بيضاء بضاء وغادة هيفاء غضة :—

اذا كشف الزمان لك القناعا ومدَّ اليك صرف الدهر باعا
فلا تخشَ المنية والتقيها ودافع ما استطعت لها دفاعا
ولا تختر فراشاً من حرير ولا تبكِ المنازل والبقاعا

وحينئذ كرَّت ارمانوسة راجعة الى بلبيس في نفر من رجالها واخذت تستعد للدفاع وصد هجمات الاعداء المغيرين ثم ارسلت باقي الجنود التي كانت تسير في حراستها الى جهة الاسمعيلية اذ ظنت ان العرب قد يجيئون من هنالك . وبعد ان استكملت جميع هذه المعدَّات للذب عن بيضة وطنها ارسلت واخطرت اباها بالخبر وظلت هي في بلبيس تدور على السكان مشجعة اياهم للمدافعة ضد اعداء دينهم واعداء امتهم

وبعد قليل هجم عمرو بن العاص على الاسمعيلية واخذها ثم تقدَّم على

بلبيس وحاصرها ولكن ارمانوسة وقفت في وجه قوّاته مدة شهر من الزمان وفي تدفعهم وتصدهم وتخترق صفوفهم وتفل جموعهم وتشتت شملهم وبقيت على هذه الحالة وهي تشهد الموقعة بعد الاخرى وتبلي في الاعداء بلاءً حسناً حتى يئس عمرو من الانتصار وضجر من هذه الباسلة القوية فاغار على بلبيس دفعة واحدة خسر فيها خسارة كبرى ولكنه تغلب عليها لان جيش ارمانوسة لم يكن جيشاً منظماً مدرَّباً بل كان جماعة من الفلاحين جمعتهم للقتال والنزال . وبعد ان دخل عمرو بلبيس وقعت ارمانوسة اسيرة في يده ولكنه ارسلها الى ابيها بكل احترام وتبجيل اما الانه أعجب بشجاعتها وبسالتها او لانه خاف ان يؤذيها فيسيء الى والدها صديقه الحميم الذي ثبت لديه الآن ان العرب هم الذين سوف يأخذون مصر بلا محالة

ولما وصلت ارمانوسة الى ابيها سألها عما فعلت فاجابته :—

اقمت بالذوابل سوق حرب ... وصيرت النفوس لها متاعا
حصاني كان دلال المنايا ... فخاض غبارها وشرا وباعا
وسيفي كان في الهيجاء طبيباً ... يداوي رأس من يشكوا الصداعا
اذا الابطال فرّت خوف بأسي ... ترى الاقطار باعاً او ذراعا

فكظم ابوها غيظه منها لانها قاومت الذين تعاهد معهم على ان يعطيهم وطنه لقمة باردة بدون حرب او عناء ولم يستطع توبيخها او تعنيفها لانه كان لا يزال تحت سلطة الرومانيين ولم تصر مصر بعد الى ايدي هؤلاء الفاتحين المغيرين خصوصاً وان بابليون كانت محصنة منيعة لا يمكن اخذها الا

بالمكر والخديعة · وربما يذكر القراء ان النيل كان قريباً من بابيلون ومصر القديمة اكثر من الوقت الحاضر وكانت بابيلون متصلة مع منيل الروضة بواسطة كوبري من المراكب وضعها الرومانيون وقت شبوب الحرب كما انهم اوصلوا الروضة بالجيزة بهذه القوارب لكي تكون القوات العسكرية متلاصقة متلاحمة مع بعضها فلا يستطيع العدو قطع خط الرجعة عنها · اما غرض جرجس المقوقس في هذا الوقت فكان مساعدة عمرو على اخذ بابيلون مساعدة سرية لانه كان يتظاهر بنجدة مولاه الامبراطور والميل لقائد الحملة الرومانية وتعضيده

وعندما بلغ هرقل اغارة العرب على مصر وكان عارفاً بضعف مركزه فيها وعدم ميل سكانها له ارسل مندوبه الخصوصي اعني به البطريرك كيروس ليتفاوض مع عمرو على الانسحاب من هذه البلاد على شرط ان يدفع له هرقل مبلغاً معلوماً من المال · وكان وصول كيروس الى مصر في الوقت الذي ضرب عمرو فيه خيامه على مقربة من بابيلون وحاصرها ذلك الحصار المشهور الذي لم يكن يفيد في اخذ هذه القلعة المنيعة لولا الغدر والخيانة · فلما جاء كيروس الى عمرو لم يخبره بما قاله له الامبراطور من امر المال فقط بل زاد من عنده انه اذا غادر العرب مصر فهو يزوج ايدوشيا ابنة الامبراطور او احدى الاميرات بالخليفة عمر · فلم يقبل عمرو هذا الشرط مادام هو قد اتفق مع الوالي جرجس الذي يعتبر عنده اكثر مقدرة وأنفع من هذا البطريرك كيروس الذي ساء هرقل ما عرضه من

امر زواج ابنته برجل مسلم واستدعاه الى القسطنطينية ووبخه توبيخاً صارماً وكان عازماً على قطع رأسه لاجل خئنه وتمريضه بعرضه لولا انه ابقاه ليوم ما ... يوم حصار الاسكندرية عساه يفيد في تشجيع سكانها الرومانيين بماله من المكانة والنفوذ عندهم

وقد دام حصار بابليون سبعة شهور كاملة ارسل عمرو في اثنائها يطلب مدداً من الخليفة عمر فلما وصلته الامدادات سيرها سراً الى الفيوم وقصده بذلك ان يقطع المدد الذي يجيء من عند الامبراطور لمساعدة الحامية الموجودة هنالك · كذا ثيودوسيوس واناستاسيوس قائدا الجيش في الوجه البحري حفظا خط الرجعة بينها وبين حامية بابليون مما زاد في قوة هذه المدينة منعة وبطشاً ورأى العرب انهم لا يقدرون على مهاجمة هذا الجيش الروماني من جهة النيل فرجعوا القهقرى واخذوا يسلبون اغناماً ومعيزاً ليقتاتوا بها عند اشتداد الجوع عليهم كما هي عادتهم في كل زمان ومكان · وقد سارت الى الفيوم فرقة من الجند الروماني تحت امرة قائد اسمه ايونيوس اشتهر بغلاظة جسمه وغلاظة عقله وبلادته وجهله للفنون الحربية · فلما وصل بجنابه الفيوم وجد نار الحرب مستعرة بين قائدها والمسلمين فترك نصف الجنود التي معه لمساعدة هذا القائد اما هو فكر راجعاً بالنصف الثاني ليخبر رؤساءه بما رأى وقد ظن في عمله هذا منتهى الشجاعة لانه وطأ ارض الفيوم وعاد منها سالماً غانماً دون ان يجرد سيفاً

وقد ظل عمرو سبعة اشهر يهاجم بابليون ويغير عليها بكل قواته وهو

يحاول افتتاحها ولكنه لم يفلح بل عاد بالخيبة والفشل فدبر طريقة اخرى هي انه قسم جيشه الى ثلاث فرق وضع الاولى في عين شمس ليمنع الاسعاف الذي يأتي للرومانيين من الشمال ووضع الفرقة الثانية خلف بابيلون من جهة الشمال الشرقي وعسكر بالثالثة في قلعة كانت واقعة على شاطيء النيل جنوب غربي بابيلون لم يبق منها الآن اثر يعرف

اما الاقباط فكانوا ينظرون الى تعارك هاتين الدولتين الاجنبيتين نظر الحائر الذاهل . ذلك ان بغضهم للرومانيين وذكرهم لقبائحهم منعهم من الانحياز الى جانبهم ولم تسمح لهم ضمائرهم ايضاً بتعضيد قوم يدينون بغير دينهم وكأنهم شعروا بانهم سيعذبونهم ويضطهدونهم فتركوا تدبير هذا الامر للعناية ولم يمدوا يداً لاحد وكان مثلهم في ذلك مثل غلام قاصر رأى رجلين يتخانقان ويتقاتلان على ميراثه فلم يشأ مساعدة احدهما لكراهته لهذا وخوفه من ذاك

وقد اتفق جماعة المؤرخين على ان بابيلون سقطت في ايدي المسلمين بواسطة الخديعة والحيلة ولم يأخذوها بحرب وضرب ولا احتلوها بتسليم من الرومانيين تحت شروط مقررة . وقد شرح بعض الكتاب هذا الاجمال فقال ان جرجس المقوقس اقنع قائد الجيوش الرومانية بالانسحاب من قلعة بابيلون الى منيل الروضة فجاء العرب حينئذ بناء على اشارة من جرجس واحتلوا هذه القلعة . اما كون جرجس كان ممالئاً للعرب متحداً معهم متفقاً على اخطارهم بجميع حركات وسكنات الجيش الروماني فهذا امر لا نجادل فيه لانه صحيح

ثابت · ولكن الذي يمعن نظره برهة في ساحة القتال ويتدبر مواقع الجيش واهمية مراكزه يصعب عليه تصديق ان القائد الروماني ينخدع انخداع جاهل غر لدرجة انه يظن ان جزيرة الروضة امنع وامتن من قلعة بابيلون كما ان الشواهد والبينات التاريخية تدل على ان الجندي الروماني كان من اكثر جنود الارض امانة لدولته وحباً لوطنه فلا يرضى بالسير خلف الخائنين واتباع رأي الماكرين والتغرير بوطنه وشرفه مما يعد من افعال الجبناء المرذولين · اذاً ففي الامر وجه آخر ذكره يوحنا النيقاوي نسرده لك هنا عساه يكون اقرب الى العقل واكثر الآراء صواباً وصحة

قال هذا المؤرخ المدقق ان عمرواً عمد الى خدعة — والحرب خدعة — نجح فيها هي انه تقهقر كما يتقهقر المغلوب حتى يجر الجيش الروماني وراءه ويخرجه من قلعة بابيلون · فكان من حسن حظه وسوء بخت مصر ان الرومانيين انخدعوا وظنوا انهم هزموا الاعداء فتركوا قلعتهم وجدوا في اثرهم وحينئذ برزت فرقة من فرق العرب الثلاث التي ذكرناها آنفاً وقطعت على الرومانيين خط الرجعة واحاطت بجيشهم احاطة السوار بالمعصم فوقعت بين الجيشين معركة شعواء سوداء اظهر فيها الجيش الروماني منتهى البسالة والشجاعة وقاتل الاعداء قتال المستبسل المستميت وخرقت ثلة منه صفوف العرب وهي تفتح طريقها بحد الصارم البتار الى ان وصلت جزيرة الروضة ومنها ولت الادبار · ولم يبق في قلعة بابيلون سوى ٣٠٠ مقاتل فقط الذين لما ابصروا ما حلّ باخوانهم كمنوا في مخابئ القلعة وظلوا يقاومون جيش العرب الجرار

برهة من الزمن الى ان اعيتهم الحيلة وهمدت قواهم ورأوا حرج مركزهم وضيق موقفهم فاتفقوا مع العرب ان يسلموهم القلعة ويكفوا عن القتال على شرط ان لا يصيبهم مكروه وان يلحقوا بباقي الجيش المتقهقر عند الروضة

وكل من تصفح التاريخ يعرف ان جرجس المقوقس كان قبل وقوع البلاد في قبضة المسلمين قد اشترط مع عمرو شروطاً تختص بجميع سكان مصر من غير الرومانيين . ومن ضمن هذه الشروط شرطاً يخول للاقباط الحرية الدينية المطلقة اذا هم دفعوا جزية ولم يقاوموا العرب في احتلالهم مصر . وقد اقسم عمرو الايمان المغلظة بتنفيذ هذا الوعد مع المصريين على السواء

وقد اشغلتنا شروط عمرو ووعوده عن صاحبنا دومنتيانوس قائد الجيش الروماني في الفيوم ولم نعرف ما تم له فلنعد الآن الى حكايته وهي ان جنابه لما بلغه خبر سقوط بابيلون ترك مدينة الفيوم وتقهقر منها هو وكل جنوده ولكن « بانتظام » واخلى هذه المديرية الى العرب راضياً من الحرب بسلامة رأسه دون يجرد في وجه الاعداء حساماً او يسفك في سبيل الدفاع عن مركزه نقطة دم بل عبر هو وجنوده نهر النيل شمالي الجيزة وسار يجد الخطى الى الاسكندرية ولم يرض الانضمام الى بقية الجيش الروماني الذي كان يسير الى نيقيوس (هي الآن ابشادي بمركز تلا منوفية كما ذكرنا) حيث يقف في وجه العرب و ينازلهم معركة فاصلة . ولكن عمرواً لم يسمح للجيش الروماني باتمام هذا التدبير فانه صبر حتى بداء هذا الجيش في المسير الى الشمال ثم تبعه بفرقة من جيشه يقضي عليه القضاء الاخير فالتقى في طريقه بدومنتيانوس وجيشه الذي فرّ

من الفيوم ولكنه لم يلق منه مقاومة لان دومنتيانوس لما بلغه خبر اقتراب العرب منه ترك جنوده ونزل في قارب صغير ابحر به الى الاسكندرية فلم يتأخر الجنود عن اقتفاء اثره فطرحوا اسلحتهم وعددهم على شاطئ النهر وانحدروا الى السفن يبغون الهرب فاضطرب البحارة منهم وخافوا وولوا الادبار ولجأوا الى قراهم خائفين وجلين وحينئذ وقع هؤلاء الجنود المساكين في ايدي العرب الذين احاطوا بهم وذبحوهم ذبح الاغنام وسالت دماؤهم في النيل فلونت ماءه بلون احمر قان ولم ينج من هذه الكتيبة الا جندي واحد اسمه زخاري فر مقتحماً الاهوال وقص هذا الخبر المريع على أولي امره

اما باقي الجنود الرومانية التي كانت في بابيلون وهزمت فانها لما التقى بها عمرو اتت عملاً يسطر لها بكل ثناء واعجاب في بطون التواريخ مع كونها كانت قليلة العدد لا يزيد رجالها عن مائة عداً اذ وقفت ثلاثة اسابيع كاملة في وجه عدو شديد البطش كثير المدد والعدد اكثر رجاله يحاربون فوق متون الجياد الصافنات كما ان اكثر الاهالي لم يمدوا يداً لتعضيد هذه الفئة الباسلة بل اظهروا لها كرهاً وبغضاً لانها من الرومانيين الذين ينفر من ذكرهم المصريون ويستعيذون بالله من اعمالهم التي اوجبت كل هذا الشر وجرّت على مصر البلاء المرّ . كذا الجيش المستحفظ اوهم العساكر الغير منظمة الذين جمعهم الرومانيون من المصريين لم يحاربوا العرب ولم يرفعوا في وجههم سلاحاً لانهم كانوا مثل باقي اخوانهم الاقباط لا يعرفون عن هؤلاء المسلمين الا انهم قوم يمتازون عن الرومانيين بعدلهم وانصافهم

وانهم امة تمارس فريضة الختان مثل مسيحيي مصر وتؤمن بالله واحد وتنادي بدين جديد تقول انه دين الحق والاصلاح . هذا كل الذي عرفه الاقباط عن المسلمين عند افتتاحهم لمصر ولذلك رحبوا بهم وفرحوا بقدومهم ولكن هذا الفرح لم يكمل لانه بعد مضى ستة شهور فقط على دخول العرب مصر ندم الاقباط على غلطة شنيعة ارتكبوها في مساعدتهم العرب على احتلال مصر وعضوا نواجذهم اسفاً وحزناً لانهم ارادوا التخلص من ظالمين فوقعوا في حبائل قوم اكثر ظلماً من اولئك واشد طغياناً ووحشية من الاولين والاخرين

وقد بقى الرومانيون يحاربون ويقاومون وهم يتقهقرون ويتاخرون والاقباط ينظرون اليهم شذراً ويسخرون الى ان وصل هذا الجيش الروماني الى بلدة الكريون (بمركز كفر الدوار بحيرة) على مسيرة عشرين ميلا من الاسكندرية وسيف العدو يعمل في رجاله عمل النار في الهشيم ولكنهم لم يعمدوا الى الفرار ولم تخرمنهم العزائم فيسلموا او يستسلموا بل هم شددوا قوائمهم عندما وصلوا الى الكريون وحاربوا حرباً تشيب من هولها نواصي الولدان وكان الانهزام حليفهم فساروا الى الاسكندرية حيث اخذوا يستعدون للدفاع عنها بقدر ما تصل اليه طاقتهم وقوتهم

ولنعد الآن الى مصر مرسح هذه الرواية المحزنة او هي ملعب الشيطان كما سماها يوحنا النيقاوي فنقول والاسف ملء القلوب ان المسلمين انتشروا في الوجه البحري كما ينتشر الجراد في مزرعة خضراء واخذوا يسلبون وينهبون

ويحرقون ويهتكون الاعراض ويغمدون السيوف في الرقاب فلم يقف في وجوههم العبوسة سوى اثنين من اشراف الاقباط هما مينا وقزمان جمعا حولهما جماعة غير مدرَّبة على القتال وشنا الغارة على كل اجنبي معتدٍ سواء كان رومانياً او مسلماً فكفا عدوان المعتدين قليلاً ولو انهما كانا بدون مسعدة او نجدة من الخارج . وفي ذلك الوقت وصل عمرو الى الاسكندرية واخذ يجمع جيشه كلهُ حول اسوارها بعد ان ترك حامية قوية في بابليون واخذ الجزء الاكبر من جنوده الى الشمال قاصداً الاسكندرية وعند مسيره الى هذه المدينة اجتاح بلدة نيقيوس (ابشادي) واعمل السيوف في اعناق سكانها مع انهم لم يبدوا مقاومة وماجرَّدوا سلاحاً فقتل كل من وقعت عينه عليه سواء في الشوارع العمومية او في الكنائس ولم يترك رجلاً ولا امرأة صبياً او شيخاً الا واورده حتفه وصير هذه المدينة قاعاً صفصفاً (١)

(١) يحكى انه لما نوى عمرو على المسير الى الاسكندرية وامر بنقل خيام الجنود من مكانها جاءه بعضهم واخبره ان يمامتين بنتا لهما عشاً فوق سقف خيمته وباضتا فيه وافرختا ولكن فراخهما لم يريشا بعد وما يمكنها الطيران . قيل ان عمرواً اصدر امره بعدم ازعاج اليمامتين وترك خيمته في مكانها الى ان عاد من الاسكندرية (وهكذا يرى صغار العقول وقصار النظر في عمل عمرو هذا مرحمة وانصافاً ويباهون بهذه الشفقة على يمامتين لا تساويان فلساً ولكنهم لا يذكرون تلك القسوة والوحشية التي ارتكبها هذا العادل المنصف في ذات اليوم او بعده بقليل اذا اهلك بلدة آمنة (ابشادي) وافنى سكانها بحد الحسام وهم لم يجنوا ذنباً وما أتوا امراً يستحقون عليه كل هذه الخشونة والفظاعة بل هم اولى من اليمام في اظهار

وعندما علم الامبراطور هرقل بتقدم المسلمين على الاسكندرية اسرع فارسل البطريرك كيروس اليها ليبذل جهده في الدفاع عنها وصد هجمات المغيرين عليها · وكان قد اجتمع داخل اسوار الاسكندرية جميع الجيش الروماني في مصر وكل الرومانيين المستوطنين القطر المصري هجروا منازلهم وربوعهم والجأوا الى الاسكندرية ليحتموا فيها مع ان هذه المدينة كان قد مزّق احشاءها عامل الشقاق الداخلي الناتج عن التعصبات المذهبية وحب الرئاسة والسلطة فلم يكن يمكن ايجاد اتحاد وائتلاف بين ساكنيها حتى في ساعة الضيق ووجود عدو اجنبي يتهددها بالخراب والدمار ولذلك فكان المحتمي بها كالغريق الذي يتمسك بخيوط العنكبوت لينجو من لجة اليم

ولم يكن في الاسكندرية وقتئذ من القوّاد الرومانيين سوى تاودروس القائد العام ودومنتيانوس النذل الجبان الذي كان عدوّاً لدوداً للبطريرك كيروس صهره ولاثنين من ارباب الحيثيات والنفوذ احدهما مصري هومينا والآخر يوناني اسمه فيليادس شقيق البطريرك الروماني السابق · فساء القائد تاودروس هذا العداء والشحناء في وقت الضيق والنكد وحنق من تصرّف دومنتيانوس الممقوت ولم يظاهره على اخصامه حتى على مينا المصري ·

الشفقة والانعطاف · والذي يدقق في ما يلي من الوقائع يجد ان هؤلاء الفاتحين كانوا (يصفون عن البعوضة ويبتلعون الجمل) اوهم يظهرون العدل والرحمة في المسائل الصغيرة التافهة ولكنهم يأتون منتهى القسوة والجبروت الطبيعي اذا عنَّ لهم اهلاك بلدة او ابادة امة ولو بدون سبب)

فرد هذا الوغد المهان وغضب وجند جماعة من الحزب الازرق في الاسكندرية (الرومانيون) ليس ليقاتل المسلمين ولكن ليحارب مينا الذي لم يرضَ بالذل بل اصبب خصمه الشر وجمع تحت لوائه جميع انصار الحزب الاخضر (المصريون) وما تم اليوم حتى قام الحزبان يناز لان بعضهما و يتقاتلان في شوارع الاسكندرية بينما كان العرب يحاصرون هذه المدينة ويضيقون عليها الخناق وذلك في خريف سنة ٦٤٠ . فلما راى تاودروس ان العدو واقف على الباب بذل جهده وقاسى كل صعوبة وعناء الى ان فض هذا الخلاف بين الحزبين ثم جرّد دومنتيانوس من وظيفته ورتبته

ومع ان المؤونة والذخيرة و باقي مواد المدد كان يتعذّر وصولها للاسكندرية من طريق البر الا ان البحر كان طريقاً اميناً لها اذ جاءها منه ما جعلها تقوى على حصار المسلمين مدة سنة كاملة ولو ان الضعف الداخلي الناشيء عن الانقسامات انهك قواها واضاع مزيتها . وقد اصبح ساكنوها يترقبون مجيء المسعدة والنجدة من القسطنطينية ولكن الحكومة الرومانية فيها كانت قد بلغت من الاختباط والارتباك مبلغاً لا يساعدها على ارسال نجدة لاسترداد مصر تكلفها من المصاريف والمتاعب مالا قبل لها به . وهذا الارتباك نتج من امرين اولها ان هرقل مرض مرضاً عضالاً قضى على حياته في شهر فبراير سنة ٦٤١ . والثاني ان هذا الامبراطور كان قد اقترن بابنة اخيه مرتينه قراناً تعتبره الكنيسة فحشاً وزنى خصوصاً وانها ولدت له ولداً قصد هرقل ان يقاسمه السلطنة مع ابنه الاكبر قسطنطين الذي كان واهي القوى

واهن العزيمة . فلما وقفت الكنيسة على مشروع هرقل هذا صرفت همها الى مقاومته ونسيت كل امر غيره . وعند ما بلغ تاودروس القائد خبر وفاة هرقل انتحم واستولى عليه اليأس لانه لم يكن يرجى نفعاً من خلفه . ثم ان مينا ودومنتيانوس والبطريرك كيروس اتفقوا على مهادنة المسلمين وعقد صلح معهم فلم يقوَ تاودروس على رد اتفاقهم هذا الذي كان قد سرى بين وجهاء الاسكندرية فاصبحوا يتحدثون بالتسليم للعرب وتقرير مواد الخضوع لهم خضوعاً كاملاً

ومعلوم عند الذين يقولون بالسعد والنحس ان الزمن اذا جار على امة اعمى بصيرتها عن كل شيء يكون فيه تقدمها ونجاحها . ودليل هذا المبدأ ان الرومانيين في الاسكندرية ساق لهم القدر بختاً ولكن النحس الذي استحكمت حلقاته اغمض ابصارهم عن هذا البخت المليح ففر من ايديهم . وتفصيل ذلك ان موقعة كبرى حدثت بين الروم والعرب عند ابواب الاسكندرية أخذ فيها عمرو واحد قواد جيشه ومعتوقه اسرى وجيء بهم امام تاودروس الذي حادثهم وتكلم معهم طويلاً دون ان يعرف شيئاً عن رتبهم ووظائفهم . فحدث في اثناء الحديث ان فرطت من عمرو بادرة كادت تكشف سره وتظهر امره لولا ان معتوقه تنبه لذلك وصفع عمرواً على وجهه قائلاً له ان يسكت ولا يفوه بكلمة امام اسياده لانه من معاشر الجنود الاصاغر . ثم تقدم القائد الذي كان مع عمرو واتم الحيلة على تاودروس وكيروس بقوله انه سيعرض امر هدنة المدنة على كبيرهم عمرو عند رجوعهم اليه . وبهذه الخدعة لم يشعر الاسكندريون

بان عمرواً وقع في ايديهم الا بعد عودته لمعسكره اذ ضج الجند وكبر بسلامته من الخطر ونجاته من الاسر فحينئذ فهم اولئك المساكين انهم اضاعوا فرصة ثمينة استعاضوها بقول ليت • وهل تنفع شيئاً ليت »

ولم يكف الروم عن مقاومة المسلمين وقتالهم حتى اوشكوا ان يبعدوهم عن الاسكندرية ويردوهم على اعقابهم خصوصاً ان قائدهم عمرواً لم يكن على علم تام باساليب القتال في مثل هذا الحصار بل هو كان يقتحم المواقع بطريقة يقول رجال الحرب انها لا تضمن الغلبة لو لا ان السعد خدمه والهلع تمكن من افئدة خصومه الذين لم يجدوا مندوحة عن ابطال الحرب وتفويض كيروس بالمفاوضة مع عمرو في ما يختص بشروط الصلح والتسليم وانسحاب الجيش الروماني من ارض الفراعنة

والذي يراجع معاهدة الصلح التي ذكرها يوحنا في تاريخه يجدها ملائمة مناسبة • فان الرومانيين منحوا احدى عشر شهراً هدنة فيها يستطيع كل روماني مبارحة مصر اذا شاء على شرط ان يدفع الرومانيون للمسلمين مبلغاً وافراً من المال فدية لهم • اما الذين يبغون الاقامة في مصر فعليهم ان يدفعوا جزية اسوة بالمصريين حتى يتمتعوا بالحرية نظيرهم • ثم ان الجيش الروماني يغادر مصر في مدة معلومة وله ان يأخذ معه معداته واسلحته على شرط ان لا يعود ويدخل هذه البلاد في الحرب او في السلم • وقد اخذ المسلمون رهينة لحين اتمام هذه الشروط مائة رجل — خمسين من ضباط الجيش وخمسين من وجهاء الرومانيين

وقد تعهد المسلمون في مقابلة ذلك ان يتبعوا مع الاروام ذات الخطة التي وعدوا الاقباط باتباعها وهي ان لا يغتصبوا كنيسة من كنائسهم ولا يتداخلوا في امور دينهم . ومما يدل على مكر هؤلاء العرب انهم صرحوا لليهود بالاقامة في الاسكندرية واعطوهم تمام الحرية وذلك لان اليهود جمعوا الجزء الاكبر من المال الذي دفعته مصر حينئذ للمسلمين

فلما اتفق كيروس مع عمرو على هذه النصوص والقيود عاد الى الاسكندرية وطرحها على تاودروس واكابر المدينة على اختلاف اجناسهم ونزعاتهم فتوقف بعضهم عن قبولها واختلفوا فيما بينهم اختلافهم في كل امر ولذلك ارتأوا ان ينفذوا رسولاً الى القسطنطينية يسأل الامبراطور قسطنطين رأيه فيها ويطلب منه التصديق عليها اذا شاء ان يقبلها . وقبل ان يبت الرومانيون الحكم في هذا الامر الجلل تسرع عمرو ودخل الاسكندرية مع جنوده كلها ليأخذ الفدية التي تقرر دفعها عن الرومانيين مع ان الشروط لم تعتبر نهائية بعد . فذعر الاهالي من هذه المفاجأة وقاموا في وجه المسلمين يقاومونهم و يكافحون ولكن القائد الروماني تدارك الامر وسار في كتيبة من جيشه يهدئ روع العامة و يسكن جأشهم قائلاً لهم ان الصلح قد تم على يد البطريرك كيروس . فعندما سمع السكان ذلك تحول هياجهم وغضبهم الى كيروس وداروا يبحثون عنه ليقتلوه فلم يمكث هذا البطريرك حتى يجدوه بل خرج لمقابلتهم بقلب جسور وقدم ثابتة مما جعل هؤلاء القوم المزبدين الهائجين يقفون صامتين كأن على رؤوسهم الطير ليسمعوا مايلقيه عليهم كيروس

بدل ان ينقضوا عليه ويمزقوه · ثم خطب فيهم خطاباً مؤثراً غير شعورهم وحرك عواطفهم حتى انهم انصرفوا من امامه الى بيوتهم وجاؤا له بكل ما عندهم من ذهب وفضة ليدفعها في الفدية المطلوبة من الرومانيين (وهكذا عرف المصري ببساطه وسذاجته لدرجة يقول عنها علماء الاخلاق انها افقدته استقلاله ومجده لانه يتأثر من لا شيء وان تأثره لا يبق معه طويلاً ولا يعمل في قلبه الا عملاً وقتياً)

وعلى هذه الصورة المحزنة وضعت مصر على عنقها بيدها النير الاسلامي من بدء شهر ديسمبر سنة ٦٤١ ولم تقدر ترفعه لحد يومنا هذا سواء كان المسلمون الذين يحكمونها من العرب او الشراكسة او الاتراك الذين قضوا جميعهم على علومها وصنائعها وفنونها وتمدنها وديانتها بل قضوا ايضاً على حياتها قضاء لا تقوم لها قائمة من بعده · واذا اردت ان تعرف مقدار ما اصابها الآن من الهول والويل والنكد والبلاء من ثقل هذا النير فاعلم انه لا يوجد بين سكان مصر الذين يبلغون التسعة ملايين من الانفس سوى سبعمائة الف شخص قبطي لا شك ولا ريب في انهم وحدهم سلالة اولئك المصريين القدماء الذين ابقتهم العناية الالهية شهوداً على ما اصاب الديانة المسيحية في هذه البلاد مدة تسعة عشر قرناً من اضطهاد يهول وعذاب شرحه يطول

الفصل الثالث والثلاثون

المسلمون في مصر

سنة ٦٤٢ للمسيح و٣٥٨ للشهداء و ٢٠ للهجرة

مرت اكثر من حياة مصر وهي تخرج من تحت حكم دولة لتدخل تحت سلطة دولة اخرى وتدين حكومتها بدينها الى ان تجيء امة جديدة بدين جديد فتتمسك به . ولا يوجد قطر في اقطار العالم مثل مصر في غرائب امورها وعجائب حكوماتها واختلاف اديانها وتشعب شعوبها وتبلبل الالسنة فيها . فاقرأ وتأمل

قبل التاريخ المسيحي بثلاثين سنة طرحت مصر حكم البطالسة ودخلت تحت ظل الحكومة الرومانية . وفي سنة ٦٤٢ ب . م ظهر فيها خليع خائن ماكر — هو المقوقس — سلمها الى ايدي العرب ومنهم للشراكسة ثم للاتراك وهلم جرا

على ان تقلب الاديان فيها يماثل تعدد الامم التي حكمتها او يزيد . فانه لغاية سنة ٣٢٣ كانت ديانة الحكومة المصرية الديانة الوثنية ومن سنة ٣٤٠ الى ٣٨٠ المذهب الاريوسي ومن بعد سنة ٤٥١ لحد الفتح الاسلامي المذهب الخلكيدوني الذي لم تقبله الكنيسة القبطية ولم تصادق الا على قوانين المجمع النيقاوي فهي لذلك ظلت محافظة على مبادئها الاساسية لا تعرف رئيساً لها غير بابا الاسكندرية ولا تذهب مذهباً سوى ما وضعه لها الآباء والاجداد .

ومذ ما افتتح المسلمون مصر اصبحت ديانة الحكومة الدين الاسلامي الذي مد

سطوته عنوة واقتداراً على معظم الامة المصرية الحالية . ولكن مهلاً فانه لا يزال يوجد – ليس سبعة آلاف ركبة فقط لم تجث للبعل (*) – بل نحو سبعمائة الف شخص لا زالوا يفاخرون بنسبهم ويلقبون انفسهم بالامة القبطية وليس بالكنيسة القبطية فقط

اما وقد عرفنا شيئاً عن غرائب الاحكام والاديان في ارض الغرائب فلنتقدم لدحض وهم تسلط على عامة الناس وبعض خاصتهم قروناً عديدة هو ان اوروبا مديونة للعرب بعلومها ومعارفها . والذين يزعمون هذا الزعم بنوا فكرهم على ان اكثر العلوم دخلت اوروبا بواسطة العرب وهو اذا صح لا يؤخذ دليل على ان العرب هم الذين جاؤا بهذه المعارف من انفسهم ولكنهم نقلوها نتفاً من التهذيب والعلم القديم الذين محوا آثاره من البلاد التي امتلكوها كمصر مثلاً بعد ان اخذوا قشوراً ضعيفة منه اوصلوها الينا ممسوخة منسوخة كما ان الذين نقلوا بعض العلوم الصحيحة لم يكونوا من العرب انفسهم بل هم من الامم الاخرى التي امتزجت بهم . خذ لذلك مثلاً وقس عليه البواقي :— ان العرب الذين ادخلوا بعض الفنون الهندسية والحرف الى الشرق في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ليسوا من العرب الاصليين بل هم جماعة من اليونان والارمن والشراكسة الذين توظفوا في مصر واتخذوا منها هذه الفنون

(*) (المترجم) هذا مقتبس من سفر الملوك الاول ص ١٩ ع ١٨ حيث قال الرب لايليا النبي (وقد ابقيت في اسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله)

ونشروها في البلاد التي انتقلوا اليها فيما بعد . واذا قام بعض الذين لا يفهمون وبرهنوا لنا على صحة ذلك الزعم من ان اسماء اكثر العلوم عربية صرفة ولذلك فهي من بنات افكار العرب اتخذنا قولهم هذا حجة لنا لا علينا فان الابحاث الحديثة الدقيقة اثبتت ان هذه الاسماء التي يظنها بعضهم عربية انما هي مصرية او يونانية . مثال ذلك « الكيمياء » فانها مأخوذة من كلمة « الكم او الخم » ومعناها تراب احمر وهي الاسم العلم لارض مصر التي بزغت منها جميع العلوم والمعارف ونبغ فيها الاطباء والمهندسون والمعماريون ومهرة الصناع وارباب الفنون الجميلة الذين كانوا وطنيين مسيحيين لا تزال الحكومة المصرية لحد يومنا هذا تثق بامانتهم ومهارتهم وتضعهم في الوظائف الخطيرة التي تحتاج الى العفة والنشاط والاستقامة والجد مما اشتهر به الاقباط شهرة يعرفها كل من درس التاريخ الماضي والحاضر ولا ينكرها الا من اعماه الغرض الممقوت . ونحن مع هذا كله لا ننكر على العرب فضائلهم ولا نبخس الاتراك حقهم فان هاتين الامتين اشتهرتا بالشجاعة وقوة البأس والكرم ومزايا اخرى كان يحسن بالمصريين ان يقتبسوها منهما ولكنهما للاسف كانتا ولم تزالا على جانب عظيم من البداوة والخشونة وهو ما يسمونه بالهمجية والوحشية . فاذا كان في الامتين ميل للفتوحات فهذا الميل ناشيء عن حب التوسع في السلطة والتحكم في رقاب العباد عجرفة وغطرسة كما ان التمدن عندهما هو عبارة عن الترف والاسراف واطلاق عنان النفس للشهوات المذمومة (١)

(١) ان سلالة العرب الذين فتحوا مصر المعروفين فيها الآن بالعربان او

على ان العرب الاولين في بدء مجدهم كانوا بعيدين عن كل ترف ورفاه يميلون للجد في اعمالهم وياكلون شظف العيش ويلبسون خشن الثياب ويحتقرون كل من يتنعم ويبذخ مع انهم وقعوا في هذه المهواة فيما بعد وغاصوا فيها لآذانهم • ولنذكر لك الآن حكاية تستدل منها على ترفع امراء العرب وعظمائهم عن البذخ والتبذير وعدم ميلهم ايضاً الى شيء من العلوم النافعة والمؤلفات المفيدة • فانه لما افتتح عمرو الاسكندرية اذهل من ثروة سكانها وعجب من تفخفخهم وترفهم فكتب الى عمر يبالغ في وصف ما رأى من عظمة حماماتها وزخرفة سفنها ونظافة شوارعها وبهرجة ساكنيها ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن الكتب الثمينة والتصانيف الغالية التي كانت كنز الاسكندرية وفخرها خصوصاً مكتبتها الشهيرة التي سنقص عليك حكايتها ومنها تدرك مقدار اهتمام العرب بالعلوم والكتب التي كانوا يعدونها من سقط المتاع:—

ذلك ان احد علماء الاسكندرية في ذلك العصر واسمه يوحنا فيلوبونس — بلغه ان قائد العرب الجاهل يبغي حرق المكتبة واعدامها فطلب مقابلته ورجاه ان لا يتصرف في هذا الكنز الثمين ولا يسلمه لعوامل الدمار بل اذا كان لا يهتم بامره فليضعه تحت يده (اي يد يوحنا) • قيل ان عمرواً استصغر عقل هذا العالم وظنه معتوهاً لانه يبحث عن رقوق عتيقة وجلود عفنة يسميها

البدو يميلون بكلياتهم الى اسباب الترف والبذخ والبهرجة وجميع الاميال الحيوانية. وكذلك العرب الذين ملكوا الشرق من القرن الثامن الى الحادي عشر انحطوا وتدهوروا بسرعة وانهمكوا في الملذات حتى شابهوا جماعة الاتراك الذين تعقبوهم

كنزاً وهي لا تنفع للاحذية وليس فيها سوى كتابة غامضة مبهمة تشبه الطلاسم والرقى . ففرطت من صاحبنا العالم كلمة امام عمرو لم يلتفت لنتيجتها وقال له ان بعض هذه الكتب يساوي كل الاسكندرية وما فيها من ثروة طائلة واموال هائلة . فاجابه عمرو انه اذا كان مقدار اهمية هذه المكتبة كما ذكرت فليس في وسعي البت في امرها ولا يمكني ان اعطيها لك كما طلبت مني . ثم رفع عمرو الامر الى الخليفة عمر الذي اجابه جواباً بسيطاً يقول عنه المنطقيون انه فاسد المقدمات فهو فاسد النتائج . قال الخليفة قضية منطقية قضت على هذه المكتبة الشهيرة بالحرق وهاك القضية :—

« اذا كانت هذه الكتب لا تحتوي على شيء غير المسطور في القرآن فهي كعدمها

واذا كانت هذه الكتب تنافي ما جاء في القرآن فهي ضارة مؤذية لا يجب حفظها

اذاً فعلى كلتا الحالتين يجب حرقها وابادتها من الوجود »

قيل ان هذه الذخائر والنفائس استعملت وقود الحمامات الاسكندرية الكثيرة الكبيرة لمدة ستة شهور باكملها (١)

وبينما كان الفاتح المسلم يشتغل في تدبير مهام الاسكندرية ويضع لها

---

(١) لا مشاحة في ان مكتبة الاسكندرية القديمة كان قد احرقها اوغسطوس قيصر اول امبرطور روماني وضع يده على مصر ولكن لم يمض زمن طويل حتى تجددت هذه المكتبة اذ نقلت مكتبة برغاموس اليها فصارت اشهر من الاولى وانفع

النظامات واللوائح جاءه وفد غريب في شكله ووضعه · ذلك ان رهبان دير وادي النطرون وبرية شيهات الذين لم يسبق لهم التداخل في الامور السياسية ولا هم اشتركوا في تلك الحروب الاهلية والثورات المشوبة التي حدثت في القرن السادس ضد الحكومة الرومانية — هؤلاء الرهبان لما سمعوا ان قوة جديدة احتلت هذه البلاد بعد ان طردت الرومانيين منها خرجوا من صوامعهم ومناسكهم كانهم اهل الكهف وساروا الى الريف في حفلة حفيلة وهم حفاة الاقدام لابسون رث الثياب ورثيث المآزر وجاؤا الى الفاتح الجديد ليتفاوضوا معه في شروط التسليم والحكم كما لو كانت لهم حكومة مستقلة غير حكومة القطر المصري · وكان اول امر طلبوه اعطاءهم الحرية الدينية والشخصية واعادة بطريركهم الموقر بنيامين من منفاه الى الاسكندرية · ولما كان عمرو قد تعلم من سابقيه الرومانيين اهمية مهاودة الاقباط ومحاسنتهم لم يتأخر عن منح الرهبان ما طلبوه منه فكتب مكتوباً الى البطريرك بنيامين يخبره فيه بانه حر في تصرفه يمكنه الرجوع والاقامة متى شاء واين اراد · فلم يتأخر بنيامين عن العودة الى الاسكندرية حيث استقبله شعبه بفرح وسرور · اما البطريرك الروماني كيروس فانه مات عند ما ماتت آماله اذ اصابه مرض بعد الخيبة والفشل اللذين اصاباه عند فتح العرب مصر فتوفاه الله بعد احد الشعانين بثلاثة ايام · ولا يعلم اذا كان الامبراطور او اساقفة الكنيسة الرومانية في مصر هم الذين اختاروا خلفه بطرس الذي لما عرف ان البطريرك بنيامين هو صاحب السلطة والرئاسة في مصر لم يعجبه البقاء فيها بل آب

ادراجه الى القسطنطينية مع المهاجرين اليها . وقد ظل الكرسي الروماني في هذه البلاد بدون بطريرك مدة ستين سنة بعد موت بطرس هذا

وكان عند ما اخذ المسلمون مصر ان بنتا بوليس — او هي الخمس مدن الغربية — انفصلت عن مصر واستقلت فارسل اليها عمرو جيشاً لم يستطع اخضاعها بل اكتفى بما اخذه منها من الغنائم والاسلاب وهي عبارة عن عدد وافر من المواشي والاسرى الذين جعلهم عبيداً ارقاء . و بعد هذه الحرب جاء عمرو الى بابيلون وشرع في بناء مدينة جديدة له ولاتباعه شمالي المدينة القديمة بابيلون . ومع ما كان عليه عمرو من الخشونة وضيق العقل فقد عرف بالبسالة والدهاء السياسي بدلك على ذلك انه ابعد رجال جيشه عن سكان بابيلون وممفيس فلم يعين منهم مستخدماً ولا حاكما حتى لا ينفر المصريون منهم وحتى لا يسقط رجاله في وسائل الترف والاسراف فاقام الولاة والحكام في مصر من المصريين انفسهم وصرف نظره الى جمع الاموال منهم التي كانوا يؤدونها عن يد وهم صاغرون . ولم يخلف عمرو وعده في تعميم الحرية الدينية واقامة العدل والقسط بين المصريين والرومانيين على السواء مع ان عدله حينئذ كان اشرّ وامرّ من اشد انواع الظلم والعسف . وقد امر بترميم مقاييس النيل من جزيرة فيلا (اصوان) الى الروضة وتطهير ترعة تراجان (١) وتوسيعها وكذلك خص كل امة بقانون واقام قضاة للمصريين منهم ولم

(١) ان ترعة تراجان هي المعروفة الآن بالخليج وهو الخليج الذي امرت الحكومة بردمه سنة ١٨٩٧ لاسباب صحية ولذلك بطل العيد الكبير الذي كان

تكن احكام القضاة المسلمين تسري الا على المسلمين فقط . ثم انه شاد اول جامع في مصر في مكان الجامع المعروف باسمه بمصر القديمة ولكنه اخذ اعمدته والاحجار اللازمة له من كنائس ممفيس وبذلك وضع عمرو قاعدة سار عليها المسلمون فيما بعد اذ بنوا جوامعهم من انقاض كنائس المسيحيين بعد هدمها وتقويضها وسبب ذلك جهلهم المطبق بصناعة قطع الحجارة وتسويتها على مثل ما كان يفعل المصريون

ولم يكد عمرو يخطو خطوة ثانية في مشروعاته حتى قتل الخليفة عمر وخلفه عثمان بن عفان الذي استدعى عمرواً من مصر وعين بدله عبد الله بن سعد اخاه في الرضاعة وذلك في سنة ٦٤٧ (٢٥ هجرية) ولكنه لم يهتم بنجاحها وتقدمها بل هو صرف جهده في زيادة الضرائب المفروضة على المصريين وطمع في مد السلطة الاسلامية خارج مصر . وكان عمرو بن العاص قد ارسل حملة على بلاد النوبة او البلاد الواقعة جنوبي اصوان فلم تفلح فظن عبد الله ان ينتقم من السودانيين ويداوي الخيبة التي لحقت بسلفه فسير جيشاً على النوبة نشرح لك حكايته في الفصل التالي

يتلم في مصر بوفاء النيل من ايام الفراعنة الى اليوم ولم يبق من كل ذاك الاحتفال الا عمل لا يشعر به سوى القليلين

الفصل الرابع والثلاثون

فتح السودان

سنة ٦٥٢ للمسيح و٣٦٩ للشهداء و٣١ للهجرة

معلوم ان سلطة الحكومة الرومانية لم تخرج عن حدود مصر وما تجاوزت مدينة فيلا في وقت من الاوقات ولكن تلك الحكومة القوية والسلطة المتناهية التي مدّت نفوذها في انحاء المسكونة بلا حرب ولا قتال اعني بها الديانة المسيحية كانت قد غلبت الوثنية وسحقتها سحقاً بقوة رب الجنود الذي ساعدها في مصر حتى تعدت حدود السودان وتسلطت على انحائه وظلت مثمرة فيه نامية مدة قرون عديدة . ولما اخذ المسلمون مصر كانت الديانة المسيحية قد بزغت شمسها من ارض مصر فاشرقت على الجزء الشرقي من القارة الافريقية وانارت اقصى الحدود الشمالية لبلاد الحبشة وصارت جميع هذه البلاد تعترف بسيادة بطريرك الاقباط عليها اعترافاً تاماً وتخضع لسلطانه . اما هذه البلاد الافريقية التي اشرنا اليها فهي الواقعة بين اصوان و بلاد الحبشة شمالاً وشرقاً وكانت في وقت الفتح الاسلامي عبارة عن ممالك مسيحية عديدة مستقلة استقلالاً سياسياً كاملاً يقول عنها المؤرخون المسلمون انها كانت ذات حكومات منتظمة وقوانين مرتبة عادلة وشعب مهذب وامم بلغت ذرى الكمال والدأب على العمل حتى ساقها حب التزاحم وتنازع البقاء الى ايقاد نار حروب كثيراً ما اشتعلت بينها وخمدت حالاً . واذا نظرت

الى الاهوال التي ذاقتها مصر من امتلاك العرب والاتراك لناصيتها ورأيت ما حلّ بتمدنها وعلومها وصنائعها من المصائب والارزاء لرأيته شيئاً لا يذكر بالنسبة لما اصاب هذه الممالك المسيحية السودانية من ويل ادمى فؤادها واصمى قلبها بعد ما ترعرعت بسقي الديانة المسيحية ونمى غرسها وصارت زهرة القارة السوداء واكليلها الثمين

قلنا في الفصل السابق ان حملة من العرب هاجمت هذه الممالك السودانية في ايام عمرو وعادت منها بالخيبة والندامة وذلك سنة ٦٤٣ للمسيح · وقد اختلف المؤرخون فيما اذا كان عمرو نفسه قاد هذه الحملة او بعث بها تحت زعامة احد الامراء المسلمين · وورد في كتاب فتوح البلدان لاحمد الكوفي عن هذه الحملة ما يأتي : — «لما كان عمرو بن العاص مقيماً في مصر جاءه مكتوب من الخليفة عمر يأمره فيه بالمسير على بلاد النوبة وافتتاحها وغزو بلاد البرابرة وان يفتح ايضاً برقة وطرابلس الغرب ويجتاح جميع البلاد التابعة لها مثل طنجة وافرهنجة لحد سوس الاقصى» اهـ

وقد جاء في هذا الكتاب ان عمرواً كان قد جمع من سكان الاسكندرية عشرة آلاف دينار (الدينار يساوي نحو ثلاثة ريالات مصرية) وفي نيته ارسالها الى عمر · ولكنه لما صدر اليه امر هذه الحملة وزع هذا المبلغ على رجال جيشه واخذ يستعد لشن الغارة على الممالك المذكورة وسير ضدها عبد الله بن سعد (الذي تولى مصر بعد عمرو) يقود عشرين الف مقاتل (كذا في الاصل العربي وهو كذب محض)

ولما بدأ عبد الله يسير اذن لرجال جيشه بارتكاب ما يوافق طباعهم القاسية الجامدة فاخذوا ينهبون و يسلبون و يقتلون ويدنسون ماتقع عليه اعينهم او مايقف في طريقهم من بابليون لحد السودان حتى اتلفوا شيئاً كثيرا وقتلوا خلقاً عديداً . وعند ما بلغ السودانيون خبر قدوم العرب اجتمع منهم نحو مائة الف رجل (١) ووقفوا في وجه المغيرين الى ان اقتربوا منهم فهجموا عليهم هجمات قال مؤرخو المسلمين ان العرب لم يروا مثيلا لهذه الشجاعة ولم يشهدوا حروباً ذاقوا فيها البلاء المرمثل مالاقوا من اهالي النوبة الذين كانوا يحسنون الرمي بالسهام فلا يخطئون . قال عبد الله قائد الحملة لاحد المؤرخين المسلمين انه لما دارت رحى الحرب واشتبك الجيشان في الطعن والضرب كان السودانيون يصيحون على اعدائهم ويسألونهم ان في اي عضو من اعضاء اجسامهم بريدون وقع السهام عليه . فكان العربي يجيبهم ضاحكا هازئاً ان اضربوني في العضو الفلاني فلم يكن يتم كلامه حتى ينفذ السهم في الجزء الذي ذكره دون ان يخطئه ولكن النوبيين كانوا يفضلون ضرب اخصامهم في اعينهم ليفقأوها و يفقدوا ابصارهم و بصائرهم

وكانت نتيجة هذه الحرب العوان ان الدائرة دارت على السودانيين الذين لم يولوا الادبار ولم يقع واحد منهم اسيراً في ايدي الاعداء فقنع المسلمون من

---

(١) لقد بالغ ابن الكوفي في عدد الجيشين اذ قال ان المسلمين كانوا عشرين الفا والسودانيين مائة الف مقاتل وهو قول بعيد عن الحقيقة وغرض الكاتب منه اظهار شجاعة العرب ومقدرتهم بقوله انهم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة من السودانيين

الهزيمة بالاياب فرجعوا الى حدود مصر وعسكروا فيها وكانوا على وشك الانصراف الى داخلية البلاد ولولا ان اهالي النوبة ارتكبوا متن الشطط والطيش وغاروا على جنوبي مصر والحقوا بها خسائر جسيمة وقد ساعدهم على ذلك موت عمر وانقسام العرب ووقوع شقاق داخلي في بلادهم انتهى بتنصيب عثمان على كرسي الخلافة واستدعاه عمرو بن العاص من مصر وتولية عبد الله ابن سعد بدله فيها . فلو اتفق المصريون والسودانيون في هذه الفترة على طرد المسلمين من مصر لكان النجاح مضموناً لهم ولاعادوا الاستقلال والراحة لبلادهم . ولكنه كتب لهذين القطرين الشقاء الدائم والتعاسة العظمى فلم يقم فيها وقتئذٍ رجال يدعون الى الاتحاد واعمى النحس اعين الفريقين عن فرصة اضاعوها فصارت لهم غصة تجرعوها وذاقوا من ورائها كل هول وويل . وماجاءت سنة ٦٥٣ حتى قدم عبد الله على مصر ومنها سار في جيش عرمرم الى السودان بقصد اخضاعه وهو يحرق الارم غيظاً من عناد هذه البلاد ويدس في قلبه كل مكر وغدر لاهليها

وقد وغل عبد الله وجيشه في السودان الى ان وصلوا دنقله (كانت هذه المدينة في القرن السابع على مسافة مئات من الاميال شمالي المدينة الحالية) وحاصرها واقام حولها المتاريس والمنجنيقات التي لم يرها السودانيون قبل الآن واخذ يرمي الحجارة على المدينة فاصابت بالصدفة كنيستها الكبرى فدمرتها وقوضت اركانها

فلما رأي النوبيون ان كنيستهم قد سقطت تشاءموا وقالوا انه لم يعد لهم

امل بالنجاح وحينئذ شرع ملكهم — واسمه كليودرات على ما يظن — في المفاوضة بشأن الصلح الذي كان من ضمن شروطه ان العرب لايعودون لمهاجمة النوبة فيما بعد وان يمدوها بالمساعدة اذا هاجمها عدو اجنبي . وفرض على اهالي النوبة في مقابل ذلك ان يسمحوا ببناء جامع في دنقله يصلي فيه المسلمون الذين يبغون الاقامة فيها وان لا يصيبهم ضرر ولايحجر عليهم في ممارسة طقوس ديانتهم الاسلامية . وقد غالى العرب في شروطهم حتى حتموا على النوبيين المسيحيين ان يهتموا بنظافة الجامع وانارته وترميمه اذا لزم الحال وان لا يمنعوا مسلماً من استيطان اية بقعة في السودان الا العبيد والاسرى المتشردين فلا يجوز لهم ان يلجأوا الى دنقله ويقيموا فيها

ومن اشنع ماورد في هذه المعاهدة شرط اوجد مبدأ تجارة الرقيق التي عمت الشرق من ذلك الحين وتجاوزت حد الخدمة البيتية الى حد الاسترقاق والاستعباد الذي اوجده المسلمون من ايام فتحهم للسودان اذ فرضوا ضريبة مقدارها ثلثمائة وستون عبداً ترسل من السودان لوالي اصوان الذي يبعث بها الى الامام الاكبر على شرط ان لايكون بين هؤلاء العبيد كهل او كهلة او فتى دون سن البلوغ بل يكونون من احسن الناس قامة ومنظراً لاشين فيهم ولا هم يعابون . وفضلاً عن ذلك فان والي مصر كان يأخذ من السودان اربعين عبداً زيادة عن الثلثمائة والستين التي تقدم للخليفة . وكان والي مصر يرسل لملك السودان في مقابل هؤلاء الارقاء هدايا من الخمر والقمح والشعير والثياب الناعمة اللامعة ولكن الخمر بطل بعد ذلك بقليل لارتياب

الوالي في شأنه . ولما رأى المسلمون على توالي الايام فائدة هـؤلاء العبيد شرعوا في جلب عدد كبير منهم من السودان غير الذين يدفعون للجزية ورفعوا امرهم الى القضاة الشرعيين المسلمين ليحكموا لهم بجواز هـذه التجارة فقرر القضاة ان جميع الاسرى الذين اخذوا في الحروب التي قامت بين العرب والسودانيين وكل الاشخاص الذين يخصصون للرق في السودان يعتبرون مثل الابضعة والامتعة ويجوز فيهم البيع والشراء بكل انواعه

وقد ورد في اقوال المؤرخين المسلمين ان احد وجهاء السودان اهدى جامع عمرو الجديد الذي في الفسطاط منبراً حسن الصنع وانفذ نجاراً ماهراً اسمه بقطر من اهالي دندرة ليضعه في المكان المخصص له في الجامع المذكور

وكانت نتيجة اعمال عبدالله السالف ذكرها ان المصريين شعروا بالفرق الهائل بين حكمه وحكم عمرو عليهم فأخذوا في سنة ٦٥٧ يستعدون لثورة يسفكون فيها ما بقي فيهم من الدماء التي افسد تركيبها الذل والضيم بكل اصنافها . فأحس عبدالله بالامر ورأى الخطر يتهدده فترك مصر قاصداً بلاد العرب ليستمد رأي الخليفة عثمان في الذي ينبغي عمله . وما كاد عبدالله يبرح الاراضي المصرية حتى قام جماعة من خوارج العرب وأثروا ضد الخليفة يطلبون نزعه من على كرسيه وعضدهم في ذلك مسلمو مصر حتى اوشك الثائرون ان يضعوا يدهم على جميع اطراف المملكة لولا ان عثمان وعدهم باجابة كل سؤال طلبوه منه خصوصاً استدعاء عبدالله من مصر وعزله عن

ولايتها وتعيين محمد بن ابي بكر بديلاً له . ولكن عثمان اظهر لاعدائه خيانة لم ترضهم لانهم اكتشفوا مكيدة دبرها هي ان انفذ رسولاً الى مصر واوصاه باغتيال حياة محمد عند وصوله اليها فهاج المسلمون ضد عثمان واشترك معهم المصريون في هذا الثوران ولم تجيء سنة ٣٦ هجرية حتى هجم الثوار على المدينة وقتلوا عثمان وبايعوا علي بن ابي طالب خليفة بدله . وقد ظلت مصر طول هذه الفترة بدون والٍ الى ان صودق على تعيين محمد بن ابي بكر لها سنة ٣٧ للهجرة

وما زال المسلمون بعد ذلك الحين منشقين منقسمين الى قسمين — احدهما تحت رئاسة علي وهو يشتمل على بلاد الفرس والعرب ومصر والقسم الثاني سوريا تحت زعامة معاوية بن ابي سفيان ووكيله عمرو بن العاص . وقد ظل هذا الانقسام اربع سنوات كاملة الى ان حلت سنة ٤١ هجرية (٦٦٠ مسيحية) اذ قتل علي بن ابي طالب وابنه الحسين وخلع ابنه الاكبر الحسن وحينئذٍ اصبح معاوية الخليفة الوحيد للمسلمين في العالم كله

الفصل الخامس والثلاثون

عبد العزيز

سنة ٦٦٠ للمسيح و٤٥٦ للشهداء و٤١ للهجرة

كان معاوية ابن ابي سفيان اول خليفة في الدولة الاموية التي دعيت

هكذا نسبة الى امية جد معاوية الاكبر . وقد سرّ مصر قيام هذا الخليفة لانه اعاد اليهم واليهم الذي كانوا يحترمونه ويخافونه اعني به عمرو بن العاص ولكنه لم يلبث سوى سنة بعد عودته لمصر حتى مات وخلفه عتبة اخو معاوية الاصغر وهذا مات ايضاً في ظرف سنة وعين غيره وعزل حالاً وبذلك توالى على مصر ثلاثة من الولاة في بضع سنوات قليلة . وفي سنة ٦٦٤ (٤٥ هـ) تعين مسلمة بن مخلد والياً لمصر وظل فيها الى ان مات سنة ٦٨١ واعقبه سعيد بن يزيد تولى مصر مدة ثلاث سنوات فقط . وقد ذاقت مصر في ايام مسلمة وسعيد نوعاً من الراحة والسلام بينما كان المسلمون في جميع انحاء المسكونة في شقاق وخصام وحروب اهلية دعاهم اليها ميلهم الى التزاحم والتعجرف

وقبل تنصيب معاوية بسنة مات البطريرك المصري بنيامين شيخاً وشبعان من الايام بعد ان صرف هذا العمر الطويل المديد يشتغل بهمة لا يعتريها الكلال وعزيمة امضى من حد الحسام الصقيل مشجعاً ابناءه مشدداً المرتخين منهم الذين اضناهم الاضطهاد والعذاب المرمرمماً الاديرة التي عبثت بها ايدي الفاتحين ونهبت كل ما فيها . واهم عمل اشتهر به هذا البطريرك سعيه في اصلاح آداب شعبه التي كانت قد مالت الى الانحطاط بسبب الذل والحيف اللذين يفقدان الشهامة والعزة من الامم كيفما كانت قوية منيعة . وقبل وفاته ارسل مطراناً جديداً الى بلاد الحبشة ومعه راهب اسمه تكلا هيمانوت عرف بتقواه وقداسته لا زال الحبشان يكرمونه ويجلونه الى هذا اليوم ويقولون انه اول من اوجد الرهبنة في بلادهم . وفي ذلك الحين شاد

البطريرك بنيامين كنيسة جديدة في صحراء وادي النطرون وكرسها باسم القديس مكاريوس (او هو انبا مقاره)

وجلس على كرسي البطريركية القبطية بعد بنيامين البطريرك اغاتو الذي نسج على منوال سلفه باتباعه المنهج القويم والخدمة الحقة . وقد كانت مدة رئاسته ثماني عشرة سنة تضايق فيها جداً من تصرفات رجل اسمه ثيودوسيوس من اتباع كنيسة الاروام في مصر اذ استمد هذا الرجل سلطة من الحاكم الاسلامي بها ضاعف مقدار الضريبة المفروضة على الكنيسة القبطية ثم غالى ثيودوسيوس في القحة والبذاءة فاصدر امراً يحتم على البطريرك القبطي بالانكماش في كنيسته وان لا يبرح صومعته فيها والا يحل رجمه بالاحجار وقتله وكان سبب ذلك البغض والحقد الكامنين في صدر هذا الروماني ضد اغاتو حتى انه عند ما توفي هذا البطريرك اسرع ثيودوسيوس الى البطريكخانة وارصد جميع ابوابها وختمها بالشمع بدون مسوغ شرعي وبدون قانون يخول له هذا التداخل المذموم . وكانت النتيجة ان حاشية البطريرك استاءت من هذه الوقاحة ورفعت دعواها الى حاكم مصر المسلم الذي نظر في الامر ورفع هذا الحيف الثقيل

وبعد مضي زمن قصير قصف الله عمر ثيودوسيوس الذي اخلف بعده عوامل العداوة والشقاق بين الاقباط والاروام مما اضر بالطائفتين ضرراً يتضح لك من الحكاية التالية وهي انه لما جلس يوحنا السمنودي على مسند البطريركية لم يحتفل باميد مصر الجديد ولم يرسل له الوفد المعتاد ارساله مزوداً بالهدايا

الثمينة والعطايا الكثيرة · وقد ذهب بعض المؤرخين ان هذا العمل لم يكن احتقاراً من يوحنا لوالي مصر بل ان البطريرك المذكور كان مشغولا بتدبير مهام رعيته وقطع دابر التفرقة والعداء من بينها فلم يهتم بامر الوالي ولا سمع بخبر قدومه مطلقاً · ولكن احد انسباء ثيودوسيوس انتهز هذه الفرصة ووشى بالبطريرك الى الحاكم المسلم وقال له انه رجل غني مثري يجب ان تفرض عليه غرامة رابية جزاء لاهماله واغضائه

فأرسل امير مصر وهو سعيد بن يزيد الى البطريرك يطلب منه دفع مائة الف قطعة من الذهب غرامة وقصاصاً · فرد البطريرك عليه يقول انه فقير معدم لا يملك ولا مائة درهم وليس لديه سوى امتعة الكنيسة التي لا يستطيع التصرف فيها بل هو راض ان يبذل نفسه في سبيلها · فللحال قبض سعيد على هذا البطريرك البائس وعذّبه عذاباً تنفر من ذكره الضواري لانه وضع قدميه في آناء من النحاس موضوعة على نار شديدة اللهيب اذابت شحم القدمين من قوة النار ولكن يوحنا لم يتحرك ولم يتزعزع ولا هو لفظ كلمة يؤخذ منها الاستغاثة والمعونة بل ظلّ واقفاً على الجمر كأنه واقف على وثير الفراش وناعم الرياش الى ان افرج عنه الامير لما بلغه ان امرأته اصيبت بغتة بمرض عضال ظنه هذا الظالم قصاصاً له على تعذيبه للبطريرك البري · الذي أخذ الى السجن والاغلال في عنقه والسلاسل في يديه وارجله ومكث فيه سجيناً الى ان تعهد الاقباط بدفع عشرة آلاف قطعة من الذهب فدية لبطريكهم الاسيف · قيل ان اليوم الذي اطلق فيه سراح يوحنا كان يوم

خميس العهد فسار هذا البطريرك من السجن الى الكنيسة تواً وأخذ يغسل اقدام الفقراء والشحاذين اقتداء بسيده ثم اتم الخدمة الكنائسية وتناول الاسرار المقدسة قبل ان يذهب الى بيته

ويحتمل انه في ايام هذا البطريرك او سلفه ان كنيسة مار مرقس في الاسكندرية صار تجديدها وترميمها وفي الغالب ان البطريركين اشتركا في اعادة رونقها وتقويم اودها · واذا استثنينا ما وقع للبطريرك يوحنا من العذاب والاضطهاد فالاقباط قضوا مدة وجيزة في نوع من الراحة والسلام ولكن مصر نفسها لم تسترح من المصائب والبلايا فانها اصابها جوع شديد ظل فيها ثلاث سنوات كاملة افقدمنها كل ثروة ولم يبق على شيء من منابع الغنى ووسائل المعيشة

وفي سنة ٦٨٣ (٦٤ هـ) مات الخليفة يزيد وخلفه ابنه معاوية الثاني الذي ملك ستة اسابيع فقط ومات وقام بعده اثنان يتنازعان الخلافة ويسعيان للحصول عليها وهما عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وهذا بويع الخلافة في دمشق وذاك في مكة ببلاد العرب · ولما استتبت الخلافة لابن الزبير عين عبد الرحمن بن جحدم والياً على مصر التي كانت احسن المقاطعات واغنى الولايات في ايام المسلمين كما في زمن الرومانيين · وكانت ولاية عبد الرحمن على مصر بعد نفي الوالي الذي كان فيها من قبل الدولة الاموية ولم يكد هذا الوالي الجديد يستقر في ولايته حتى بلغه ان مروان سار على مصر ليأخذها لنفسه فاستعد عبد الرحمن للدفاع وحفر خندقاً عميقاً عند بابيلون وجيش جيشاً

جراراً ليرد به هجمات العدو الذي وصل الى المطرية واشتبك الجيشان في معركة فاصلة عند عين شمس دارت فيها الدائرة على عبد الرحمن ففرَّ هارباً يطلب النجاة لنفسه

وحينئذٍ استولى مروان على الفسطاط واقام فيها ابنه عبد العزيز حاكماً على مصر · وحدث في يوم دخول مروان الفسطاط ان ابن عمرو بن العاص مات في منزله بعد ان صرف حياته في داره فلم يبرحها مرة واحدة ولم يتداخل في الشؤون السياسية او الحربية مطلقاً · ولسوء الاحوال في ذلك الوقت لم يجسر احد على الاحتفال بجنازة ابن اكبر قائد في المسلمين بل دفنوه في حفرة تحت جدار منزله

أما مروان فترك مصر قاصداً سوريا ولم تطأها قدماه حتى اصيب بالطاعون ومات فجأة * وبعد موته بقي الخصام والنزاع بين المتحفزين لمسند الخلافة مدة عشر سنوات وكان عبد العزيز حينئذٍ قاعداً في ولاية مصر أخوه عبد الملك خليفة بدل أبيه بعد ان اخضعا مصر خضوعاً تاماً وصار عبد العزيز يجري فيها العدل المعروف عن اولئك الولاة وقلنا لك عنه في الذي سبق انه اشد واقسى من الظلم المريع ولكنه كان عدلاً بالنسبة لجور غيره وعسفه · انما هذا العدل كان بعيداً عن الاقباط لان عبد العزيز كان يظن ان بطريركهم خصمه الوحيد وعدوه العنيد فزاد عليهم الضرائب والجزية ·

* (المترجم) قال مؤرخو المسلمين ان مروان بن الحكم مات مقتولاً اذا خنقته امرأته ام خالد بن يزيد بن معاوية

ولما مات البطريرك يوحنا اصدر عبد العزيز أمراً بأنًا يقضي فيه على الاقباط بأن ينتخبوا بطريكهم الجديد في بابلون التي أصبحت في ذلك العهد من ضواحي الفسطاط وكانوا قبلا ينتخبونه في الاسكندرية (١)

وقد وقع اختيار الاقباط على راهب من دير ابا مقاره اسمه ايساك (او اسحق) الذى بعد ان تم تعيينه جاءه وفد من احدى ممالك السودان يشرح له سوء الحالة في هاتيك البلاد ويقول له انه لم يبق عندهم من الاساقفة عدد يكفي للخدمة الدينية ويطلب تعيين من يلزم . ولكن ملك المملكة الشمالية المتاخمة لحدود مصر من جهة السودان كان مسيحياً بالاسم فقط ذلك لانه اتفق مع المسلمين على شن الغارات على الممالك الواقعة جنوبي مملكته وغرضه من هذه الحروب والمعارك الحصول على العبيد المخصصين للجزية السنوية . فعداء هذا الملك للمسيحيين ومحالفته لاعداء المسيحية جعل ايساك يخشى ارسال اساقفة للممالك الجنوبية خوفاً من اغتيال حياتهم بيد ذلك الغاشم النذل .

فرأى البطريرك ان يكتب للملك المذكور يسأله الامان لهؤلاء الاساقفة وقد اظهر له في خطابه مقدار المسؤلية العظمى الملقاة على عاتقه من

---

(١) من ذلك الحين لغاية القرن الحادى عشر وبطاركة الاقباط ينتخبون في بابلون ولكن رسامتهم تتم في كنيسة الملائكة بالاسكندرية وكان البطريرك المنتخب يتعهدان يدفع من ايراده الرسمي المخصص له مبلغاً سنوياً لقسوس الاسكندرية اعانة لهم على تعمير كنائس هذه المدينة وحفظها من الزوال

الله اذا هو سعى في تعطيل عمل الانجيل وتسبب في خراب الكنائس الجنوبية واضمحلالها . ولسنا نعرف الذي ورد في هذا المكتوب عن المسلمين وبأي عبارة اشار اليهم هذا البطريرك ولكننا نعرف ان اعداءه اوقعوا بينه وبين عبد العزيز قائلين انه يأتمر مع ملوك السودان لخلع النير الاسلامي عن اعناق المصريين فغضب امير مصر وقبض على ايساك وأمر بضرب عنقه ولكن بعضهم توسط في الامر ورجا عبد العزيز أن يؤجل تنفيذ الحكم حتى يسترجع الجواب وينظر في مضمونه . فانتهز احد مهرة الاقباط هذه الفترة وكتب خطابات قلد فيها خط ايساك بغاية الحذاقة وسطر فيها كلاماً بمعنى ما في الجواب السالف ولكنه اخلاها من كل لفظ يغيظ المسلمين ويغضبهم ثم قدموا هذه المكاتيب الى عبد العزيز قائلين انهم استردوها من الاماكن التي ارسلت اليها فعفى الوالي عن البطريرك بهذه الحيلة العجيبة وهي حيلة شريفة جائزة في مذهب العاقلين

وبعد مدة وجيزة ظهر في الفسطاط وباء مخيف ففرّ الامير من وجهه قاصداً حلوان التي كانت يومئذ واقعة على شاطئ النيل فأقام فيها وغير معالمها حتى صارت مدينة زاهية زاهرة بما شاد فيها من الجوامع وما غرس من الاشجار الباسقة والازهار العطرة ثم أذن للمسيحيين أن يبنوا فيها كنيستين لكي بهما يتم رونقها لان كنائس هاتيك الايام — وهذه ايضاً — كانت من أحسن الابنية شكلاً وابهاها وضعاً وتنسيقاً . اما ادوات المباني فجيء بها من ممفيس التي كانت واقعة تجاه حلوان وقد اصبحت وقتئذ خربة خالية

ليس فيها سوى الانقاض والاطلال · وفي أخريات ايام عبد العزيز بنى لنفسه حرصاً شاهقاً في الفسطاط وكان الرجل مغرماً بالبناء مولعاً بالعمائر حتى سماه كتاب العرب فرعون الثاني

وفي سنة ٦٨٨ تنيح البطريرك ايساك واعقبه يوحنا رئيس دير وادي النطرون الذي بعد انتخابه اخذه الاساقفة وجمهور من وجهاء الاقباط واعيانهم وجاؤا به الى عبد العزيز لكي يصادق على تعيينه ولكي يقدموا له واجب الاحترام والمجاملة والا فهم يقعون تحت طائلة الاضطهادات و يرزحون تحت عبء الضرائب والغرائم

وكان بين اتباع يوحنا راهب اسمه سيمون وُلِدَ في سوريا ولكنه تربى في دير وادي النطرون حيثما كانت له مكانة كبرى · وحدث ان أحد الاساقفة اذاع انه احق بمنصب البطريركية من سواه فألقى عبد العزيز سمعه الى قوله واستنتج منه ان انتخاب يوحنا لم يكن باجماع الآراء ولذلك صار هذا الامير يهزأ بالاقباط ويعيرهم ويسألهم أن يختاروا بطريركاً لهم ذا اهلية وكفاءة · فقال له الاقباط الواقفون امامه ان اختيارهم وقع على هذا البطريرك وهم يسألون الله ان يدبر ما فيه صالحهم و يرجون الامير ان يعمل على راحتهم ويختار من يشاء · فمال عبد العزيز الى تعيين سيمون السوري الذي عارض وتمنع ولكنه اختاره الامير رغماً عنه ووضعه في مكان يوحنا الذي قبل العزل بكل فرح وابتهاج حباً في راحة رعيته وميلاً منه الى السلام والوئام · وكانت نتيجة هذا ان العواطف الحسنة والمحبة المتبادلة ملأت قلب سيمون كما افعمت

فؤاد يوحنا فعينه سيمون وكيلاً له متصرفاً وكان يهتدي برأيه ويسير على نصيحته مدة الثلاث سنوات التي عاشها يوحنا بعد تعيين سيمون

والكنيسة القبطية تعدُّ البطريرك سيمون من القديسين وتعزي اليه كثيراً من الآيات والعجائب تذهب الى انها تمت على يديه . وقد بقي هذا البطريرك يحافظ على نواميس الرهبنة كما لو كان موجوداً في ديره فلم يأكل لحماً كل أيام حياته . واشتهر سيمون بغيرته على اصلاح الديانة وتنقيتها من الخرافات والاوهام التي تطرقت اليها وامتزجت بها فشوهت محاسنها واضعفت نموها فعين لهذه المأمورية المهمة احد رؤساء الاديرة المصرية وهو يوحنا النيقاوي المعروف بسمو مبادئه وشهامته واتساع عقله فضلا عن انه كاتب ماهر ومؤرخ مدقق . ومن سوء الحظ ان تاريخ يوحنا ضاع برمته ولم نقف منه الا على ترجمة ممسوخة ملاى بالخطاء والغلط وهي التي ترجمها أسقف قبطي كان مقيماً ببلاد الحبشة وكتب عليها تاريخ الترجمة وهو يدلك على الاغلاط الكثيرة الموجودة فيها فقد قال انه ترجمها « سنة ٧٥٩٤ للخليقة و١٩٤٧ للاسكندر و١٥٩٤ للمسيح و١٣١٨ للشهداء و٩٨٠ للهجرة او ١٠١٠ قمرية » وسبب الخطأ في هذه الترجمة انها لم تؤخذ من اصل الكتاب الذي وضعه يوحنا بيده وكان مكتوباً بعضه باليونانية وبعضه بالقبطية ولكنها أخذت من اصل عربي موجز مختصر مقتضب يختلف كثيراً عن الاصل الذي كان يحتوي على حوادث مهمة ووقائع صادقة خصوصاً التي وقعت في العصر الذي وجد يوحنا فيه فانه اسهب في تفصيل اموره مع انه اوجز كثيراً

في غيره . اما بلدة نيقيوس موطن يوحنا (وقد ذكرناها قبلاً) فهي في مركز منوف وتسمى باللغة المصرية القديمة ابشاتي وقد مسخ العرب هذا الاسم ودعوها ابشادي وهو اسمها الى هذا اليوم ولكنها كانت في ذلك الزمن جزيرة كبرى واقعة بين فرعي النيل تحتوي الآن على ابشادي المذكورة وعلى بلدة أخرى اسمها زاوية رزين حيث لا تزال توجد آثار الهياكل التي شادها الفراعنة واطلال المذابح والكنائس التي بناها المسيحيون في الاعصر الاولى وقد هدمتها ايدي الحدثان وطوارق الزمان

ولا يعرف بالضبط كم من الزمن بقي يوحنا في وظيفة مصلح للعوائد ومفتش للاديرة ولكن المعروف انه قاسى في سبيل هذا العمل متاعب ومشاق يقاسيها كل من عرض نفسه للخدمة العمومية بغيرة واخلاص . والذي زاد في شقائه ما أتاه مع راهب ثبتت عليه جريمة الزنى والفحش فجلده يوحنا جلداً امزق جلده واورثه الآلام والاسقام حتى مات بعد عشرة ايام فهاج الاكليروس هياجاً كاد يفضي الى ثورة شنعاء لولا ان الاساقفة تداركوا الامر ورفعوا الى البطريرك شكواهم من قساوة يوحنا وغلاظته في تأديبه اعدائه فصدر امر البطريرك بعزله من وظيفته وتجريده من مرتبة الاسقفية . وكان يوحنا حينئذ قد بلغ من العمر اقصاه فلم يعش طويلاً بعد هذه الاساءة

وفي أيام هذا البطريرك ظهرت بين الاقباط بدعة جديدة هي الطلاق الذي هو عبارة عن عدوى وصلت اليهم من المسلمين الذين كانوا يتنعمون ويتلذذون بكثرة الزوجات وتعددهن ولذلك ارتأى بعض الاقباط ان

يضعوا قاعدة بها يحق لهم ان يطلقوا نساءهم متى شاؤا . فقام الاساقفه ضد هذه الفئة وحرموها وشجبوا افكارها ولكن اعضاء هذه الفئة رفعوا امرهم الى عبد العزيز والي مصر المسلم الذي لم يحقق آمالهم وينفذ لهم غاياتهم السافلة بل استدعى كل اساقفة مصر على اختلاف مذاهبهم واجناسهم وطلب منهم تشكيل مجمع ديني ينظر في الامر ويبت فيه حكماً نهائياً

فاحتشد في هذا المجمع اربعة وستين اسقفاً اكثرهم من الاقباط وفيهم من الكنيسة الملكية والخلكيدونية وغيرهم وذلك سنة ٦٩٥ في بابيلون وبدأوا يتناقشون في الموضوع بروح خالية من العداء وبعيدة عن كل نفور وشقاق وقبل ان يفض المجمع جلساته جاءت الانباء المحزنة من القسطنطينية فكان لها وقع سيء في حال الكنيسة القبطية . ذاك انه حدثت ثورة في القسطنطينية انتهت بخلع الامبراطور يوستنيانوس وتنصيب قائد مقدام اسمه ليونتيوس مكانه فلما سمع والي مصر المسلم بما تقدم ظن ان السلطة الرومانية اخذت في الانحطاط والهبوط ولذلك لم يعبأ بمجاسنة الكنائس المصرية ومهادنتها بل شن عليها غارات الاضطهاد وسعى في مضايقة الاقباط ونهب اموالهم وسلب مقتنياتهم وكان البطريرك في مثل هذه الاحوال هدفاً للمصائب والرزائل ولذا وقع سيمون تحت طائلة سخط الوالي ورجزه لامر لم يكن له دخل فيه كما يتضح لك هذا من الحكاية التالية

ذلك ان كاهناً جاء من بلاد الهند يلتمس من البطريرك سيمون تعيين اسقفاً لهاتيك البلاد وارساله لها معه . فقال البطريرك للكاهن الهندي انه لا

بد له من الحصول على تصريح من حاكم مصر قبل اجابة طلبه هذا . وفي اثناء ذلك بلغ الاسقف الروماني تاودروس ما جرى بين سيمون والكاهن الهندي فاعتبر حرص سيمون وخوفه من المسلمين ضرباً من الجبن فلذلك ولميله الى توسيع نطاق كنيسته استمال اليه القس الهندي فرسم له اسقفاً من ملته وارسله مع قسين آخرين الى بلاد الهند . وبعد ان قطع هؤلاء الجماعة مسيرة عشرين يوماً قبض عليهم المسلمون بحجة انهم جواسيس واحضروهم امام الخليفة عبد الملك الذي كان في دمشق الا الكاهن الهندي فانه اركن الى الفرار فلم يقفوا له على اثر . وقد اعتقد عبد الملك ان هؤلاء القسوس انما هم وفد مرسل من قبل مسيحيي مصر الى المسيحيين في الهند ليتفقوا معاً على خلع نير المسلمين وتقويض سلطتهم فلذلك حكم على اولئك الكهنة المساكين بقطع ايديهم واقدامهم ثم اعادهم الى مصر بجواب لوم وتوبيخ الى اخيه عبد العزيز لانه سمح لمثل هؤلاء الجواسيس بالخروج من مصر ليأتمروا ضد الحكومة الاسلامية ثم اوصاه ان يضرب البطريرك القبطي مائتي جلدة لتجاسره على ارسال اولئك الكهنة بدون اذن وان يدفع فوق ذلك غرامة رابية

فاحتج سيمون ضد هذا الظلم البين وحاول اثبات براءته فلم ينجح ولكن عبد العزيز امهله ثلاثة ايام فيها يأتي بالكاهن الهندي ليسمع اقواله في هذا الموضوع . فلما عرف هذا القس الهام بحرج الموقف الذي وصل اليه البطريرك القبطي جاء مصر مسرعاً ليقول الحقيقة بكل صراحة وجرأة وكانت النتيجة ان صدر العفو عن سيمون وطرح هذا القس الهندي في السجن اما تاودروس

الخناق . وقد ذكر مؤرخو الاقباط ان المسلمين بذلوا ما في وسعهم ليدسوا السم للبطريرك سيمون فنجحوا واومات هذا الحبر مسموماً بعد ان جلس على الكرسي البطريركي اربعة عشر عاماً . وبعد موته لم يتجاسر الاساقفة على انتخاب خلف له بل عهدوا الى غريغوريوس اسقف القيس (بمركز بني مزار بمديرية المنيا) بادارة اعمال الكنيسة لغاية سنة ٧٠٣ (٨٤ هـ) اذ انتخبوا اسكندر الثاني وهو من رهبان وادي النطرون . وفي ايام هذا البطريرك آلت حكومة مصر الى عصبة بن عبد العزيز الذي استعمل قوته ومواهبه في مضايقة الاقباط واضطهادهم وساعده على ذلك نذل مهان اسمه بيدامين كان قبلاً شماساً في الكنيسة ثم ارتد عن الايمان واعتنق الديانة الاسلامية وصار صديقاً حميماً لعصبة وعلمه كيف يضغط على الاقباط ويقلل عددهم ويفني جموعهم . فأول شر بدأ به عصبة انه فرض ضريبة على جميع الرهبان في مصر وامر باحصائهم ثم اصدر قراراً مفاده انه لا يدخل احد في دائرة الرهبنة الا باذن من الوالي . وقد زاد في طنبور الظلم نغمة انه ضرب جزية رابية على الاساقفة مقدارها الفا قطعة من الذهب الوهاج

ولكن يد الله القوية لم تترك عصبة يتمادى في ظلمه وطغيانه فانه تبارك اسمه ضربه ضربة شديدة ظهرت آثارها للعالمين . ذلك ان هذا الوالي الغاشم دخل كنيسة في حلوان اثناء وجود الاسقف فيها فحانت منه التفاتة الى صورة مرسومة عليها السيدة العذراء وابنها . فسأل الاسقف عنها فشرح له فحواها فحينئذ بصق هذا الوغد على الصورة واقسم ايماناً مغلظة انه عند

ما يتم له امر الولاية على مصر فهو يلاشي الديانة المسيحية منها ويطمس معالمها فلما رجع الى منزله ونام رأى حلماً مريعاً قصه في اليوم التالي على ابيه عبد العزيز ولم يكد يتم حكاية حلمه حتى ابتلاه الله بحمى قتالة لم تمهله سوى سويعات قليلة ذاق فيها مرّ العذاب ثم اخمد الله انفاسه وسارت روحه الى حيث أُعدّ له مكان يناسب اعماله وتصرفاته · وقد أثر موته في ابيه فلحق به بعد ان تولى مصر مدة عشرين سنة استراحت فيها مصر من بلايا الحروب والثورات وتمت فيها بعض الاعمال اللازمة للري مثل حفر الترع وانشاء الجسور التي لم تكن البلاد في غنى عنها لجمع الضرائب الفادحة المفروضة عليها

الفصل السادس والثلاثون

« ظلم ولاة مصر وجورهم »

(سنة ٧٠٥ للمسيح و ٤٢١ للشهداء و ٨٦ للهجرة)

لما مات عبد العزيز حكم مصر عبد الله بن الخليفة عبد الملك بن مروان وكانت مدة حكمه ويلا وشؤماً على الاقباط الذين كانوا ينتظرون العدل والانصاف من هذا الحاكم الجديد فساء ظنهم ووقعوا تحت جور يهول وبغي شرحه يطول · من ذلك ان عبد الله سلك في طريق الطغيان مسلكاً عجز عنه نيرون المشهور بظلمه فان عبد الله كان اذا جلس على مائدة

الهمام لا يستقر الاكل في جوفه الا اذا قطع رأس قبطي في اثناء الغذاء ويسر برؤية الدماء تسيل من الاجسام وكانت له عبارة عن احسن انواع المدام · وقد خطر على بال البطريرك اسكندر ان يدفع عن نفسه بعض الشر فذهب لزيارة عبد الله عندما جلس على كرسي الولاية وقدّم له انواع الخضوع والتحية الناتجة عن ذل وصغار لاتزال آثارها بادية الى الآن لم يكن نصيب هذا البطريرك البائس من المجاملة والطاعة الأ طرحه في السجن وطلب فدية له مقدارها ثلاثة آلاف قطعة من الذهب · ولا يخفى ان حكام مصر المسلمين كانوا على جانب عظيم من الجهل فهم استخدموا الاقباط في ادارة اعمال الحكومة وتدبير مهامها مع شدة بغضهم لهم ولم يستغنوا عنهم حتى في المعية التي لم يكن فيها غير الاقباط الذين توسلوا الى الامير لكي يخفض قيمة الغرامة المفروضة على البطريرك فلم يفلحوا ولكنهم افرجوا عنه بضمانة شماس وجيه اسمه جرجس تعهد باستحضار الدراهم المطلوبة بعد مضي شهرين · فلم يكن لدى هذا البطريرك المسكين سوى الاستعطاء والتسوّل والشحاذة فجال في الوجه البحري يتكفف ويلتمس الدرهم والدينار الى ان جمع له شعبه المبلغ المطلوب منه مما اتخذه عبد الله دليلاً على حسن حال الاقباط واثرائهم فزاد الضريبة السنوية المفروضة عليهم ثلاثة اضعاف وكان ذلك بدء اضطهاد شديد ذاق منه الاقباط عذاباً تصطك منه الركب وتشيب لهوله اللمم فاضطرّ كثيرون منهم الى اعتناق الدين الاسلامي رغماً عنهم على ان معظم الاقباط رضوا بالموت واستسهلوه في سبيل ايمانهم فماتوا

شهداء ولكن حكومة المسلمين لم تكن تسمح بدفن جثثهم الا اذا دفع اهلوهم اتاوة من الدراهم لهذا الغرض · ولم يقف البلاء عند هذا الحد بل ان اناساً كثيرين هجروا مصر تبعي ابناءها وقصدوا الامصار الاخرى وغيرهم مات من الجوع والتعب وكذلك هدمت الكنائس وتعطلت اماكن العبادة جوراً وعدواناً

وبعد هذا مد الله يده فاختطف روح عبد الله فخلفه قرة بن شريك وكان من طينة سلفه في العسف والجور فضيق الخناق على الاقباط واضطهدهم اضطهاداً مراً وطلب من البطريرك اسكندر ان يدفع له الغرامة التي دفعها لعبد الله وهي ثلاثة آلاف قطعة من الذهب فاعتذر اسكندر بضيق ذات يده وانه جمع المبلغ الاول بالتكشف والتسول وقد يصعب عليه جمعه الآن فلم يقبل هذا الجبار عذره وألح بطلب المبلغ والحصول عليه هذه المرة من الوجه القبلي · فسار اسكندر الى الصعيد يصحبه أمين صندوقه وكاتم اسراره فكان الشعب يقابله بالتهليل والترحيب ويعطونه ما تجود به اريحيتهم الى ان وصل مصر العليا فترك رفيقيه يجمعان المال وسار الى السودان

وحدث ان ناسكاً في الصعيد طلب من تلميذين له ان يبنيا لاجله صومعة في مكان غير المكان الذي كان يقيم فيه · فلما حفر هذان الراهبان جدار المنسك عثرا على كنز يحتوي على خمسة صناديق مملوءة من العملة اليونانية القديمة · فأوقع الشيطان — او اذا شئت الذهب — هذين التلميذين الزاهدين في تجربة عدم الامانة فانهما اتفقا ان يخبئا صندوقاً ويعطيا رئيسهما

الاربعة . فلما اخذ الناسك هذا الكنز قال انه هبة من الله ارسلها في الوقت الذي فيه الكنيسة معسرة محتاجة وحينئذٍ امر بارسال هذه الذخيرة الى البطريرك الذي لم يكن قد آب من الجنوب فسلمها الى امين صندوقه وكاتم سره فلم يؤتمنا عليها بل اخفياها عن البطريرك واخذاها لهما . فعند ما رأي الوالي المسلم ان مظاهر حياة هذين الرجلين قد تغيرت وانهما يسرفان ويبذخان اكثر من ذي قبل اشتبه في امرهما خصوصاً وانه وجد معهما كثيراً من هذه النقود اليونانية فقبض على احدهما وعذبه طويلاً حتى اعترف بما اقترف ودل على المكان الذي اخفى فيه هذه الصناديق الاربعة

فهذا الكنز الوافر الذي كان ينتظر ان يفيد البطريرك في ضيقه زاد في تعذيبه والتشديد عليه لان قرة لم يصدق بحكاية هذه الذخيرة التي وجدها الراهبان واخفاها زميلا البطريرك بل شن الغارة على الكنيسة الكبرى والبطريكخانة في الاسكندرية باحثاً منقباً عن الكنوز واللقايا التي ظن ان البطريرك يملك كثيراً منها ثم القى القبض على اسكندروس ووضع الاغلال في عنقه ولامه لانه اقسم بانه فقير لا يمتلك شيئاً واوشك ان يورده حتفه لولا ان البطريرك المسكين وعده بالحصول على اموال طائلة وظل سنتين كاملتين يسعى ويجد ويستعطي حتى جمع له المبلغ الاصلي المطلوب منه . فقويت الشبهة في نفس قرة وتصور انه يوجد في البطريكخانة معمل لصك النقود التي لم يكن العرب يعرفون شيئاً عنها الا في ايام الخليفة عبد الملك . فأرسل هذا الوالي الغاشم شرذمة من الجنود تبحث في منزل البطريرك ومع انهم لم

يجدوا فلساً واحداً فيه ولكن طبعهم الفظ وقلبهم القاسي لم يسمح لهم بالخروج من البطريكخانة دون ان يرتكبوا القسوة والخشونة فصاروا يجلدون البطريرك بالسياط حتى سال الدم من جسمه متدفقاً وتركوه بين حي وميت واخذوا جميع اواني الكنائس فلما جاء عيد الفصح مارس البطريرك فريضة العشاء الرباني في كأس من الزجاج وصينية من الخشب . ولم ير الاقباط راحة وهناء الا لما عينت الحكومة قبطياً يجمع منهم الضرائب الثقيلة المضروبة عليهم وبذا استراح اسكندر هنيهة وشرع في افتقاد حالة شعبه والجولان بينهم معزياً مواسياً .

وقبل ان يكف قرة عن الاضطهاد والظلم وجد الوفاء من الاقباط يهجرون وطنهم العزيز فراراً من الجور الثقيل فعين احد الضباط لمنع المهاجرة وقتل كل من شرع فيها . وفي هذا الزمن دهم مصر طاعون مهلك ضاعف شقاءها ومصابها ولكنه رفع عنها اكبر طاعون لانه اصاب قرة فأدمى فؤاده وقصف عمره والذي جاء بعد قرة لم يمكث سوى ثلاثة شهور فقط خربت فيها اكثر كنائس الاسكندرية لان المسلمين هدموها واخذوا حجارة المرمر والرخام وباقي انواع الزينة والزخرف التي كانت فيها ووضعوها في جوامعهم التي كانت لا تبنى الا بهدم الكنائس القبطية وتقويض اركانها بعد تقويض اركان الامة القبطية التعيسة التي سارت في ذلك العهد الى الفناء من كثرة الظلم والاضطهاد (١)

(١) يذهب اكثر السائحين في ايامنا هذه الى ان الاقباط في الاعصر الاولى كانوا يسرقون اعمدة الهياكل الوثنية ويضعونها في كنائسهم . وهذا الزعم

وقد تولى على مصر عصامة بن يزيد الذي اضطهد الاقباط اضطهاداً اكثر قسوة واشد وقعاً مما سبقه خصوصاً وانه زاد الضريبة المفروضة على الرهبان واخترع لهم طريقة جديدة بها يتأكد من دفع الجزية الرايبة . ذلك انه امر باعطاء كل راهب يدفع الاتاوة قطعة من الحديد يكتب عليها اسم ديره والسنة التي دفع فيها الجزية ويلبسها على يده اليمنى سواء في الدير أو خارجه وكل من يخلع هذه الثمرة يكون جزاءه الموت اما بقطع رأسه او بجلده بالسياط جلداً مميتاً . وقد غالى هذا الوالي في تعذيب الاقباط فكان يجدع انوفهم ويقلع اعينهم ويصلم آذانهم ويقطع ايديهم ويجز أرجلهم ويبتر اي عضو من اعضائهم ثم يميتهم ويضم ممتلكاتهم الى ماله الخاص دون ان يرتكبوا ذنباً او يشرعوا في خيانة بل لانهم كانوا متمسكين بدينهم حريصين على ايمانهم الذي اوجد لهم عذاباً واضطهاداً بل موتاً احتملوه فرحين مسرورين . وقد كثر المهاجرون من الاقباط رغماً عن منعهم وتهديدهم بالموت اذا هم تركوا بلادهم كما اشرنا قبلاً فأصدر عصامة امراً يحتم على كل قبطي بأخذ جواز للسفر

فاسد لا اساس له لان المسيحيين المصريين في القرون الاولى كانوا لا يستعملون شيئاً مما خص بالاصنام حتى انهم كانوا اذا اجبرتهم الضرورة على بناء كنيسة داخل اسوار هيكل خرب فهم كانوا يطمسون الكتابة المصرية القديمة بالجير ويأتون باعمدة يصنعونها بأيديهم ويقيمونها في مكان بعيد عن مكان اعمدة الوثن . وفي هذا القرن فقط اهدى احد المديرين اعمدة قديمه وضعت في كنيسه قبطيه حديثه بناها اقباط الاقصر وهذا كل الذي عرف عن هذه الاعمدة القديمه

(باسبورت) قبل مبارحة مصر او حتى اذا انتقل من بلد الى آخر داخلها
يدفع مقابل ذلك عشرة دنانير (او ٦٠٠ غرش صاغ) ومن خالف
القرار تبتر يداه الاثنتان . وحدث ان ارملة فقيرة حفها ظلم الظالمين قصد
الفرار من هذه الديار مع ابن لها وحيد فباعت كل ما تملكه واشترت جواز
لها ولابنها واعطتهما له ليحفظهما معه . ففي صباح يوم مشوم اقترب
من شاطىء النيل يستقي ماء فهجم عليه تمساح كان في الماء وابتلع الصبي
مرأى من والدته التي انفطر قلبها حزناً على وحيدها وذاب كبدها
فلذة فؤادها خصوصاً وانها في بلاد غريبة ليس من يرق لها او يرثي
وقد أصبحت ثكلى تندب ابنها ومعدمة تأكل الثرى وتفترش التراب
اضطرت ان تبيع ملابسها وتتسول باقي الدراهم ليس لتسد رمق الجوع
احشاها بل لتشتري لها جوازاً بدل الذي ضاع مع ابنها والا اضاعت حياتها
لم يبق لها غيرها

واسباب هذه المظالم الباهظة والمغارم الثقيلة والبغي الوخيم أخذت
تتأهب لثورة ضد المسلمين لولا ان مات الخليفة سليمان بن عبد الملك
الوليد وخلفه ابن عمه عمر بن عبد العزيز الذي افتتح اعماله بانه سجن
مصر الظالم وامانه في السجن اشنع ميتة وكان ذلك سنة ٧١٧ (٩٩هـ)
بدله ايوب بن شرحبيل فوقف سير الاضطهاد مدة خلافة عمر التي
سنتين فقط اذ مات وبويع بعده يزيد بن عبد الملك الذي عزل ايوب
بدله بشر بن صفوان وأمره ان يخير اقباط مصر وجميع ما كنيها بين

وهما اما ان يعتنقوا الديانة الاسلامية واما يتركوا البلاد وكل ما يمتلكونه فيها . فعد الاقباط الشرط الثاني مرحمة وعدلاً لانه سمح لهم بالهرب من وجه الظلم بعد ذلك التضييق الذي شرحناه قبلاً فهجر الوطن كثيرون منهم حتى اصفرت مديريات برمتها وخلت من السكان فانتهز المسلمون هذه الفرصة وصبوا قسوتهم على الكنائس فهدموا اكثرها ولكنهم ابقوا على بعضها فأزالوا منها الصور والصلبان وغيروا باقي معالمها وصيروها جوامع ومساجد لهم . وهكذا تعاقب على مصر ولاة يعوزنا الوقت لذكر اسمائهم واعمالهم التي تنحصر في شيء واحد وهو تعذيب الاقباط واضطهادهم وسلب اموالهم وهتك اعراضهم وقتل الاجسام والارواح منهم وظل هؤلاء الولاة في قسوتهم ووحشيتهم الى ان تولى مصر الحسن بن يوسف ومعه غز اسمه عبيد الله عين لجمع الضرائب فزاد هذان الاثنان في كأس الظلم مرارة حتى طفح ولم يبق في قوس الصبر منزع فقام الاقباط يدافعون عن حريتهم وأرواحهم ولكنهم لم يفلحوا لانهم كانوا يقاتلون رجالا لم يتعلموا شيئاً في حياتهم غير القتال وسفك الدماء . وقد بدأت هذه الثورة سنة ٧٢٥ في جهة مديرية الشرقية ولم يقف الاقباط طويلاً في وجه اعدائهم لعدم دربتهم وضعف سواعدهم فدارت الدائرة عليهم ولكنهم لم يفروا من وجه اعدائهم بل وقفوا جامدين في اماكنهم حتى ذبحهم المسلمون عن آخرهم ولم يستبقوا واحداً منهم كما شهد مؤرخو العرب بذلك وقالوا ان المسلمين قتلوا خلقاً لا يحصى من الاقباط في هذه الواقعة

وبعد ان أطفئت جذوة الثورة استدعى والي مصر البطريرك القبطي

اسكندر الذي علم نتيجة هذه الدعوة ففر مع حامول اسقف اوسيم (بـ
الجيزة) فلم يصلا الى بلدة مريوط حتى اصاب البطريرك مرض
اراحه من عذاب الاضطهاد واخذ حياته الى الاحضان السموية
الاقباط وحزنت عليه رعيته حزناً مفرطاً . وكان مرض البطريرك سبـ
اعاقة اسقف اوسيم عن الهرب فقبض عليه اعوان الوالي وجاؤوا به امامه فـ
منه الف قطعة من الفضة فداء عن نفسه ولما لم يقدر الاسقف على رفع
المبلغ الهائل جلده المسلمون في شوارع الفسطاط وبابليون وصاروا يطو
به الازقة والطرقات وهم يضربونه ويصفعونه حتى وصلوا الى كنيسة مارجر
بمصر القديمة حيث ربطوه على بابها وصاروا يجلدونه بالسياط والمقارع
اشرف على الموت فجمع له الاقباط ٣٠٠ قطعة من الذهب وخلصوا حياته

وقد استلفتت الثورة السالفة الذكر انظار الخليفة الى مجرى الامو
مصر فعزل الوالي المذكور فاستراح الاقباط برهة من الاضطهاد مدة ر
البطريرك قزمان (أو قزما) الذي جاء بعد اسكندر ولكنهم لم يستريحوا
الضيق والظلم وجميع اصناف المغارم . وفي هذه الاثناء تحصل الاقباط
اذن به بنوا كنيسة مار مينا بمصر القديمة فغضب المسلمون وحنقوا بسبب ذ
ولم يرضهم اعفاء الاقباط من الاضطهاد فابتلى الله مصر بضربتين اسك
هؤلاء الناقمين وهما الجوع والوباء اللذان افنيا من سكان مصر الوفاً وعشرا
الالوف . ثم اعقبت ذلك ضربة ثالثة هي جماعة من العرب هاجروا الى مـ
بلغ عددهم نيفاً وثلاثين الفاً أحلهم الوالي على الرحب والسعة في الجبل الو

عند الفسطاط واذن لهم بنهب البلاد وسلب ما اتصل اليه ايديهم الطاعة الخطافة . وبعد هنيهة مات هذا الوالي واسمه عبد الرحمن بن خالد (وبعضهم يذهب الى ان الخليفة هشام بن عبد الملك عزله عزلاً) وولى بدله حنظلة ابن صفوان وهذه ثاني ولاية له على مصر . وكان الرجل كاسمه قاسياً ظالماً مضطهداً للاقباط فضاعف الضرائب المفروضة عليهم ثم وسم كل قبطي بميسم من نار كما تكوى الحيوانات علامة لها

وفي هذا الاوان توفي البطريرك تاودروس الذي اعقب البطريرك قزمان فلم ينتخب الاقباط غيره لداعي الشقاق الذي وقع بين اكليروس الاسكندرية وباقي القسوس في القطر المصري

وكانت الكنيسة الرومانية حينئذٍ لتوهم ان خليفة المسلمين ميال لجانبها فسعى رجالها في استرجاع بعض ما فقدوه من السلطة ووضع اليد على ايراد الكنيسة القبطية الذي كانوا يأخذونه قبل ان تدول دولتهم ويهرب بطريركهم بطرس منذ ستين سنة مضت قبل هذا التاريخ الذي نحن في صدده . وليس بعد انحطاط هذه الافكار انحطاط سوى ان يكون تقهقر هذه الكنيسة وتدهورها كما شهد بذلك مؤرخو الرومانيين انفسهم الذين قالوا بصريح العبارة انهم بحثوا وقتئذٍ على رجل يعينونه بطريركاً لهم فلم يجدوا اليق من خياط اسمه قزما لا يدري القراءة ولا الكتابة . فلما تمت رسامة هذا البطريرك الأمي ارسل وفداً الى الخليفة هشام ليبث له شكواه من الاقباط الذين اعتدوا على كنيسته على زعمه في زمن الفتح الاسلامي ولقبوا انفسهم بالكنيسة الوطنية وهو لقب لا يحل لهم في

في مذهب هذا البطريرك الغافل . وليس يخفى على القارئ ان الخسارة التي لحقت بالكنيسة الرومانية كان منشاءها فرار بطريركهم بطرس ولكن هؤلاء الاروام ادعوا زوراً ان البطريرك بنيامين الذي شهد الفتح العربي وخلفاءه من بعده قد جردوهم من ايراداتهم ومقتنياتهم ووطنيتهم واولويتهم ولذلك طلبوا من الخليفة اعادة جميع هذه الحقوق لهم . فصادف هذا الطلب قبولاً في نفس الخليفة الذي كان يترقب الفرص للتداخل في شؤون مصر الداخلية وسرّ لانه وجد في مصر طائفة من المسيحيين يمكنه ان يحارب بها تلك القوة المسيحية الكبرى اعني بهم الاقباط الذين عصوا عليه قبلاً وصادق بطريركهم على ذلك العصيان . فاكرم هشام مثوى قزما الروماني واصدر امره لوالي مصر بوضع جميع الكنائس في القطر المصري وكل متعلقاتها في قبضة هذا البطريرك الجاهل . فلم يستطع الوالي تنفيذ هذه الاوامر الجائرة حرفياً ولكنه اخذ اكثر الكنائس المهمة عنوة واقتداراً من ايدي الاقباط واعطاها لثالة الاروام في مصر ومن ضمنها الكنيسة القيصرية الكبرى وكنيسة الملائكة في الاسكندرية التي كان قد بناها الاقباط لما اخرجهم الامبراطورة الرومانيون من القيصرية في ابان مجدهم ووقت عتوهم وضغطهم . وقد بقي الكرسي القبطي مدة من الزمن بدون بطريرك لان الوالي المسلم لم يمنح الاقباط رخصة بتعيين بطريرك لهم الا اذا دفعوا له مبلغاً وافراً من المال لم يكن في طوقهم دفعه

وفي هذه الفترة بلغ ظلم حنظلة وعتوه مبلغاً لا تطيق الانفس مرارته فعزله الخليفة هشام من مصر وولاه امرة افريقية واقام بدله حفص بن الوليد

الذي اذن بالتئام اساقفة الاقباط في بابيلون لانتخاب بطريرك لهم . وكان الخلاف بين اكليروس الاسكندرية واساقفة مصر لا يزال مستحكماً فلم يقر رأيهم على انتخاب شخص معلوم ولذلك رفعوا الامر الى موسى اسقف اوسيم الذي كان محترماً بين قومه موقراً عند رعيته وقد منعه مرضه وكبر سنه عن الحضور الى بابيلون لفض هذا المشكل فاحضره الشعب بطريقة تعرفها من الفصل التالي

الفصل السابع والثلاثون

﴿ عصيان الاقباط ﴾

وسقوط الدولة الاموية

سنة ٧٤٣ للمسيح و٤٥٩ للشهداء و١٢٤ للهجرة

اشتهرت بلدة اوسيم عدة قرون بكثرة كنائسها ومتانة مركزها الديني ولكن اخنى عليها الفتح الاسلامي كما اخنى على كثير غيرها من المدن المسيحية فمد رواق ظلمته عليها واطفى نورها الوضاح فاصبحت هذه المدينة الشهيرة في اوائل القرن التاسع عشر قرية حقيرة لا يذكرها الذاكرون ولا يعرف موقعها احد من الباحثين المجتهدين حتى ظنها بعض المؤرخين قد تلاشت واضمحلت مع انها لا تزال قائمة الى الآن على مسيرة ساعتين من كوبري امبابه المعروف شاهده على ما كان لها من المجد والسؤدد سواء في ايام الوثنية قديماً حيثما كان

فيها هيكلان عظيمان للاوثان احدهما في شمالها والاخر في وسطها او في عصر المسيحية اذ امر الامبراطور قسطنطين بهدم هذين الهيكلين وتشييد كنائس في موضعها . وقد قال احد الكتاب انه مضى على اوسيم زمن كان فيها نحو ثلثمائة ستة وستين كنيسة مما يدل على انها كانت مقراً لعلماء اللاهوت ومهبطاً للمباحث الدينية النافعة مدة من الزمن . ولا يظن القاري ان في عدد الكنائس هذه شيئاً من المبالغة والغلو لان المؤرخ المذكور ربما يقصد بالكنيسة المذبح وكانت الكنيسة تحتوي على ثلاثة مذابح كما هو الحال الان فلا يبعد وجود هذا العدد من المذابح والمعابد في مدينة كانت شهرتها تقطية فائقة على مثالها اسلفنا . والذى يزور اوسيم الان و يجيل طرفه في انحائها يرى آثاراً دارسة واطلالاً بالية لكنائس مسيحية وهياكل وثنية كانت فيها في قديم الزمان . الا ان الكنيسة القبطية الموجودة فيها الان حديثة العهد مثل اكثر الكنائس القبطية في القطر المصري التي بناها الاقباط في عهد الاحتلال الانكليزي دون ان يلاقوا عناء وبلاء في بناءها كما ذاقوا قبل زمن الاحتلال . وبجوار هذه البلدة توجد رابية مرتفعة يعلوها سور قديم متهدم هو جامع للمسلمين الان وكان هذا السور قبلاً محيطاً بكنيسة قبطية قديمة لا تزال اعمدتها الحجرية قائمة وفوقها قوائم ورؤوس من الحجر المنحوت المحدب يصلها بعضها ببعض . وخارج هذا السور قطعة حجر كبيرة كانت في الجدار حفر فيها صليب مجوف كبير تراه العين على بعد . واذا ذهبت الى هنالك واجلت طرفك هنيهة لرأيت هذا كله ولنظرت ايضاً اساساً قديماً نقش على حجارته

كانت وصور من اللغة الهيروغليفية القديمة مما يدلك على ان هذا المكان كان هيكلا وثنياً فصار كنيسة مسيحية وصار جامعاً اسلامياً كما ذكرنا . وقد كان على مقربة من اوسيم دير زاهر بناه تاجر سوداني سكن هذه البلدة قبل حكم ديوكلتيانوس الظالم باربعين سنة . وقد ظل هذا الدير عامراً مدة الف سنة او تزيد الى ان اخربته يد الظلم والجور

في ايام الخليفة هشام كانت اوسيم في اوج مجدها وعظمتها وقد زادها شهرة اسقفها موسى الذي اشتهر بتقواه وعلمه . ولما ان هذا الاسقف المفضال كان مريضاً عند ما جاءه وفد من بابيلون يستشيره في مسألة انتخاب البطريرك لم يقدر موسى على الذهاب الى بابيلون لضعفه ووهنه فحمله الرجال على نقالة من الخشب فوقها مرتبة من القش وساروا به وسط الحقول الخضراء والرياض الفناء حتى وصلوا به الى كنيسة المعلقة حيثما التأم الاساقفة لاختيار بطريرك لهم . ويظهر ان الخلاف الذي طرأ بين الاكليروس كان سببه ان الحزب الاسكندري رشح شخصاً لم تقبله البلاد برمتها وكذلك الاسكندريون لم يرضوا بالذي اختاره باقي اخوانهم المصريين فهاجوا وماجوا وما سمعوا نصيحة موسى فقام هذا الاسقف الموقر واقفاً على قدميه وامسك عكازه بيده وطرد هؤلاء الجماعة من الكنيسة طرداً دون ان يقاومه احد منهم . وهكذا انقضى النهار ولم ينتخب البطريرك

وعند ما جن الظلام ودخل الاب موسى غرفته ليستريح ومعه شماسه صرف الاثنان ليلهما في التفكير والتدبير علهما يهتديان الى شخص تقبله

الاحزاب المتنافرة المتخالفة واخيراً خطر ببال الشماس راهب اسمه خائيل من دير انبا مقاره لم يكن موجوداً في بابيلون في ذلك الحين . فلما اشرق الصباح بنوره واجتمع المنتخبون في الكنيسة وهم على ما كانوا عليه من التناقض والتنافر دخل موسى وذكر لهم اسم خائيل الذي كانوا يحترمونه كلهم فصادقوا باجماع الاراء على تعيينه بعد ان تعبوا من الجدال وسئموا من القيل والقال . ولما صادق الوالي على تعيين خائيل سار وفد الى وادي النطرون ليجيء به فالتقى هو بهم في الطريق مع زمرة من الرهبان جاءوا ليعترضوا على اجراآت الوالي السابق . فبشرهم الوفد المذكور بعزل ذلك الوالي ونفيه و بانتخاب خائيل بطريركاً للكنيسة القبطية

ولم يدم السلام في مصر اطول من العادة بل فارقها وحل بها الشقاء والويل عند ما مات هشام وخلفه الوليد بن يزيد الذي عزل حفص وعين بدله حسان بن عتاهية الذي اضطهد الاقباط واذاقهم من العذاب اشكالاً سوداء . وفي ظرف اربع سنوات تعاقب على كرسي الخلافة اربعة من الخلفاء وكثير من الولاة في مصر لا حاجة لذكر اسمائهم سوى ان جميعهم ساروا على وتيرة واحدة هي تعذيب الاقباط ومضايقتهم واضطهادهم حتى اضطر اكثر هؤلاء البائسين الى بيع املاكهم ومقتنياتهم للتخلص من الظلم ودفع شر العتاة حتى اولادهم بيعوا عبيداً ارقاء وقبض ثمنهم الولاة المسلمون ليسدوا جشعهم الاشعبي وطمعهم الذي لا حد له . وقد هجر اكثر الاساقفة ابروشياتهم وكمنوا في الاديرة فراراً من العذابات المريعة ودارت الدائرة المشؤمة

الاقباط فارتدوا عن الايمان القويم واعتنق كثيرون منهم الديانة الاسلامية اما تخلصاً من اضطهاد شنيع واما قبولاً لوعد واغراء هوان الولاة اعفوهم من التعذيب اذا هم نطقوا بالشهادتين على شرط ان يبقوا مسيحيين فعلاً ومسلمين اسماً ولكن النتيجة السيئة كانت واحدة من الجهتين فان ابناء هؤلاء المساكين صاروا مسلمين فعلا لا قولاً

قيل ان الذين انكروا الديانة المسيحية واعتنقوا الاسلامية في هذه المدة القصيرة يربون على اربعة وعشرين الفاً من الاقباط وذلك لسبب ما لحق بهم من الاضطهاد الشديد والعذاب المريع وقد صرف موسى اسقف اوسيم ما بقي له من الجهد والقوة في تعزية البائسين وجبر قلوب المحزونين وكان هذا الحبر الهمام اليد اليمنى للبطريرك خائيل في ايام المصائب هذه . وفي ذلك الوقت قام مروان بن محمد الملقب بالحمار ضد الخليفة ابراهيم بن الوليد فاغتصب الخلافة منهُ وصار سيد العالم الاسلامي ومن ثم عزل والي مصر وعين بدله حوثرة بن سهيل الذي اراح الاقباط قليلا من ذلك الظلم الهائل الذي قاسوه في ايام اسلافه ولذلك صرف البطريرك اكثر اوقاته في قبول توبة الذين انكروا المسيحية ثم عادوا الآن اليها بعد انقضاء زمن الاضطهاد الذي اجبرهم على اعتناق الاسلامية

ولنرجع لحكاية البطريرك الروماني قزما المعروف بغباوته وتغطرسه الذي ظل ساكناً منزوياً في ايام الضيق فلم يبد حراكاً ولكن لما استراح الاقباط هنيهة وشاركهم مسيحيو مصر في هذه الراحة تحرك قزما من مكمنه

وقام يناصب الاقباط العداء ويوالي هجماته على كنائسهم مدعياً انها من حقوقه الشرعية . ولم يكتف هذا الجاهل بالجدال والنضال بل رفع دعواه الى الوالي المسلم طالباً منه ان يعطيه كنيسة مارمينا الكائنة في مريوط وما يتبعها من ايراد كثير ومتاع وفير . ولكي يعرف القارئ مقدار اهمية هذه الكنيسة التي اختصها قزما من باقي الكنائس نشرح له موقعها وشأنها في ذلك الوقت . فقد كانت كنيسة مارمينا هذه مبنية في مدينة مريوط الواقعة في الصحراء بين الاسكندرية ووادي النطرون . ولا يوجد شيء من معالم هذه الكنيسة في وقتنا الحاضر سوى اطلال دوارس لا تزال قائمة هنالك وعليها كتابات قديمة نقلها مؤرخ فرنساوي عن كتاب عربي بخط اليد نأتي هنا على نصها اتماماً للفائدة :

(ان كنيسة مينا تحيط بها ثلاث مدن خربة واقعة في وسط صحراء جدباء لا تزال مباني بعض منازلها قائمة للآن اتخذها العرب كميناً ينقضون منه على التجار وعابري السبيل فينهبونهم ويسلبونهم اشياءهم . وفي هذه البقعة توجد صروح سامقة وقصور شامخة بنيت على نسق هندسي جميل فيها غرف واروقة مقبوة فخيمة يسكن فيها الرهبان والناسكون . وماء الشرب هناك مريء لذيذ ولكنه شحيح قليل

اما كنيسة مارمينا فهي بناء واسع فخيم مزينة بالتماثيل البديعة والصور الجميلة تظل الشموع موقدة فيها نهاراً وليلاً . والداخل الى هذه الكنيسة العظيمة يجد في ناحية منها جدث قيل ان مارمينا دفن فيه وبجانب الجدث تمثالا جملين من الرخام يعلوهما تمثال رجل وضع كلتا رجليه على الجملين واحدى يديه مبسوطة والاخرى مقبوضة . وهذا التمثال خص بمارمينا وفي الكنيسة ايضاً تماثيل

القديسين يوحنا وزخاري وليسوع المسيح مصنوعة من الرخام الناصع وملصوقة في العمدة متينة قائمة عند باب على يمين الداخل لا يمكن لاحد فتحه . وفيها تمثال مريم العذراء وضع خلف ستارتين وحوله انصبة عديدة لجميع الانبياء . وفي حوش الكنيسة صور مجسمة للحيوانات على اشكالها وللناس على اختلاف اجناسهم وبينهم عبد اسود يمسك في يده كيساً للنقود مقلوباً مما يدل على انه كان تاجراً وافلس . وفي وسط الكنيسة قبة كبرى قيل ان فيها ثمانية تماثيل للملائكة

وعلى مقربة من الكنيسة جامع فيه محراب وجهته القبلة حيث يوجه المسلمون وجوههم شطر المسجد الحرام عندما يصلون . وحول هذه الكنيسة جنات فيحاء فيها من كل فاكهة زوجان واكثرها اللوز والخروب وكان القوم يصنعون منها اشربة ومرطبات لذيذة فاخرة . وفضلاً عن الفواكه فان الكروم كانت كثيرة عصرت منها الانبذة والخمور بمقادير وافرة)

فايراد كنيسة مار مينا التي وصفناها لك بالاسهاب لم يكن يقل عن الف دينار سنوياً حتى في زمن انحطاط مريوط وخرابها . وكان ايرادها الكثير سبباً في تطلع الاروام الى وضع يدهم عليها مع انها لم تكن لهم في زمن من الازمان وما اقاموا فيها حجراً ولا سمعوا عنها خبراً سوى لما تفتحت اعينهم الى سلب الكنائس القبطية من بداءة لم تتركها احقر الامم الا واعتدت عليها . فعند ما استعان قزما بالوالي على اخذ هذه الكنيسة استدعاه الوالي مع البطريرك خائيل وطلب منهما ان يضع كل منهما تقريراً يذكر فيه ماله من الحقوق لامتلاك الكنيسة المذكورة . فبعد ما قرأ الوالي التقريرين لم يجد وجهاً يخوّل لقزما اغتصاب الكنيسة ولذلك حكم برفض دعواه واحقية الاقباط فيها . الا ان هذه الدعوى الفارغة افادت قزما من وجه آخر فانه

جمع مبلغاً طائلاً من المال من زمرة الاروام بينما خائيل لم يكن لديه مال. رئيس الكنيسة الوطنية التي يدخل في دائرتها جميع المصريين الذين كانوا اقباط في ذلك الوقت . ولكن ليس كل الشرف والمجد في كثرة المال ووفرة الذهب كما يظن بعض صغار العقول في هذه الايام بل للمرء صفات وفضائل يعرف بها ويمتاز على الاقران بواسطتها بينما الذهب لا يميزه بشيء . واحسن مثال على ذلك البطريرك القبطي خائيل الذي عرف بدماثة الاخلاق واخلاص القلب حتى انه بعد كل هذه المماكسة والتحكك اللذين ابداهما قزما مع خائيل في مصادقته ومصافاته فلما حان وقت الضيق والاضطهاد كان البطريركان يداً واحدة في دفع الظلم والجور عن كنائسهما في كثير من الحوادث التي وقعت فيما بعد كما سيجيء

ومع ان السلطة الاسلامية كانت قد بلغت شأواً عظيماً في ايام الدولة الاموية وافتتاحات افريقيا وسرياقوسة الصغرى وقرطجنة واكثر انحاء اسبانيا الا ان الانشقاق الداخلي والحروب الاهلية التي كانت تستعر بين آونة واخرى بين المتزاحمين على الخلافة اوجدت خبالاً في الحكومة الاسلامية حتى انهم لم تقم لهم حكومة منتظمة ولا استتب لهم امر في قطر من الاقطار التي افتتحوها بل كانوا يحكمون في جميع البلاد التي ساقها حظها للوقوع في يدهم احكاماً اشبه بالاحكام العرفية في هذه الايام . والذي زاد في ضعف المسلمين واوجد الوهن في قواتهم حروبهم الكثيرة في بلاد المغرب وقيام مروان بن محمد الحمار آخر خلفاء الدولة الاموية الذي لم يشتهر سوى بسفك الدماء والميل للعسف والانتقام

حتى اجهز على قوة العرب ووضع حداً متيناً لفتوحاتهم الباهرة فوقفوا عند الدرجة التي وصلوا اليها حتى لم يكن في طوقهم مغادرة اسبانيا التي بقوا فيها عدة قرون دون ان يتعدوا حدودها او يملكوا شبر ارض من اوروبا غيرها ·
ولما كان الحديد لا يفله الا الحديد فقد قام من المسلمين رجل عات جبار اسمه ابو العباس بن محمد الذي اشتهر بقوته وجبروته حتى لقبوه بالسفاح ومعناه سافك الدماء واخذ يناجز مروان ويقاومه

ففي اثناء هذه المناوشات والحروب انتهز عبد الملك بن مروان والي مصر بعد حوثره فرصة انشغال مروان وارتباكه وشن الغارة على الاقباط واضطهدهم اضطهاداً فظيعاً وقبض على البطريرك خائيل وموسى اسقف اوسيم و ٣٠٠ قبطي وقبطية وزج الجميع في سرداب مظلم حرج استعمله البطريرك والاسقف كنيسة فيها يواسون المسجونين معهم ويصرفون عنهم بعض كربتهم · وبينما كان هؤلاء المساكين في ضيق يكل القلم عن وصفه ينتظرون دنو الاجل بين لحظة واخرى اذ جاءتهم نجدة من السودان لم يكونوا يتوقعونها تخلصهم من ضيق وهم عظيمين

ذلك ان بلاد النوبة او هي السودان التي قلنا لك في ما سبق انها ذاقت هواناً اكثر من مصر لسبب غارات العرب عليها لاخذ جزية العبيد السنوية منها كانت احسن حظاً من مصر لعدم وقوع اضطهاد وضنك عليها كما وقعا في هذا القطر الاسيف الذي خربت فيه بلاد برمتها ولم يبق فيها ساكن لسوء ما اصابها من سيف ونار بينما كان السودان عامرا بسكانه

آهلا بابنائه فيه ملك اسمه مركريوس قد تعلقت قلوب رعيته على حـ
واجمعت افئدة شعبه على احترامه ومدحه حتى لقبوه بقسطنطين الثاني .
وبعد وفاة مركريوس رفض ابنه الاكبر زخاري قبول تاج الملك ميا
منه الى الراحة والابتعاد عن عناء الرئاسة فجلس على الكرسي ابناءه الاخرا
ابراهيم ومرقس ولم تكن مدة حكمهما طويلة لان الاثنين قتلا بايدي
الحزبين المختلفين فآل الملك حينئذ الى رجل يدعى قرياقوص اشتهر بعـ
همته وسمو مبادئه وقوة بأسه

وفي هذا الوقت كان السودان يئن متوجعاً من الظلم الذي لحق به من
المسلمين والجور الفادح الذي كاد يؤدي بهذه البلاد ويلاشي سكانها لان
سادتنا العرب القساة لم يكتفوا بالجزية السنوية المضروبة على السودان
من العبيد بل كثيراً ما هاجموا هذه البلاد واخذوا من سكانها عدداً كبيراً
من الناس صيروهم ارقاء وباعوهم في مصر بيع السائمة وتجروا فيهم كما يتجر
الجاهل في سقط المتاع ولذلك حنق السودانيون وغضبوا فاختلس مليكهم
قرياقوص فرصة الحرب القائمة بين مروان وابي العباس وبداء بتداخل في
شؤون مصر بحجة ان واليها يضطهد الاقباط ويعذبهم . واول عمل اتاه
قرياقوص ارساله احد اشراف مملكته المسمى ابريقيس ليطلب من عبد الملك
اطلاق سراح البطريرك القبطي حالاً . ولما كان هذا الوالي لا يعرف
مركز ملك السودان وقوته قبض على ابريقيس واودعه السجن احتقاراً لمرسله
وازدراء بطلبه . فلما سمع قريافص بذلك لم ترض همته القعود بل جهز جيشاً

جراراً سار فيه فرسان وهجانة ومشاة كعدد الرمل وسار به على لمصر واشتهرا . قال الشماس يوحنا تلميذ خائيل الذي كتب تاريخاً عن حياة مولاه « لقد اثبت لي شهود عدول ان الخيول التي كان يمتطيها رجال قرياقوص لم تكن اطول من الحمير ولكنها كانت تفعل العجائب عند اشتعال نار الحرب في انها تنض وتنهش وتضرب بيديها ورجليها فتنهزم العدو ولولم يتحرك راكبها »

وكان الاقباط في مصر الى ذلك العهد يربون عداً عن المسلمين فيها فرحبوا بقرياقوص وفرحوا بقدومه فكانوا يقابلونه بتهليل وسرور الى ان وصل هذا الملك الشجاع الى ابواب مدينة الفسطاط بعد ان كسح في طريقه جميع قوات المسلمين وفل جموعهم وحل عزائمهم . فلما علم عبد الملك بذلك اصطكت ركبتاه فافرج حالاً عن ابريقيس ورجاه ان يقنع مولاه بالعودة عن مصر على اي شرط يرضاه ثم اطلق سراح البطريرك خائيل ايضاً واجبره ان يكتب لقرياقوص بانه في حالة سارة قارة مما جعل هذا الملك السوداني يعود ادراجه بعد ان ساق امامه عدداً لا يحصى من المسلمين اتخذهم عبيداً خادمين

ومعلوم انه لا يقيم على وعده ويثبت في كلامه الا الرجل الهمام الشريف الذي يستسهل ضياع حياته على الاخلال بوعده . اما اللئيم العديم المروءة لا يقيم على وعد ولا يسير على مبدأ الا ريثما تنفرج ازمته ويرتفع الضغط عنه . فان عبد الملك بعد عودة قرياقوص اخلف وعده وحنث في يمينه وصب

كاسات ظلمه ورجزه على الاقباط لحد اضطرهم ان يستعدوا للثوران والعصيان
وكثيراً ما كان الظلم واسطة للجمع بين قلوب متنافرة اذا كان وقعه علي
متساوياً . فان البطريركين القبطي والرومي اطرحا اسباب الشحناء المذهبي
واتفقا على القيام ضد اعداء دينهما قومة واحدة فسارا في مقدمة الثائرين
واوجدا فيهم قوة وشجاعة كانا سبباً في بعض النجاح الذي بدأ في اوائل هذ
الثورة التي اشتعلت نارهـا الآن في الوجه القبلي حيث انتظر الاقباط عو
ونجدة من جيرانهم السودانيين . اما عبد الملك فجمع جيشاً عظيماً من العرب
والتقى بثوار الاقباط فحدثت بين الجيشين معركة شعواء دارت الدائرة في
على المسلمين بعد ان خسروا من رجالهم عدداً وفيراً . وقد قويت شوكة
الاقباط بهذا الانتصار الباهر فلم يكتفوا بالمواقع التي اكتسبوها من اعدائه
بل ساروا مجدين خلفهم الى ان جاء الخليفة مروان بجيش عرمرم فلم يقف في
وجه الاقباط ايضاً وهزم امامهم كما هزم امام جيش السفاح الظافر . وكان
قائد ثوار الاقباط بالوجه البحري في اكثر المعامع هولاً رجل اسمه يوحن
من سمنود غريبة حاز نصراً عجيباً ولكنه لم يقدر يرد حرافيش العرب وزعانف
جيشهم عن نهب البلاد وسلبها اثناء تقهقرهم لان قائدهم مروان اذن لهم بذلك
كما انه اشعل ناراً في مصر القديمة واحرق جميع مساكن الاقباط فيها وهي حيلة
المغلوب المقهور . وكانت نتيجة هذا كله ان الاقباط تحصلوا على شبه استقلال
قبل موت مروان وظلوا تحت رئاسة بطريركهم مدة قليلة ثم دار دولاب
الزمان كما هي عادته معهم من قديم الازل فما جاءت سنة ٧٥٠ حتى فقدو

زهرة رجالهم واشم ابطالهم الذين ادخروهم للملمات · فان مروان استجمع قوته واعاد الكرة عليهم فانتشب بينه و بين يوحنا السمنودي قتال في الوجه البحري انتهى بانكسار هذا وقتله مع نخبة رجاله البواسل وكذلك خان الاقباط سعدهم في الوجه القبلي فهزموا ووقع البطريركان القبطي والرومي في يد جيش المسلمين فسلموها الى مروان الذي امر بسجنهما

وقد افتدى قزمان بطريرك الاروام نفسه بدفع الف قطعة من الذهب وما خرج من سجنه حتى فرّ من مصر فرار الانسان من لهيب النار ولم نعد نسمع عنه شيئاً الا بعد مضي خمس سنوات عند ما اشتد الخصام والنزاع بين رهط الاروام في مصر بخصوص كسر الصور والايقونات · اما خائيل فلم يكن لديه مال يدفعه فستعمل معه المسلمون قسوتهم المعروفة وجلدوه بالسياط جلداً عنيفاً قاصدين اعدام حياته ولكن مروان ابقى عليه ظناً منه انه قد يفيده في تهدئة خواطر الثائرين فاعاده الى سجنه كما كان

ولم يكتف المسلمون بما احرزوه من النصر على شراذم الاقباط بل غلب عليهم الطبع الغلاّب واخذوا يحرقون المحاصيل وينهبون الاديرة ويغتصبون الراهبات لهتك اعراضهنّ واكراههنّ على البغاء مع انهن اردن تعففاً · وكان بين هؤلاء الراهبات راهبة اسمها فبرونية غضة الاهاب نضرة الشباب بارعة في الجمال مشهورة في الكمال تكاد المحاسن الادبية تطفح من وجهها ونور العفة والنعمة يشرق على جبينها · فلما شاهد المسلمون هذا الحسن الباهر واللطف الساحر لم يمدوا لها يداً بسوء بل ابقوها للخليفة مروان ليتمتع بها ويشكرهم على

هذه الهدية الثمينة بل الدرة اليتيمة . ولكن شهامة فبرونية وانفتها لم تطاوعها على تسليم نفسها للذل والتحجر بل هي أتت حيلة غريبة بها تخلصت من الاهانة العظمى قبل أن تقع في يد مروان . ذلك انها قالت لقائد الجندان عندها زيتاً مقدساً اذا دهن الانسان جسمه منه صار اقوى من الحديد وامتن من الفولاذ فلا تعمل فيه السيوف البواتر ولا تجرحه مرهفات الصوارم . ثم مدت يدها الى جيبها واخرجت منه زجاجة فيها زيت فقالت للضابط «اني سأطلعك على مخبئات هذا السر النافع على شرط ان تحفظ طهارتي وتصون عرض رفيقاتي العذارى الراهبات . وقبل ان أهبك هذه المسحة اتحمل امامك تجربة في نفسي منها تعرف صدق قولي» . وحينئذ دهنت فبرونية عنقها بهذا الزيت وقالت للقائد «استل سيفك واضرب به رقبتي ضربة قوية فهو لا يؤثر في قط» فضربها الضابط ضربة شديدة ازاحت رأسها من على عنقها وبهذه الخدعة نجت فبرونية من العار والفضيحة . قال ابو صالح المؤرخ «ان المسلمين ندموا كثيراً وحزنوا على موتها حزناً زائداً وصرفوا باقي الراهبات الى ديرهن ولم يأتوا معهن امراً نكراً» .

وفي سنة ٧٥١ دخل ابو العباس مصر بجيش زاخر وهو يقصد اخذها من يد مروان . وكان الاقباط حينئذ قد يأسوا من الاستقلال وليس في طوقهم محاربة جيشين من المسلمين فعقدوا صلحاً مع الدولة العباسية وانحاز اكثرهم لجانبها . وعند ما وصل السفاح مصر عسكر بجيشه على شاطىء النيل تجاه مروان الذي كان لا يزال قابضاً على البطريرك خائيل وموسى اسقف

اوسيم . ولما علم مروان ان بعض الاقباط انضموا الجيش خصمه اراد ان ينتقم منهم بتعذيب البطريرك والاسقف اللذين كانا محبوبين جداً عند الاقباط وصار يهينهما ويجلدهما على شاطئ النيل على مرأى من الاقباط الذين كانوا مع جيش السفاح . الا ان الحبرين المذكورين لم يتأثرا من هذه العذابات القاسية وما فاها بكلمة تضجر او استرحام وهذا مما اغاظ مروان كثيراً فاعادهما الى سجنهما قاصداً ان يطيل عذابهما في اليوم التالي ويضاعف قسوته عليهما الى ان يميتهما

فلما لاح فجر اليوم الموعود ولم تنفع الوسائل لانقاذ هذين التقيين جمع مروان لديه كل القسوس الذين وقعت يده عليهم وعددهم احدى عشر قسيساً واوقفهم على شاطئ النهر وامر باعداد جميع آلات العذاب ومعدات القسوة والوحشية ووضعوها امام اعين الاكليروس المساكين الذين لما شاهدوا هذه الآلات الجهنمية احتضن كل منهم اخاه وعانقه ثم جثوا راكعين امام البطريرك طالبين منه ان يمنحهم البركة ويسأل الله ان يغفر خطاياهم قبل موتهم . وكان الازدحام عظيماً على جانبي النيل والناس من هنا ومن هناك وقوف كأن على رؤوسهم الطير . فان الاقباط الذين كانوا مع ابي العباس صاحوا وناحوا وبكوا وانتحبوا حزناً وكآبة على هذا الموقف القاسي المريع وظلوا شاخصين الى بطريركهم وكهنتهم وهم سكوت خاشعون . وكذلك رجال مروان الذين قدت قلوبهم من حجر صلد وعرفوا بالتوحش والصلابة لم يستطيعوا اخفاء تأثرهم من هذا المنظر المفزع فبقوا صامتين جامدين كأنهم

صم بكم لا ينطقون . فبينما كانت كل هذه الجموع المتألبة صامتة هادئة وقف البطريرك وفاه بصلاة البركة وطلب مغفرة الخطايا بصوت جهوري اجهش وجنان ثابت لا يتزعزع قائلاً : —

(ايها الرب الاله يسوع المسيح الابن الوحيد وكلمة الله الاب . يا من شفيتنا بجرحك وسلمت نفسك لاجلنا لكي تحلنا من قيود الخطية وترفع عن اعناقنا حمل الاثم الثقيل . يا من نفخت في وجوه رسلك الاطهار وقلت لهم : — (اقبلوا الروح القدس . من غفرتم خطاياه تغفر له ومن امسكتم خطاياه امسكت) انت يا ربنا قد فوضت الى الرسل الذين اخترتهم ان يقيموا وظيفة الكهنوت في كنيستك المقدسة ويعطوا سلطة بغفران الخطايا والحل من رباط الآثام والذنوب . فعلى هذا نحن نسأل من صلاحك يا محب البشر ان تقطع سلاسل الخطايا التي طوقت اعناقنا وتغفر لنا جرائمنا نحن وآباءنا واخوانا الساجدين امام عظمتك الآن وان ترحمنا بعظيم رحمتك وتترأف علينا برأفتك . واذا كنا يا الهنا قد اخطأنا اليك عمداً او سهواً بالقول او بالفعل فنتوسل اليك انت العارف بضعف الانسان ووهنه وتقلب قلبه ان تعطف علينا وتمنحنا غفراناً لخطايانا وان تباركنا وتمحوا جميع آثامنا وتملاء قلوبنا هيبة منك ومحبة لك وترشدنا الى طريق نسير فيه حسب ارادتك الصالحة لانك الهنا وخالقنا ولك نهدي مع ابيك الصالح والروح القدس كل حمد ومجد وسجود وعبادة . وآخيراً نصلي اليك ان تصفح عن عبيدك الذين في هذا اليوم يؤدون الخدمة المطلوبة منهم وجميع القسوس والشمامسة والاكليروس والعالمانيين وانا الضعيف العاجز وتحلهم من رق العبودية من فم الثالوث الاقدس الاب والابن والروح القدس ومن فم الكنيسة الجامعة الرسولية ومن فم الاثني عشر رسولا ومن فم مار مرقس الكاروز والشهيد ومن فم البطريرك انبا ساويرس ومن فم طبيبنا الروحي ديسقورس ومن فم مار يوحنا ذهبي الفم ومار كيرلس ومار باسيلي ومار

غريغوريوس ومن فم الثلثمائة الذين اجتمعوا في مجمع نيقية والمائة وخمسين الذين التأموا في القسطنطينية والمائة الذين كانوا في افسس ومن فمي انا الخاطي الغير مستحق ان اقف امامك اكراماً لاسمك الامجد ايها الاب والابن والروح القدس من الآن والى ابد الابدين آمين)

وعند ما فرغ البطريرك من صلاته برز ابن مروان من وسط الجمع المزدحم وطرح نفسه على قدمي ابيه طالباً منه ان يعفو عن هؤلاء المساكين وينقذهم من شر العذابات والموت ايضاً · وكأن ابن مروان علم ان الرحمة لا محل لها في قلب ابيه العاتي وانه لا يعرف للشفقة معنى فرجاه من الوجهة السياسية قائلاً انه لم يبقَ لهم نصير غير الاقباط الذين يسيرون على رأي بطاركهم · فاذا قتل هذا البطريرك الآن بمثل هذه الشناعة والفظاعة فلا ريب في ان كل قبطي يلحق بالعباسيين ويقومون في وجهنا للانتقام ورغبة في الاخذ بثار بطريركهم منا · واخيراً رضخ مروان لنصيحة ابنه وربما كان منظر القسوس وهم راكعون على ما وصفنا اوجد شيئاً من الحس في قلبه الجامد فعفى عنهم ولكنه اعادهم للسجن كما كانوا وظل موسى الاوسيمي يشجع رفاقه ويشدد عزائمهم وقد اقيمت صلوات وابتهالات لله في جميع الاديرة والكنائس ليلاً ونهاراً لكي يرحم هؤلاء البائسين وينقذهم من ايدي الظالمين

واخيراً عبر جيش السفاح النيل والتقى بجنود مروان عند ابوصير بمديرية بني سويف حيث ادبر سعد مروان وحان حينه فقتل اشنع قتلة وتفرق جيشه ايدي سبا

ولما رأى عبدالله بن مروان ما حل بابيه فرّ مع شراذم الجيش الى السودان ووضع نفسه بين يدي ملكه ليلتجيء به . وبعد ان مكث عبد الله ثلاثة ايام في السودان ارسل له ملكه يقول انه آت لزيارته بنفسه وسماع ما عنده من المطالب والرغائب . وعندما حان مجيء الملك افترش عبد الله سجادة واستعد للقاء هذا السلطان المسيحي بكل احتفاء واحتفال . الا ان الملك لم يجلس على هذه السجادة بل قعد فوق اديم الارض قائلا لابن مروان انه يتحتم على الملك ان يظهر كل طاعة وخضوع لدى العزة الالهية التي منحته الملك والسلطان

وبعد ان استقر المقام بالملك افتتح الحديث بسؤال عبدالله ان لماذا اتباعه يشربون خمراً مع ان شربه ممنوع في كتابهم الذي يعتبرونه منزلاً . فاجاب عبد الله معتذراً بقوله ان الذين يحتسون الخمر هم عبيده وبعض الضباط واللوم كله عليهم لا عليه

ثم وجه الملك سؤالاً ثانياً الى عبد الله قائلاً « لماذا تسمح لجنودك ان يدوسوا الزروع والحنطة تحت سنابك خيولهم مع ان هذا محرم في كتابكم »

فاعتذر عبدالله بما اعتذر به قبلا قائلا انه لم يقدر يرد الضباط والعبيد عن هذا العمل السيء

فسأله الملك سؤالاً وقال « لماذا تلبسون جميكم ثياباً من الدمقس والحرير مزركشة بالذهب والعسجد وهذا يغاير مبادىء دينكم وقواعده »

اجاب عبد الله « لا يخفى على جلالتكم اننا فقدنا كل قوة وسلطة وصرنا

المجيء الى الاجانب واسألهم المعونة والمساعدة فنضطر الى الارتداء بهذه الملابس الفاخرة حتى نظهر في اعينهم مظهراً عظيماً وهم فضلاً عن ذلك يعتذون حذينا مع انهم اعتنقوا ديننا وصاروا مسلمين نظيرنا »

فاطرق الملك برأسه هنيهة الى الارض كمن شرد فكره الى موضوع ويص ثم قال « عبيدنا وضباطنا والاجانب الذي اعتنقوا ديننا ومثل هذه الاعذار الباردة الفارغة »

وأخيراً رفع وجهه وقال لعبد الله بحدة وشدة « انني لا أقتنع بكلامك لبعده عن الحقيقة فانكم انتم انفسكم قد اسأتم الى الله وسرتم ضد اوامره ونواهيه واتخذتم القوة التي اعطاها لكم لتظلموا عباده الامنين ولذلك اذلكم واسقطكم كما من حالق ووضع على وجوهكم علائم العار والخزي المشين · فلو كان عندكم ذرة من الايمان لكنتم تعرفون مقدار انتقام الله من الظالمين القساة ولذلك فانني اخشى ان يصب جامات غضبه على رأسك وانت في مملكتي فيصيبها شر بسبب خطاياك وآثامك · فاعلم ان حقوق الضيافة لا تتجاوز ثلاثة ايام تقضيها هنا مع رفاقك وبعدها تتزود من عندي بما تشاء من زاد وارحل عن مملكتي واياك وعصيان امري »

ومعلوم ان عبد الله كان في ذلك الوقت ضعيفاً ذليلاً ليس في طوقه المقاومة والعناد فانصاع للامر وآب الى مصر حيث وقع في ايدي العباسيين الذين طرحوه في السجن حتى انتهت حياته فيه · قيل ان المنصور بن محمد الملقب بأبي جعفر الذي ورث الخلافة عن اخيه العباس استدعى عبد الله

امامه ذات يوم وسأله عن رحلته الى السودان وبما جرى له مع ملكها فقص له الحكاية المسطورة هنا كما وقعت له

وعند ماوضع العباسيون نيرهم على عنق مصر اطاق مراح البطريرك خائيل ومنح الاقباط شيئاً من الراحه والحرية لم تدم معهم سوى اربع سنوات فقط كانت كاحلام النائم

الفصل الثامن والثلاثون

ظلم الدولة العباسية للاقباط

(سنة ٧٥١ للمسيح و٤٦٧ للشهداء و١٣٣ للهجرة)

في ظرف الاربع والخمسين سنة التالية تولى مصر خمسة واربعين والياً من قبل خمسة خلفاء تعاقبوا على عرش الخلافة الواحد بعد الآخر . ولسنا في حاجة الى اقلاق خواطر القراء والتشويش على اذهانهم وافهامهم بذكر اسماء هؤلاء الولاة لما فيها من التلبك والثقل ولكننا نذكر شيئاً واحداً يعمهم جميعاً هو ظلمهم للاقباط واضطهادهم اياهم اضطهاداً فظيعاً شنيعاً مؤلماً قاسياً . اما الولاة الذي اراحوا الاقباط ومنحوهم بعض الحرية كما اشرنا الى ذلك في الفصل الماضي فانما هم فعلوا هكذا لسبب يتضح لك من الحكاية الآتية

ذلك انه بعد موت مروان بمدة قليلة ووقوع مصر في قبضة العباسيين

حدثت حادثة في هذا القطر عدها الناس يومئذ من باب الآيات والعجائب ·
وان النيل كان قد بلغ في الارتفاع اربعة عشر ذراعاً فقط وكان يجب ان
يصل الى ستة عشر ذراعاً حتى يروي الاراضي والا فتكون البلاد في خطر
الشراقي الذي يعقبه الجوع والقحط · وفي هذا الاوان كان الاساقفة الاقباط
مجتمعين في بابيلون للمفاوضة في بعض الشؤون الدينية فاتفقوا حينئذ على ان
يقيموا خدمة خصوصية فيها يرفعون لله صلواتهم وتضرعاتهم لكي يرحمهم
ويزيد في فيضان النيل · وقد اسهب يوحنا شماس خائيل في تفصيل هذه
القصة حيث قال :—

(في ١٧ توت (٢٦ سبتمبر)وهو يوم عيد الصليب المجيد اجتمع قسوس الجيزة
وبعض اكليروس البلاد النائية وجمهور من سكان الفسطاط كباراً وصغاراً نساءً
ورجالاً وساروا في احتفال حافل وبأيديهم الاناجيل المقدسة والمجامر يفوح منها
بخور ينعش الارواح ويحيي النفوس · وقد دخل هذا الجمع كنيسة مار بطرس
الكبرى التي كانت اساساتها على شاطئ النيل فلم تسعهم الكنيسة على رحبها فظل
اكثر الشعب وقوفاً خارجها · وبعد هنيهة حضر البطريرك ورفع الصليب بيمينه
وبجانبه انبا مينا اسقف ممفيس (جيزه) ماسك الانجيل الشريف وسارا امامنا
وفي يد كل منا صليب الى ان وصلنا شاطئ النهر فوقفنا هناك وكان ذلك قبل
طلوع الشمس · وقد بدا البطريرك والاسقف مينا بالصلاة والتسبيح والشعب
يجيبهما بصوت يرن في الفضاء قائلا (كيريلا يصون) (اي يارب ارحم)واستمرت
الصلوة والترتيل لغاية الساعة الثالثة من النهار اذ استيقظ اليهود والمسلمون من نومهم
وسمعونا ونحن نرفع لله المتعالي في سماه اصوات الابتهال والضراعة · وقد سمع الله
تبارك اسمه صراخنا واجاب طلبنا وارتفع النيل في ذلك اليوم ذراعاً كاملاً فمجد

الناس الله وشكروا نعمته الوافرة · وعند ما وقع هذا الخبر على مسامع الوالي المسلم أخذه العجب والاندهاش واستولاه الخوف والرعب هو وجميع وجنوده)

قيل ان الوالي ساءه ان مثل هذه العجيبة تتم على يد الاقباط وينسبها الناس الى صلواتهم وطلباتهم فأمر المسلمين بأن يذهبوا في صبيحة اليوم التالي الى المكان الذي كان الاقباط يصلون فيه عساهم يزيدون في النيل ذراعاً ايضاً بواسطة ركوعهم وقيامهم على شاطئه · فعند ما صلى المسلمون وركعوا عكس الله الامر معهم ونقص النيل ذراعاً بدل ان يزيد وهذا النقص أخذ من مقياس النيل في جزيرة الروضة · فغضب الوالي وسخط واصدر امراً يقضي على الاقباط والمسلمين معاً بأن لا يصلوا من اجل النيل فبقي هذا النهر على حاله الاصلي اي اربعة عشر ذراعاً في الارتفاع · ولكن هذا الحاكم المتقلب المتردد يئس من الري فطلب من الاقباط ان يضرعوا الله كما فعلوا في بادىء الامر وكانت نتيجة هذه الضراعة ان النيل وصل الى سبعة عشر ذراعاً وزال كل خوف من الشراقي · وبسبب هذه الاعجوبة استراح الاقباط من مر الاضطهاد وألم العذاب مدة الاربع سنوات التي اشرنا اليها آنفاً

وفي هذه الفترة شرع البطريرك خائيل في زيارة الانحاء المصرية لافتقاد شعبه وقد ورد في تاريخ حياته انه عثر على زمرة من اتباع ميليتوس المرطوقي يقدر عدد رجالها بنحو ثلثمائة رجل صرفوا حياتهم معتكفين عائشين في كهوف الارض ومغائر الاديرة · ومعلوم ان هذه الزمرة لم يذكرها الذاكرون وان هرطقة زعيمها تناستها الاذهان في مدة القرون الاخيرة لان

الاضطهادات والمتاعب غطت المرطقات والبدع فضلاً عن ان هؤلاء النساك كانوا منزوين في واحة بعيدة من واحات القطر المصري لم يعلم بوجودهم احد قبل البطريرك الذي عند ما نظرهم قابلهم ببشاشة ورقة جانب وضمهم الى حضن الكنيسة القبطية بحكمته المشهورة وغيرته المأثورة

اما الذي زعزع دعائم السلام واعاد الهم والقلق الى مصر واقباطها فهو اسحق اسقف حاران (بفلسطين) وذلك بسوء تصرفه وانحطاط مبادئه ومحسوبيته على الخليفة العباس . وتفصيل ذلك انه عند ما توفى بطريرك انطاكية اصدر الخليفة امره الى اساقفة هاتيك البلاد يحتم عليهم بانتخاب اسحق بطريركاً لانطاكية . ولما كان نقل الاساقفة من وظيفة الى اخرى غير جائز في قوانين الكنائس الشرقية ابى الاساقفة تعيين اسحق «محسوب» الخليفة . وكان بين الذين عارضوا في انتخاب اسحق وشددوا في ذلك مطرانان من اشهر مطارنة انطاكية اغاظا هذا المفسد واحتقراه فاستعمل ماله من الحول والطول والسلطة المعطاة له من الخليفة وقتل المطرانين المذكورين غدراً وظلماً وبهذا وذاك اوقع الرعب في قلوب باقي الاساقفة واستمال اكثرهم اليه بالتهديد والوعيد فتم له ما تمنى وجلس على السدة البطريركية . ثم ارسل اعلاناً كالعادة الى البطريرك خائيل يخبره بتعيينه ويطلب منه اعتباره نداً له . وقد بعث الخليفة اوامره الى والي مصر يقول له انه اذا لم يصادق خائيل على تعيين اسحق فلا بد من القبض عليه وارساله الى سوريا ليتولى الخليفة امر قصاصه بذاته

واذ رأى خائيل نفسه في هذا الموقف الحرج شكل مجمعاً من اساقفة الوجهين القبلي والبحري وذلك في بابيلون وطرح امامهم هذه المسألة المعضلة لكي يبتوا فيها حكماً وكان جماعة الاساقفة يعلمون حق العلم انهم اذا رفضوا طلب الخليفة فهم يقعون مع امتهم تحت طائلة عذاب مخيف واضطهاد مهول لا بد وان ينتهي بموت بطريكهم بعد طول تعذيبه . ثم انهم لا يسعهم المصادقة على تعيين بطريرك كاسحق لم يتعد حداً واحداً من الحدود الكنائسية فقط ولكنه قتل ايضاً مطرانين لا يمكن لاحد ان يبرئه من تهمة قتلهما . فهذه العقدة القاسية اشغلت بال جميع الاساقفة مدة تنيف عن شهر واخيراً لم يجدوا وجهاً لحلها فتركوها ملقاة على عاتق البطريرك يتصرف فيها كيف شاء ويتحمل مسئوليتها على نفسه . فلما علم خائيل بثقل هذه المسئولية قال امام الاساقفة بشجاعة لا تفوقها شجاعة « لا سيف ولا نار ولا حيوانات ضارية ولا نفي ولا تعذيب تستطيع ان تضطرني الى التصديق على امر يخالف ضميري ويغاير مبداء ديني ومعتقدي »

وبناء على هذا طلب رسل الخليفة من والي مصر ان يسلمهم البطريرك القبطي مقبوضاً عليه اتباعاً لامر مولاهم . وكان الوالي المذكور يميل للبطريرك ويحترمه كثيراً فسأل الرسل ان يتمهلوا على خائيل حتى يتدبر الامر ويفكر فيه قليلاً علّه يغير رأيه ويرجع عن عزمه . وبمثل هذه الاعذار صار الوالي يؤخر تنفيذ اوامر الخليفة وصاحبنا خائيل لا يزال مصراً على فكره ثابتاً في عزمه الى ان اضطر الوالي ان يقبض عليه اجابة لسؤال الخليفة . وعندما

مع موسى اسقف اوسيم بذلك اعلن رغبتهُ في مرافقة رئيسه ولو الى القبر وكذلك يوحنا الشماس فانه تصدى للذهاب مع مولاه وعدم الافتراق عنه . ولكن اذا اشكل الامر وتعقدت المسائل ولم يجد ابن آدم حلاً لها فان الله تبارك اسمه يرسل الفرج من حيث لا تعلمون . فانه عند ما استعد هؤلاء الابطال الثلاثة للسفر الى مكان فيه الموت الاحمر والاسود معاً وردت الانباء مبشرة بموت اسحق وانطفاء خبره فلم تبق حاجة الى سفر خائيل ورفيقيه الى سوريا وقد منعهما الوالي عن ذلك وقلبه يطفق فرحاً وسروراً

وقد عاش البطريرك خائيل بعد هذه الحادثة نحو احدى عشرة سنة وهو يشتغل في كرم الرب شغل الخادم الامين الى ان انتهت حياته في هذا العالم سنة ٧٦٧ . اما الخليفة الذي كان معاصراً لخائيل فهو ابو جعفر المنصور الذي ذكرناه قبلاً اتخذ بغداد عاصمة الملك وهو اول خليفة اظهر شيئاً من الميل الى العلوم والآداب مع انه لم يمتز بشيء من الصفات الادبية والمبادئ العالية عن غيره من هؤلاء الخلفاء الذين كانوا على نمط واحد ما عدا عمر بن الخطاب الذي عرف بميله للعدل وحبه للانصاف . والوالي الذي تولى امر مصر في ذلك الوقت هو يزيد بن حاتم (الذي نقل الدواوين الى قصر الشمع المعروف لغاية يومنا هذا)

وجلس بعد خائيل راهب اسمه مينا من دير ابنا مقارة ظلت الكنيسة على عهده مدة احدى عشر سنة وهي آمنة مطمئنة لا يقلقها عذاب ولا يعتورها شقاق الى ان ظهرت فيها آفة من جنسها سطت عليها فكدرت صفاها وغيرت

احوالها ولا ريب في ان علة الاقباط من قديم الزمن « منهم فيهم » وداء صادر منهم . فان شماساً من الاسكندرية اسمه بطرس جاء يوماً الى البطريرك مينا وسأله ان يعينه اسقفاً ولكن البطريرك رفض طلبه . فخرج بطرس لخيبة آماله وسار تواً الى بغداد حيث بذل ما في وسعه ليستميل الخليفة الى جانبه وقد نجح في ذلك وعاد الى مصر مزوداً بامر من المنصور الى والي مصر بعزل مينا ونصيب بطرس مكانه . فجمع مينا مجمعاً من الاساقفة في بابيلون ليستمد رأيهم في هذا الامر والتأموا في الكنيسة يتباحثون ويتفاوضون ولم يك طويلا حتى هجم بطرس على الكنيسة ومعه شرذمة من الجند اندفعوا الى المكان المخصص لسكنى البطريرك . وبينما كان مينا محتاراً مرتبكاً في شأن هذا التعدي نهض موسى اسقف اوسيم وتبعه جماعة من الاساقفة ووقفوا في وجه ذلك الشماس المهان واخرجوه خارج الكنيسة بالقوة ولكن العساكر هجمت عليهم ووضعت الاغلال في اعناقهم وساقتهم الى السجون المظلمة . وقد مكث البطريرك والاساقفة في السجن يترقبون الموت من لحظة لاخرى الا ان احد الناس قال للوالي ان البطريرك عارف « بصنعة جابر » وهي تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب ثمين وهو زعم لا يزال ضعاف العقول يزعمونه الى يومنا هذا ويقيمون الف دليل ودليل على صحته . فلم يسع الوالي السكوت على هذا الكنز الموهوم فارسل اولا يطلب من البطريرك ان يعطيه جميع اواني الفضة والذهب الموجودة في الكنائس القبطية في القطر كله لكي يبعث بها الى الخليفة . فرد عليه مينا قائلاً ان هذه الكنائس احتملت من

الضيم والظلم ما افقدها ذخائرها ولم يبقَ فيها شيء من العسجد او اللجين فان كنائس الاسكندرية الكبرى تستعمل فيها كؤوس زجاج وصينيات خشب لاتمام فريضة العشاء الرباني . فلم يقنع الوالي بهذا الدليل بل الح على البطريرك باعطائه الكتاب الذي يحتوي على سر صناعة الذهب (وهو المسمى عند جهلاء اليوم بالاسطرلاب) فتنصل البطريرك معتذراً بعدم معرفته لهذا الكتاب ولا هو سمع عنه قط . ولما لم يجد الوالي حيلة للحصول على ما اوحته اليه خرافاته وخزعبلاته اطلق سراح البطريرك زاعماً انه بهذه الطريقة يستميله اليه ويأخذ منه الاسطرلاب ثم ارسله مع اساقفته الى الاسكندرية ليشتغلوا في ترساناتها كما يشتغل الاشقياء المجرمون في عسير الاعمال

فساء هذا العمل جمهور الاقباط ولم يحتملوا ما لحق ببطريركهم من الضيم والاهانة فعصي جماعة منهم في الوجه البحري وطردوا المستخدمين المسلمين في بلادهم وصاروا يديرون حركة اعمالهم بانفسهم كما يقول المقريزي . فارسل والي مصر جيشاً قوياً ليحاربهم ويخضعهم ولكن الاقباط احاطوا بهذا الجيش احاطة السوار بالمعصم ووضعوا السيف في رقاب رجاله فلم ينجُ منهم الا طويل العمر . وقد عرفنا من امثال هذه الثورات ان نجاح الاقباط فيها كان شبيهاً بسحائب الصيف لا تلبث ان تقشع حالاً لان هذه الامة المسكينة لم يكن يباح لها حمل الاسلحة والتدرب على القتال والنزال بينما المسلمون كانوا اقوياء السواعد عرفوا فنون الحرب والضرب فضلاً عن كثرة عديدهم والتفاف امم الشرق القوية تحت رأيه نبي المسلمين الذي كان من مبادئ دينه

التصريح لاتباعه بارتكاب ما يوافق طبائعهم القاسية واطلاق يدهم في النهب والسلب والقتل والذبح مما جعلهم جنوداً متمرنين على القتال يبذلون مهجهم وارواحهم في سبيل اتمام هذه الغاية الموضوعة امامهم . وانتهت هذه الثورة بمحاصرة الثائرين واخضاعهم بالقوة والعنف وذلك بعد ان ثبتوا امام اعدائهم ثبوت الرواسي مدة من الزمن حتى اضطروا ان يأكلوا جثث الموتى منهم لشدة الجوع كما ذكر المقريزي في تاريخه . وقد أهدمت جميع كنائسهم في الفسطاط ولم تبق منها سوى كنيسة انبا شنوده الواقعة بين الفسطاط وبابليون . وقدم الاقباط خمسين الف دينار للوالي لكي يتجاوز عن كنيسة لهم كانت قائمة في حصن قسطنطين وان لا يسلمها لعوامل الخراب ولكن الوالي الغاشم رفض المبلغ وهدم الكنيسة فلم يترك فيها حجراً على حجر

وقد استراح الاقباط قليلاً في مدة عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية الذي تولى مصر بعد يزيد بن حاتم فانه اطلق سراح البطريرك والاساقفة بعد ان ظلوا سنة كاملة يشتغلون الاشغال الشاقة كمذنبين وطرح بطرس في السجن وهو واصل كل هذه المتاعب والاوصاب التي حلت بامته . وكانت مدة ولاية عبد الله ثلاث سنوات فقط وخلفه اخوه محمد فلم يمكث سوى شهور قلائل ومات وتولى بعده موسى بن علي سنة ٧٧٢ الذي افتتح ولايته بفحص حالة المسجونين ومعرفة جرائمهم وانواع ذنوبهم التي اوصلتهم الى مهاوي السجون فكادوا يقضون فيها . ولما جاء دور بطرس لمعرفة سبب اعتقاله ابدى هذا الخائن الكاذب اعذاراً حملت الوالي على اخراجه من السجن وارساله

الى الخليفة ليرفع دعواه اليه · فعند ما مثل بطرس بين يدي المنصور اكرم وفادته ونفث كربته ومده بقوة عاد بها الى مصر لينتقم من البطريرك مينا وجميع الاقباط · وقد رجع بطرس الى مصر باسم جديد يؤخذ منه انه ترك الدين الصحيح واعتنق دين الخليفة ليسهل عليه الحصول على غاياته السافلة ومقاصده الدنيئة · اما الاقباط فلم يرق في اعينهم هذا الحال ولم يسعدوا لمثل هذا المهان باضطهادهم فاخذوا يستعدون للقيام بثورة يسفكون فيها ما بقي لهم من الدماء ولكن العزة الالهية رحمتهم ورأفت بحالهم فاخذت ابا جعفر المنصور من ارض الاحياء الى عالم الاموات وبذا اصبح بطرس حقيرًا ذليلاً لا معين له ولا نصير فطرح نفسه بين يدي البطريرك والاساقفة الذين كان يسمى لهلاكهم وطلب منهم ان يقبلوه في حضن الكنيسة بعد ان يثبت توبته وندامته على ما فات ولكن طلبه رفض رفضاً باتاً من جميع الاكايروس لانهم لم يثقوا في قوله ولم يصدقوا توبته مع اشتهار الكنيسة القبطية بقبول كل تائب آئب اليها

ولم يعش مينا طويلا عقيب خروجه من السجن وبقي الكرسي البطريركي بدون بطريرك مدة سنة بعد موت مينا وذلك لعدم اتفاق الشعب على انتخاب شخص معين · ولكن الاقباط في هذه المرة لم يتخانقوا ويتشاحنوا ويتنافسوا ويتناقشوا بل هم اتفقوا على رأي صائب هو الاقتراع على المرشحين لوظيفة بطريرك ما دام صوت الامة لم ينحز لجانب احد باجماع الاراء · ولقد سارت الكنيسة القبطية مدة من الزمن على قاعدة القرعة هذه وكانت تسمى

« هيكلية » لانها كانت تتم داخل الهيكل موكلة الى يد الله الذي عنده تدبير الامور

وعند ما حان الوقت لانتخاب خليفة للبطريرك مينا اصطفى الشعب من بين الرهبان مائة راهب (١) . وكان يشترط على الراهب المرشح للبطريركية ان يولد حراً غير رق من والدين شريفين وان يكون ابناً لفتاة بكر لم يسبق زواجها باحد قبل والد المرشح وذلك لان الكنيسة القبطية مع انها تسمح لابنائها ان يتزوجوا مرة ثانية بعد وفاة الزوجة الاولى ولكنها لا تعد الزواج الثاني مثل الاول في الاهمية والمنزلة والدليل على ذلك ان ما يسمونه تاج الاكاليل او هو عقد الاملاك لا يستعمل عند زواج الارمل والارملة ولهذا يتحتم ان يكون البطريرك ابناً لام عقدت لها الاملاك بمعنى انها بكر لم تتزوج قبل ولكن هذا الشرط لا يعمّ الرجل فانه يجوز تعيين ابن الارمل الذي يولد له من الزوجة الثانية بطريركا وهو تساهل للرجال وتمييز لهم عن النساء الضعيفات وتلك سنة العالم معهن من قديم الزمن . وتوجد شروط وروابط اخرى غير التي ذكرناها هي ان الذي يبتغي وظيفة البطريركية يجب ان يكون قوي البنية صحيح الجسم غير مشوه ولا متزوج وعمره خمسين سنة على الاقل . وينبغي ان لا يكون قد سفك دم انسان اوحيوان . مصري

---

(١) من المؤكد انه في الاعصر الاولى كان بطاركة الكنيسة القبطية ينتخبون من غير الرهبان بدليل ان اكثر اولئك البطاركة كانوا متزوجين ولهم اولاد

الجنس عارف بلغة البلاد قد تربى تربية حسنة ذو سيرة طيبة وسلوك مستقيم وعقل واسع وعلم كامل وان يكون من غير الاساقفة ويعرف المذهب الارثذوكسي ويتمسك به تمسكا شديداً . ولم يكن يسمح للولاة المسلمين بالتداخل في امر الانتخاب مطلقاً فاذا اوصى الوالي المسلم بتعيين رجل ينتخبه هو لهذا الغرض فلا بد من رفض وصيته ولو كلف هذا الرفض حياة الامة

فلما اجتمع الشعب لفحص المائة راهب وجدوا خمسين منهم كاملة فيهم بعض الشروط وهؤلاء الخمسين صاروا خمسة وعشرين ثم عشرة ثم ثلاثة فقط يليقون لهذه الوظيفة . وكان من الممكن وقوع اختيار الامة على واحد من هؤلاء الثلاثة بدون اقتراح ولكن الآراء لم تتفق على ذلك ففوضوا امرهم الى القرعة لتفض المشكل . اما القرعة فكانت عبارة عن اربع قطعات من الورق كتب على ثلاث منها اسم المرشحين الثلثة وعلى الرابعة اسم يسوع المسيح ابن الله ووضعت الاربع ورقات في قارورة ووضعت القارورة تحت المذبح الى ان تقام الخدمة الكنائسية وتقدم الصلوات والابتهالات الى الله ليرشدهم في اعمالهم وقد تبقى هذه الخدمة مدة اربع وعشرين ساعة او اكثر

وعند انتهاء الفرائض الدينية يؤتى بصبي صغير ويشار اليه باستخراج ورقة واحدة من الاربع ورقات الموضوعة في القارورة تحت المذبح . فاذا جاء الصبي بورقة عليها اسم احد المرشحين فينتهي الاشكال ويتم تعيين الذي ورد اسمه في الورقة هذه . اما اذا كان على القرعة اسم السيد المسيح فيعتبر هذا علامة على عدم رضى الله عن هؤلاء الثلاثة المرشحين وتعاد العملية ثانية

وفي اول اقتراع جرى بواسطة « الهيكلية » اصابت القرعة راهباً اسمه يوحنا وهو رابع بطريرك بهذا الاسم جلس على كرسي مرقس اربع وعشرين سنة . وفي نحو هذا الوقت توفى البطريرك الرومي قزمان بعد ان جادل وناضل في مسألة تكسير الايقونات والتماثيل في الكنائس مما كان شائعاً في اوروبا و بلاد الشام ولكن الكنيسة القبطية لم تتداخل في هذه المباحثات لان عبادة التماثيل لم تكن من معتقداتها . فاذا رأيت الآن كنيسة قبطية فيها اثر للتماثيل والانصاب فاعلم انها كانت قبلاً للاروام وانتقلت للاقباط . ونحن نحمد الله حمداً كثيراً لان الامتين القبطية والرومانية اتفقتا على تحريم اقامة التماثيل في كنائسهما واكتفتا بالصور والرسوم فقط

وقد صرف البطريرك يوحنا عنايته الى اعادة بناء الكنائس التي هدمت في الاضطهادات الاخيرة وربما دفع مصاريف البناء من ايراد خصوصي له اذ يعسر على العقل التصديق بان راهباً نظيره يملك شيئاً من المال الكثير لاتمام مثل هذه الاعمال المهمة . واعظم كنيسة شادها البطريرك يوحنا كنيسة ميخائيل رئيس الملائكة في الاسكندرية وهي التي اغاظت الاروام ببهائها وزخرفها فذهب واحد منهم الى الوالي المسلم ووشى بالبطريرك قائلاً ان الكنائس الجديدة اوسع من القديمة وهذا الاتساع جاءها من ارض الحكومة التي ادخلها يوحنا في كنائسه . وقد وجد الوالي المسلم فرصة مناسبة فرض فيها غرامة زائدة على يوحنا دفعها هذا دون ان يوقف البناء يوماً واحداً

وفي هذا الزمن انتشر في مصر جوع وقحط شديد اذهب بثروة البطريرك

الذي صرف ماله في اطعام الجياع وسد حاجات البائسين · وقد اصبح الجوع داء موضعياً في مصر تكرر حدوثه بين آونة واخرى وسببه خبث الولاة المسلمين وخيانتهم واهمالهم امر المنافع العمومية اللازمة لري الاراضي فلم يطهروا ترعة وما حفروا مجرى للماء جديداً حتى ان الترع الموجودة ردمت على ممر السنين ولم تمر فيها المياه خصوصاً اذا كان النيل منخفضاً فان الشرق يعم البلاد ويعقبه جوع قاس · واسباب كثرة المجاعات ضعف المصريون وراحت منهم الثروة وصار الفقراء منهم يموتون من السغب او تقتلهم الحكومة الاسلامية للتخلص من اعالتهم · ومن الغريب ان احد ولاة مصر تنبه الى ضرورة تطهير الترع فساق اليها عدداً عظيماً من الاقباط ليس لديهم قوت يوم فماتوا من الجوع وبقيت جثثهم مكومة في الاماكن التي ماتوا فيها مما اوجد وباء وطاعوناً في البلاد زاد في شقائها وبلائها

وفي بدائة القرن التاسع كتب اول تاريخ عن مصر وضعه مؤرخ مسلم اسمه ابن عبد الحكم وهو يحتوي على فتح العرب مصر ولا يزال موجود اليوم هذا بخط اليد · وقد زاد بعض المؤرخين الحوادث التي وقعت في القرن الثاني والثالث للهجرة · ويذهب العارفون الى ان ابن عبد الحكم كان قبطياً واسلم بدليل ان الكندي الذي وضع تاريخه في نهاية القرن التاسع للمسيح يعرف بانه اول مؤرخ مسلم · وتاريخ الكندي يحتوي على وقائع القرن التاسع والعاشر للمسيح

الفصل التاسع والثلاثون

آخر ثورة هائلة للاقباط

سنة ٧٨٥ للمسيح و٥٠١ للشهداء و١٦٨ للهجرة

في سنة ٧٨٥ مسيحية (١٦٨ هجرية) مات الخليفة المهدي بن المنصور وخلفه ابنه الاكبر الهادي فلم يمكث سوى بضعة اشهر ومات فآلت الخلافة الى اخيه هرون الرشيد المشهور بميزات كثيرة اولها حربه مع اليونان — اوهم بقايا الرومانيين — وانتصاره عليهم وضربه جزية على القسطنطينية مقدارها سبعين الف دينار سنوياً · وكذا امتاز هرون على اسلافه بميله الى الادبيات ميلا دل على حسن ذوقه وسمو مداركه سوى انه لم يعمل كثيراً على مساعدة الآداب ونشرها في البلاد المستظلة برايته واهمل على تقدمها بقدر ما عنده من وسائل المنفعة وطرق الخير · ولم يكن الرشيد يثق باحد ليخول له سلطة كبرى على مصر لئلا يأول الامر باستقلال الولاة في هذه البلاد الاسيفة المعروفة بوفرة خيراتها وجودة تربتها وتطلع الناس الى امتلاكها · فلهذا السبب سار الرشيد في الطريق التي سلكها ابوه قبله من تغيير الولاة كل سنة مما جعل حال الحكومة في مصر مرتبكا لانظام لها ولا ترتيب · ومع ان الاضطهاد كف وقوعه على رؤوس الاقباط في مدة هرون الا ان هذا الخليفة كان ينظر الى الكنيسة القبطية وبطريركها بعين الريبة والخوف فكان يبذل جهده في التضييق عليهم والضغط على اعناقهم ضغطاً عنيفاً

وفي سنة ٧٩٥ تولى إمرة مصر عبيد الله بن المهدي اخو الخليفة هرون فأرسل الى اخيه فتاة مصرية آية فى الجمال والمحاسن ليتخذها الخليفة محظية له · وقد نالت هذه الفتاة حظوى عظمى لدى هرون حتى انها لما مرضت حزن عليها واكتئب ودار يبحث عن مشاهير الاطباء ليعالجوها ولكن هذه الغادة الحسناء قالت للرشيد انه لا يعرف داءها الا اطباء مصر الذين عرفوا بالمهارة والبراعة في فن الطب والجراحة · وكان هرون عارفاً بمقدرة اطباء مصر على معالجة الاسقام لانه اختبر ذلك بنفسه فارسل يطلب من مصر ابرع نطاسي فيها فسار اليه بوليشان البطريرك الرومي وكان من احسن الاطباء حكمة وعلماً وجاء بغداد واخذ يداوي خليلة الخليفة الى ان شفيت تماما وتماثلت للصحة والعافية · فسأله هرون ان يطلب ما يشاء اجرة لاتعابه فطلب البطريرك الروماني ان بعض الكنائس القبطية الموجودة تحت يد يوحنا بطريرك الاقباط تعطى له عطية لا ترد · وقد اجيب سؤله ونال مناه

وفي سنة ٧٩٩ تنيح يوحنا بطريرك الاقباط وبعده بسنتين لحق به بطريرك الاروام الذي خلفه رجل اسمه يوسطاثيوس كانت مهنته نسيج الكتان ولكن السعد خدمه فعثر على كنز من المال في ضريح قديم فرفعه هذا الكنز من مقعد النول الى منصب البطريركية وذلك لانه وهب امواله الى كنيسته فاختاره الشعب بلا تردد · اما الاقباط فانتخبوا رجلاً قادراً بارعاً مخلص النية سليم الطوية اسمه مرقس الذي عند ما جلس على السدة البطريركية توافد عليه رجال الطوائف والشيعات المختلفة المتعددة في مصر يطلبون منه

ان يضمهم مع اسقفهم الى حضن الكنيسة القبطية بعد ان ظلوا منفردين عنها بعيدين عن وحدتها منذ القرن الرابع الذي كثرت فيه البدع والهرطقات . فلما مثل اسقف هؤلاء المنشقين بين يدي البطريرك قبله بكل بشاشة واكرام واعلن له رغبته في الوحدة والالتئام ولكنه اراد ان يمتحنه ويمحص افكاره فاخبره انه لا يصادق على وظيفة الاسقفية التي له لانه يعتبرها غير قانونية وانه عند ما ينضم الى حضن الكنيسة القبطية ينزل لدرجة كاهن بسيط فقط . فقبل الاسقف المذكور هذه الشروط وانضم مع اتباعه الى حظيرة الكنيسة وحينئذ شرع البطريرك في اعادة تكريس كنائسهم فمحوات جميع طقوسهم وغرائضهم لكي تتلائم مع طقوس الكنيسة القبطية وبعد مضي سنتين اظهر فيهما الاسقف سلوكاً حسناً واعمالاً جليلة اعيدت رسامته اسقفاً قانونياً على رعاياه الاولين

وفي سنة ٨٠٨ (١٩٣هـ) مات هرون الرشيد فقام اولاده الامين والمأمون يناصبان بعضهما العداء واستفحل الشر بينهما فقامت الحرب على قدم وساق وظلت سجالاً بين الطرفين مدة خمس سنوات انتهت بقتل الامين وتنصيب المأمون خليفة وقد ذكر شمس الدين المؤرخ ان ثمانية من الولاة تعينوا لحكم مصر في اثناء الخمس سنوات هذه ولكنهم لم يطأوا ارضها وما دخلوها ولا عملوا عملاً فيها . والذي يراجع اقوال مؤرخي المسلمين في ذلك الوقت يجدها مظلمة مبهمة متضاربة متناقضة لا يتضح منها شيء سوى ان عدواً اجنبياً طمح بابصاره الى مصر ليملكها فهاجمها من الجهة الشمالية الغربية ويغلب على الظن ان هذا المهاجم كان مسلمو الاندلس (اسبانيا) الذين كانوا

قد اقاموا لهم خليفة خاصاً بهم وقطعوا كل علاقة لهم مع بغداد بعد ان قلبوا لها ولخليفتها ظهر المجن

فلما اقترب مسلمو الاندلس من القطر المصري وبداوا يناوشونه ويهاوشونه انتبه العباسيون واخذوا في تحصين الاسكندرية وامدادها بالجنود وكذلك البطريرك القبطي مرقس سار اليها ليفتقد حال رعيته فيها · اما البطريرك الروماني خريستوفر الذي جاء بعد يوسطاثيوس فلم يرد له ذكر في وقت القلاقل لانه كان مسناً ضعيفاً لا يستطيع الحركة ولا يفيد بشيء ولذلك وجه البطريرك مرقس عنايته لجميع المسيحيين على السواء فلم يميز بين قبطي وروماني كما انه اظهر شجاعة واقداماً يشكر عليهما حتى انه اقتحم صفوف المقاتلين وسار بين بريق السيوف ولمعان المرهفات الى ان وصل لقائد الجنود ودفع فدية لجميع اسرى المسيحيين الذين نوى القائد اخذهم عبيداً ارقاء · وقد بلغ عدد الذين فداهم البطريرك مرقس من الاسرى نحو ستة الاف قبطي رجالا ونساء واطفالا صغاراً وزودهم بجميع ما يحتاجون اليه في سفرهم الى اوطانهم التي اخذوا منها قسرا · اما الذين اضاعوا الزرع والضرع ولم يبق لهم في بلادهم ما يقتاتون به فقد ابقاهم البطريرك في الاسكندرية واوجد لهم ما يقوم بحاجياتهم · وكثيرون من الاقباط الذين اضناهم الذل وذاقوا مر الظلم والاضطهاد اتحدوا مع مسلمي الاندلس طلباً للعدل والحرية وساعدوهم على اخذ الاسكندرية ولكن الاندلسيين ما تمموا ان وضعوا يدهم على الاسكندرية حتى احاط بهم مسلمو مصر احاطة السوار بالمعصم واعملوا

فيهم الصارم البتار وقتلوا نحو ثمانمائة منهم ولذلك اشتبكت الحرب بين الطرفين ووقعت الاسكندرية في مصاب عظيم حيث اطلقت فيها الايدي للسلب والنهب والفتك والذبح · وقد وصلت ايدي الطغاة البغاة الى كنيسة المخلص فنهبوا امتعتها ثم اشعلوا فيها النيران فدمرتها وعادوا واوقدوا نارا في جميع انحاء المدينة فصار كانها شعلة من اللهيب · ولما رأى البطريرك مرقس هذا الويل الهائل فرّ مع بعض اصدقائه واختبأ في احد الاديرة المقفرة · ومع ان هذا البطريرك المفضال كان في ضيق وخطر ولكنه لم يتأخر لحظة واحدة عن اتمام واجباته بل كان يصدر التعليمات والارشادات لرعيته وهو منزوٍ في ذلك الدير المهجور وظل على هذه الحالة خمس سنوات كاملة الى ان منحه والي مصر الامان على حياته وصرح له بالاقامة في دير وادي النطرون · وفي هذه الاثناء انتهت الهدنة التي كانت معقودة بين المسلمين وقاموا جميعهم ينهبون الاقباط ويسلبونهم ويستبيحون اموالهم وارواحهم

ذلك ان ولاية مصر آلت الى رجل اسمه عبدالله بن طاهر الذي عندما جلس على سدتها اباح لجنوده نهب الاديرة واحراق الكنائس والتمثيل بمعابد الاقباط وابادتها · فلما سمع البطريرك بهذه النازلة الجديدة ووقف على تفصيل تلك الاخبار المؤلمة اصابته حمى قتالة قضت على حياته واسكنته رمسه · وقد وقعت مصر في ذلك الحين في بلايا ثلاث اولاها مسلمو الاندلس الذين اخذوا الاسكندرية والانحاء البحرية واستباحوها والبلية الثانية عبد الله بن

طاهر الذي احتل الفسطاط ودمره والمصيبة الثالثة تخص اسمه عبد العزيز اشتد ساعده في مصر وصار نفوذه قوياً وشروره لا يحتملها بشر · فان هذا الطاغية احرق الاهراء ومخازن الغلال حتى نتج من ذلك جوع وقحط في البلاد وكان غرضه ان يميت مسيحي اسبانيا جوعاً وسغباً · ومن ضمن رذائل عبد العزيز انه تداخل في انتخاب بطريرك بدل مرقس ولكن الاقباط رفضوا هذا التداخل بتاتاً واختاروا لمسند البطريركية رجلاً اسمه يعقوب (اويا كوبوس) فحينئذ اقسم عبد العزيز باغلظ الايمان ان يقتل جميع الاساقفة ويدمر ما بقي من الكنائس القبطية ان لم يسلم يعقوب نفسه حالاً · فلم يسع يعقوب الا الطاعة والاذعان وسار قاصداً عبد العزيز وهو واثق انه سيذوق مر العذاب ثم يتجرع غصص المنون ولكن الله جل اسمه ابتلى عبد العزيز بمرض عضال قصف به عمره وبذا نجى يعقوب من الموت

وعندما استتبت الخلافة للمأمون بن الرشيد جاء مصر بشخصه ليؤيد اركان السلام فيها ويوطد دعائم الامة في ارجائها · وكان اول عمل اتاه انه طرد مسيحي الاندلس ورشى عبدالله بن طاهر بمبلغ طائل من المال ليتنازل عن الولاية ويعود من حيث جاء · ثم اقام المأمون اخاه المعتصم والياً على مصر وسوريا معاً

وقد ورد في تاريخ ابي الفرج الاصفهاني ان دنيس بطريرك انطاكية زار مصر مرتين في ايام البابا يعقوب · ففي المرة الاولى وفد دنيس بحراً ونزل على مدينة صان (شرقية) فخرج سكانها وعددهم نحو ثلاثين الف قبطي

يتقدمهم البابا وكثيرون من الاساقفة لاستقبال بطريرك انطاكية واكرام وفادته . وكان دنيس هذا عالماً متضلعاً بفن التاريخ يدلك على ذلك ان البطريرك القبطي لما التقى به ورحب بقدومه قال ان زيارة دنيس لمصر تعتبر اول زيارة من بطريرك انطاكي لها منذ ايام البطريرك ساويرس الاكبر. فرد دنيس على زميله يعقوب قائلاً « انني اذكر خوتكم بزيارة البطريرك اثاناسيوس لكم عندما جاء ليداوي جرح الشقاق الذي احدثه بطرس بطريرك انطاكية الاسبق ودميان بطريرك الاسكندرية المعاصر له . ولا ريب في ان اهمال مطالعة التواريخ توقع الانسان في غلطات تاريخية مهمة » . اما سبب مجيئ دنيس الى مصر هذه المرة فكان ليحتج ضد تصرفات اخي عبدالله بن طاهر في اديسا (بانطاكية) حيث بلغ من الظلم والغشم مبلغاً عظيماً . وقد تحصل دنيس على جواب من عبد الله لاخيه فيه ينهاه عن تخريب ما بقي من الكنائس في اديسا وان يكف عن شروره وآثامه . وفي ثاني مرة جاء دنيس الى مصر مع الخليفة المأمون الذي عينه مع البطريرك يعقوب القبطي لاخماد ثورة الاقباط ووضع حد لعصيانهم . وقد كتب دنيس عن الاقباط يقول « وجدت بطريركهم واساقفتهم اتقياء ورعين متواضعين يحبون الله و يخافونه من قلوبهم . وقد اكرموا مثوانا واظهروا لنا كل بشاشة ولطف مدة وجودنا في مصر مما تشكرهم عليه شكراً مستفيضاً » وقد انتقد دنيس الاقباط في امرين مهمين اولهما انهم يغفلون قراءة الكتاب المقدس ولا يهتمون بمطالعته كثيراً . والثاني فرضهم ضريبة مقدارها مائتين او ثلثمائة قطعة من

الفضة يدفعها الاسقف يوم رسامته وهو يعتبر هذا عبارة عن بيع المواهب الروحية بذهب وفضة . ومما آخذهم عليه ايضاً تأخيرهم عماد الاطفال مدة ثلاثين او اربعين يوماً بعد ولادتهم . وقد سر دنيس جداً من آثار مصر وعادياتها وكتب كتاباً يصفها فيه نشره بعد ان آب الى سوريا

قلنا ان المأمون جاء مصر ومعه البطريرك دنيس ليضع حداً لثورة الاقباط ولكن دنيس ويعقوب لم يفلحا في ايقاف الاقباط عن ثورة ظنوا انها تخلع عن رقابهم النير الاسلامي الثقيل . وقبل مجيء المأمون ارسل البطريرك يعقوب جواباً يظهر لهم فيه استحالة نجاحهم وانه خير لهم ان يخضعوا ويسيروا كما سار الرسل في عصرهم وخضعوا للسلطان الكائن اعتقاداً منهم انه لم يحمل السيف عبثاً وان العصيان يجلب سفك دماء غزيرة ويعقبه اضطهاد هائل . وكان البطريرك يرسل مثل هذه الجوابات الى زعيم العصاة على يد اساقفة ويزودهم بنصائح لم تنفع بشيء بل صم الثوار آذانهم عن سماع اقوال بطريكهم واتهموه مع اساقفته بالضعف والجبن وقالوا انهم عزموا ان يموتوا اشرافاً بحد الحسام من ان يعيشوا عبيداً تحت سلطة الظلم والعسف

ولما رأى الخليفة ان الثورة قد استفحلت ارسل مدداً لعساكره ثم جاء مصر بنفسه ومعه دنيس كما سبق القول . فأوفد المأمون دنيس ويعقوب ليتفاوضا مع العصاة ويعقدا صلحاً معهم فلم ينجحا كما قلنا لان الاقباط غرهم ما احرزوه من الانتصار وايضاً لم يأمنوا جانب الخليفة ولم يصدقوا مواعيده وخافوا شر انتقامه فرفضوا طلب البطريركين وردوهما على اعقابهما خائبين

فخاف المأمون ضياع مصر من يده وهي اغنى بلد واخصب بقعة في المملكة الاسلامية برمتها ولذلك جمع كل رجاله وامواله قاصداً اخضاع العصاة واذلالهم · فلما تكاثرت قوات المأمون تقهقر الثائرون الى ان وصلوا بابيلون وتحصنوا فيها ولكن جيش المسلمين اكتسح المكان ووضع السيف في رقاب الرجال اما النساء والاطفال فاخذوهم اسرى الى بغداد

ولم يكتف المسلمون بما نالوه من النصر ولا بقتل جموع الثائرين واهلاك عائلاتهم بل انتقموا من الاقباط انتقاماً تقشعر منه الانسانية فان اولئك القساة داروا في جميع انحاء البلاد يقتلون وينهبون ويبيعون الاقباط بيع السائمة حتى اضطرت الطبقة السفلى من هؤلاء الاقباط المساكين الى اعتناق الدين الاسلامي رغبة في الخلاص من الموت · ومن ذلك الحين وعدد الاقباط صار يتنازل في مصر الى ان قلّ عن عدد المسلمين · وقبل هذا الزمن كان المسلمون يوجدون في الجيش او في المدن الكبرى على نسبة قليلة من عدد سكانها ولكن بعد هذه الثورة المشومة ارتد نحو ربع السكان عن الايمان الصحيح كما ان العرب اتخذوا القرى موطناً لهم وصاروا يفلحون الاراضي التي اغتصبوها من الاقباط وبذا زاد عددهم وقويت عصبيتهم

وبعد ان هدأت الاحوال وسكنت العواصف الثائرة عزم البطريرك يعقوب على تجريد اسقفي بابيلون وصان من وظيفتيهما لسوء تدبيرهما وعدم سماعهما نصائح البطريرك · فلما جرد هذين الاسقفين ارادا ان ينتقما منه

فذهبا الى الامير افشين الذي عهد اليه امر قيادة الجنود الاسلامية واطفاء جذوة الثورة واخبراه ان البطريرك يعقوب الذي كان يتظاهر بالسعي في اخماد نار العصيان هو في الحقيقة مشعل لهيبها وموقد شعلتها . فللحال ارسل افشين ثلة من الجنود دون ان يفحص هذا القول و يتبين صحيحه من فاسده وامرهم ان يهجموا على البطريرك في كنيسته حينما كان يؤدي الخدمة الدينية ويقتلوه قتلاً . وكان من حسن حظ البطريرك ان بعضهم اخبره بهذه المكيدة فترك الكنيسة قبل ان تصلها العساكر وسار الى الامير بقدم ثابتة وشجاعة مأثورة و برهن له على برآءته وفساد هذه التهمة وحينئذ تحول غضب افشين ضد الاسقفين الخائنين وامر باعدامهما ولكن البطريرك توسل اليه ورجاه ان يعفو عنهما و يسامحهما

فوقع طلب العفو هذا عند الامير موقع الاستغراب ولم يفهم له معنى ولا ادرك كيف يعفو البطريرك عن عدو ين لدودين سعيا لاهلاكه . ولو عرف هذا الامير كنه الديانة المسيحية وفهم انها ديانة تساهل وتسامح لا انتقام وحقد لما عسر عليه معرفة الداعي الذي ألجأ يعقوب الى مسامحة خصميه . فلما لم يجد افشين حلاً لهذا اللغز رفع الامر برمته الى الخليفة الذي كان يتوقع فرصة كهذه بها يعمل جميلاً مع البطريرك يعقوب ولذلك اصدر امراً يقضي بأن كل حكم يصدر من البطريرك ضد اي قبطي كان لا يجوز استئنافه الى السلطة الدنيوية . وقد ظل يعقوب باقي ايامه في أمن وراحة مع انه صرف

هذه الايام القليلة حزيناً كئيباً لما اصاب شعبه من الويلات والمصائب ومات حالاً بعد انقضاء الثورة

وقد امتاز المأمون عن غيره من الخلفاء والولاة بميله للوقوف على علوم القدماء وآدابهم وآثار تمدنهم مما سعى آباؤه واجداده في طمس معالمه وازالة رسومه · وقد امر بترجمة كثير من الكتب والمؤلفات المصرية والعبرية والسريانية واليونانية الى اللغة العربية وهذه الكتب قد وصلت الى اوروبا عربية صرفة فظنها صغار العقول انها من بنات افكار العرب الذين قلّ ان وجد بينهم شخص في ذلك الحين يفهم لهذه العلوم مغزى · والدليل على ذلك ان اكثر المسلمين في ذلك الوقت اغتاظوا وحنقوا من تملق المأمون بهذه المعارف والادبيات وعدوا عمله هذا كفراً اوزندقة اتباعاً لرأي عمر بن الخطاب عند ما أمر بحرق مكتبة الاسكندرية مستنداً الى تلك القضية المنطقية الفاسدة التي مر بك شرحها · وكان عمل ائمة المسلمين هذا شؤماً عليهم لان المأمون اضطهد كل مسلم ذهب الى ان القرآن منزل غير مؤلف ثم تطرف هذا الخليفة واصدر منشوراً يقول فيه ان القرآن يعد طبقة ثالثة بعد محمد وعلي

اما زمن موت المأمون فلا يعرف بالضبط وقد اعقبه اخوه المعتصم الذي كان والياً على مصر وسوريا · ومع ان المعتصم هذا ابن لهرون واخ للمأمون ولكنه كان عربياً صرفاً بمعنى انه امي جاهل لا يدري القراءة ولا الكتابة شهواني من الطبقة السافلة ولكنه كان شجاعاً لايهاب الموت ولا يهمه أمر جسده · وكانت المملكة الاسلامية في ذلك الوقت ملآنى من العبيد

والارقاء الذين اخذوا اسرى حروب اودفعوا جزية كما فعلت ممالك السودان · وبين هؤلاء الاسرى عدد يذكر من الاتراك الذين شابهوا ساداتهم العرب واتخذوا الحرب والضرب صناعة لهم ولكنهم لم يشابهوهم في شيء من العلوم السطحية التي اقتبسها اولئك العرب من الامم التي اختلطوا بها · ومع ان العرب كانوا كما وصفناهم لا يعرفون شيئاً ولكن ظهر منهم رجال برعوا في بعض العلوم والفنون اما الاتراك فلم يظهر منهم احد سوى الذين امتزجوا بدم اجنبي اضاع الدم التركي · ولقد اظهر المعتصم ميلاً الى اسرى الاتراك وجمع منهم جيشاً مخصوصاً قوي ساعده فيما بعد حتى خافه الخليفة ولم يستطع الاقامة في بغداد خوفاً من هذا الجيش لئلا ينقض عليه · وقد بزغ بين اسرى الاتراك رجل اسمه طولون رزق بولد له شأن يذكر في تاريخ مصر سيجيء الكلام عنه بالتفصيل فيما يلي

الفصل الاربعون

﴿ مقابلة ولي عهد السودان للخليفة ﴾

سنة ٨٣١ للمسيح و٥٤٧ للشهداء و٢١٦ للهجرة

قلنا في الفصل السابق ان البطريرك يعقوب مات وقلبه مفعم بالحزن لما رأى ما حل برعيته من البلاء الاكبر عند ما شرعوا في طرح نير مضايقيهم المسلمين · ثم جاء بعد يعقوب بطريرك اسمه سيمون (او سمعان) لم يعش سوى

اشهر قلائل · وبعد موته وقع الخلاف بين الامة القبطية في تعيين خلفه ذلك لان حزباً كبيراً من الاقباط يرأسه زخاري اسقف اوسيم وتاودروس اسقف بابيلون صمم على انتخاب رجل اسمه ايساك اشتهر بالثروة الطائلة والعلم الكثير والاصل الطيب وكان عيبه الوحيد الزواج الذي جعل الحزب الثاني يرفضه ما دام له زوجة واولاد · والذي اوجد هـذا الخلاف هو ان الاقباط واساقفتهم في ذلك العصر كانوا مثل اخوانهم في العصر الحاضر لا يعرفون ان البطاركة والاساقفة في الايام الاولى كانوا متزوجين ولهم اولاد وما درسوا عن بطريرك تزوج الا ان يكون ديمتريوس الملقب بالكرام الذي يعتقدون عنه لحد يومنا هذا ان زواجه كان اعجوبة بمعنى انه لم يعرف امرأته بل عاش معها عيشة الاخ مع اخته وهو قول فاسد منقوض من كل وجه · وكان يرأس الحزب المعارض ميخائيل اسقف البحيرة ويوحنا اسقف بنا وابوصير اللذان استندا على العادة الجارية والاصول المتبعة التي تجعل الزواج حجر عثرة في سبيل اسناد وظيفة بطريرك لرجل تزوج كما ان تغيير هـذه العادة يسيء كنيسة انطاكية التي سارت عليها كالكنيسة القبطية ويفرح الكنيسة الرومانية التي تتمنى ان تجد مغمزاً او مكاناً للضعف والانتقاد في الاقبـاط فتهاجمهم وتعاكسهم · ولهذه الاسباب الواهية والبراهين الضعيفة التي لا يزال يتحجج بمثلها ضعاف العقول في هذه الايام فاز المعارضون ورفضوا انتخاب ايساك واختاروا رجلا اسمه يوسف رئيس دير انبا مقارة · وكان في الوجه البحري نائب اقامه الوالي المسلم عرف بالظلم والعسف فلم يرضه تعيين يوسف بل

طلب انتخاب ايسآك تطلعاً منه الى ثروته وطمعاً في ان يأخذ رشوة منه وافرة والا اذا اصرّ الاقباط على اختيار يوسف فعليهم ان يدفعوا الف قطعة من الذهب لهذا الفرض . ولكن سلطة هذا الحاكم الغاشم لم تكن ممتدة لحد بابيلون فخطر على بال الاساقفة ان ينتقلوا لهذه المدينة ويتمموا رسامة بطريكهم لكي يخلصوا من ظلم هذه الرجل وجوره

ولنعد الآن الى حكاية ممالك السودان المسيحية ونشرح لك شيئاً عنها فنقول ان هذه الممالك نمت وقويت وصارت ذات بطش يخشى منه حتى انها توقفت عن دفع جزية العبيد التي فرضها عليهم المسلمون ولم يرسلوا رقيقاً واحدا في ايام المأمون والمعتصم . ولا ريب ان هذه الجزية الثقيلة الفظيعة اوجدت متاعب وحروباً مستمرة بين الممالك السودانية فضلا عن انها كانت منافية تماماً لمبادئ الديانة المسيحية وتعاليمها

والذي اوقف سير هذه الجزية ومنع تقديمها هو جرجس ولي عهد المملكة الشمالية المتاخمة مصر فانه اقنع والده الملك زخاري بابطالها في الوقت الذي كان المسلمون مشتغلين فيه باخماد ثورة الاقباط الهائلة . ولكن عندما وردت الاخبار بانهزام الاقباط وتعقب المسلمين لهم واعمال السيف في رقابهم وانتقامهم منهم انتقاماً شديداً بربرياً خاف الملك زخاري سوء العقبى وفاوض ابنه في هذا الامر الا ان هذا الابن الشجاع اصرّ على رأيه الاول ورضي باحتمال كل مسئولية في هذا الصدد . واخيراً عوّل زخاري ان يرسل ابنه جرجس هذا في مأمورية الى الخليفة بها يقدر يستطلع احوال المملكة

الاسلامية ويقف على حالة البلاد وقوة الجيش وما عند المسلمين من حصون وقلاع ومال وبالنتيجة كل ما تهم المحارب معرفته . وقد قال الملك لابنه انه عند عودته سالماً ومعرفته احوال المسلمين اذا شام بارقة نجاح في محاربتهم والانتصار عليهم فهو لا يتأخر عن اعتقال السلاح وضعضعة اركان مملكتهم . اما اذا اتضح له ضعفه امام قوتهم فهو مضطر ان يرضخ ويؤدي الجزية كما كانت

وكان لا بد للملك زخاري من انتحال سبب به يرسل ابنه الى الخليفة فورد على فكره الامر التالي : هو ان كثيرين من المسلمين استوطنوا بلاده واتخذوها دار اقامة لهم واشتروا الاراضي الخصبة في جهة اسوان من السودانيين الذين كرهوا بلادهم لكثرة ما قاسوه من الاهوال عند اخذ اولادهم لسداد الجزية وجعلهم عبيداً ارقاء فضلاً عن ان المسلمين اغروهم بالاثمان الطائلة فباع السودانيون املاكهم واطيانهم وكثر عدد المسلمين كثرة خشي منها زخاري وتضايق جداً وخاف على بلاده وعرشه من وجودهم عنده . فسواء صحت هذه الدعوى او ان زخاري اتخذها وسيلة ليفتتح بها الكلام مع الخليفة فهو عول على ارسال ابنه للاستكشاف واستطلاع حال المسلمين . ولكن هذه الدعوى كانت صحيحة من طبعها لان زخاري ذهب الى ان بيع هذه الاراضي يعتبر فاسداً غير شرعي ما دام ان البائعين هم عبيد للملك وخادمون له ولا حق لهم ان يتصرفوا في اراضيه سوى ان يستأجروها ويزرعوها فقط لا ان يبيعوها

ويظهر ان اخبار هذه المباحث وصلت آذان المسلمين فخشوا نتائجها وخافوا فقد ان املاكهم فبذلوا مالاً طائلاً للسودانيين المسيحيين واسترضوهم بجميع انواع الاستعطاف والالتماس ان يقولوا امام المحكمة ان هذه الاراضي خاصة بهم لا بالملك وانهم احرار ليسوا عبيداً له . فلما رفعت هذه القضية الى القاضي المسلم اصدر حكماً ضد رغبة الملك، قال فيه ان هذا البيع صحيح لاجدال فيه وان الارض التي في حوزة المسلمين تعتبر ملكاً حلالاً لهم لا ينازعهم فيها منازع

فلم يحرك الملك ساكناً لهذا الحكم وظل ينتظر نتيجة مأمورية ابنه اذ تكون حينئذ القول الفصل في هذه المسألة وغيرها . وقد رأى جرجس في طريقه من دلائل القوة الاسلامية وعلائم الاستعداد الحربي ما جعله يحكم بعدم استطاعة السودان مقاومة هذه القوة العظمى وانه لا بد من البقاء على تلك الحالة الحاضرة حتى يقضي الله امراً كان مسطوراً . وكان الخليفة عارفاً باهمية السودان فرأى من الصواب ان يهادنه ويسالمه ولذلك احتفى بقدوم جرجس واكرم ضيافته واحباه بهدايا فاخرة واجاب طلباته كلها . وقد سمع الخليفة قول جرجس ان مصر والسودان صارتا في اشقى حال من جراء جزية العبيد التي تدفع سنوياً فأمر بابطال هذه الجزية السنوية والاكتفاء بها كل ثلاث سنوات مرة . ثم منح جرجس رخصة بالافراج عن جميع المسيحيين المسجونين بما فيهم اسرى الحروب وغيرهم . ومن الهدايا التي اقتبلها جرجس من الخليفة قصر في الجيزة وآخر في الفسطاط بشارع بني وائل . وقد افاد

هذان القصران جرجس اذ نزل فيهما كل المدة التي اقامها في مصر عند عودته حيث سوّى مسائل كثيرة مع البطريرك يوسف منها انه طلب من البطريرك المذكور ان يكرّس مذبحاً خشبياً ينتقل مع ابيه الملك عندما يكون في سفر حتى بواسطته يمكنه تأدية الخدمة الكنائسية . وقد شيّع البطريرك جرجس عند رجوعه الذي بعده قرّ الرأي على عدم محاربة المسلمين بالمرة

وفي مدة رئاسة البطريرك يوسف جاء مصر مطران الحبشة المصري هارباً من وجه ملكتها التي كانت تؤدي اعمال المملكة بدل زوجها المتغيب في حرب ضد اعدائه . ويظهر من قرائن الاحوال ان هذا المطران اساء الى الملكة وهيج غضبها فأرادت ان تعدم حياته فعمد الى الفرار لمصر وذهب تواً الى ديره واقام فيه فلما آب الملك منهزماً امام خصمه وعلم بما فعلته الملكة مع المطران غضب جداً ولام قرينته على فعلتها وانفذ رسولاً الى بطريرك الاقباط يعتذر له عما فرط من زوجته ويتوسل اليه ان يعيد المطران ثانية . فقبل البطريرك والمطران رجاء الملك وعاد هذا الى بلاد الحبشة فرحب به ملكها ولكن الشعب ظل نافراً منه ولم يكرمه كالاول

واشتهر البطريرك يوسف بقوته الادبية وتقواه وامتلاء روحه من المبادىء المسيحية الصحيحة . وقد استمال الخليفة اليه حتى بطلت جميع الاضطهادات والاضطرابات ضد الاقباط كما انه كان ذا نفوذ قوي وسلطة متينة في بلاد الحبشة وكذلك اكتسب صداقة بطريرك الاروام صفرونيوس فخبت نار الشقاق بين الامتين القبطية والرومانية واستراح بال البطريرك

من كل منازعة وخصام فصار يوسس المراكز الدينية خارج القطر المصري ويرمم دعائم الكنيسة القبطية التي كاد بناؤها ينهار لشدة ما اصابها من الاضطهاد والضيم

وكان الاضطهادت والظلم كتبا على هؤلاء البطاركة المساكين فلم ينج واحد منهما ولو كان من اعز اصدقاء الخلفاء والولاة معاً . فان البطريرك يوسف اخذ نصيبه من الاضطهاد وكان الذنب في ذلك واقعاً على رأس كاهن قبطي سبب له جميع هذه المصائب والاحزان . وتفصيل الحكاية ان قساً اسمه تاودروس كان صديقاً لاسحق اسقف اوسيم ومعيناً له في اعماله وضع قلبه على مسند الاسقفية عند موت اسحق واراد ان يكون اسقفاً بعده ولكن البطريرك رفض تعيينه بدعوى ان شعب الابروشية المشار اليها طلبوا تعيين غيره بكل رجاء والحاح . فرفع تاودروس دعواه الى والي مصر الذي اتخذ هذه المسألة حجة بها ينهب ويسلب ويرتشي ويتبرطل واصدر امره الى البطريرك مشدداً بتعيين تاودروس اسقفاً لاوسيم فرفض البطريرك امر الوالي ولذلك اصدر الحاكم الظلوم امراً بابادة جميع الكنائس القبطية في الفسطاط وبابليون فبداء الهدم اولاً في الكنائس القديمة الموجودة في قلعة بابيلون التي يسميها العرب بقصر الشمع (١) وقد ألح الاقباط كثيراً على بطريكهم باجابة طلب الوالي حتى لا تخرب الكنائس فلم يسع البطريرك الرفض وسام تاودروس اسقفاً لاوسيم ولكن بعد ان دمرت الكنائس وتقوضت

(١) اصل هذه الكلمة غالباً (قصر الخيمي او الشيمي) ومعناها قصر مصر

اركانها . ولم يكتف الوالي برسامة تاودروس بل طلب من البطريرك غرامة قدرها ثلاثة آلاف قطعة من الذهب جمعها الاقباط حالاً ودفعوها له و بذا كف الاضطهاد عن كنائسهم و بطريركهم

وما كادت مسألة تاودروس تنتهي حتى ظهرت مسألة اخرى اوجدها اسقف بابيلون الذي تصرف تصرفاً غير محمود ولا ممدوح . ذلك انه طلب ابدال مركز اسقفية بابيلون — وهي من المراكز الهمة — بمطرانية وترقية حضرته من رتبة اسقف الى مطران حتى بذلك يخرج من تحت سيطرة البطريرك ويكاد يساويه في الاهمية (١) وما اكتفى هذا الاسقف بما طلب من البطريرك بل رفع مسألته الى المحكمة الشرعية الاسلامية . وقد استعمل البطريرك يوسف طريقة الحكمة والسداد في هذه المشكلة فلم يوقع امته في مصيبة جديدة بل عمد الى الامر الذي اصدره الخليفة السابق المأمون القائل ان كل قبطي يجب ان يرضخ لحكم البطريرك الذي لا يجوز استئنافه

(١) في هذا الوقت كان بطريرك الاروام قد رفع اربع اسقفيات الى مطرانيات ضمنها بابيلون وكان غرضه من ذلك ان يرفعها في عيون الناس على اسقفيات الكنيسة القبطية الاصلية . ولما كانت بابيلون قريبة للفسطاط مقر الولاة المسلمين ولها اهمية عظمى في عيون الاسلام قام اسقفها القبطي وطلب من البطريرك رفعها الى مطرانية وترقية جنابه الى مطران حتى يكون مساوياً لنده الرومي الا ان الوسائط التي استعملها هذا الاسقف كانت غير جائزة ومحتقرة . (ولعل القراء يذكرون ان سبب ترقية لاساقفة لمطارنة في هذا العهد هو لان رهط الاقباط الكاثوليك في مصر عين مطرانيين في المنيا وطهطا !!!)

للولاة المسلمين · فلم يسع الوالي المجادلة والبحث في هذا القول بل صمت وخرص · ولم يكن البطريرك يوسف يعرف كلمة واحدة من اللغة العربيــة فكان جداله مع الوالي بواسطة ترجمان

وفي ذلك الوقت جلس على كرسي الخلافة المتوكل وهو الابن الثاني للمعتصم وولى ابنه المنتصر إمرة مصر · وكان الخليفة وابنه متعصبين جداً يكرهان الاقباط كرهاً شديداً مع انهما كانا يحتاجان الى خدماتهم ويستعملانهم في الاعمال الهندسية والحسابية والطبية وفي كل شغل يحتاج الى علم وذكاء وامانة ونباهة ومع ذلك فانهما عاملاهم بالقسوة والحيف وضايقاهم كثيراً حتى اضطر كثيرون من المسيحيين المستخدمين عند الخليفة والوالي الى نسيان الواجبات المسيحية المطلوبة منهم وتراخوا في شأنها حتى اهملوا امر ديانتهم بالمرة · وحدث ان مهندساً رومانياً اسمه اليعازر جاء مصر وبيده امر من الخليفة يقضي بخلع جميع حجارة الرخام واعمدة المرمر الموجودة في الكنائس القبطية ونقلها الى بغداد لوضعها في عمائر الخليفة ومنازله · واول كنيسة اخذ هذا المهندس الدني، رخامها كانت كنيسة مارمينا الموجودة في مريوط وقد مر بك وصف جمال منظرها وزخرفها وانها احسن كنيسة قبطية في مصر ولم تفد تضرعات البطريرك يوسف ولا توسلاته الحارة في البقاء على هذا المعبد الفخيم بل ان يد الدناءة والخسة دمرته تدميراً · قيل ان اليعازر المذكور ندم بعد ذلك على ما فرط منه وارسل مبلغاً من المال الى خليفة هذا البطريرك ليرمم به تلك الكنيسة التي خربها بيده

ولم يمكث المنتصر طويلاً في مصر بل رحل عنها وعين نائباً يقوم مقامه اسمه اسحق بن يحيى وكانت فاتحة اعمال هذا النائب اضطهاد البطريرك القبطي اضطهاداً فظيعاً حتى انه ذاق العذاب الواناً في نهاية حياته . من ذلك انه عندما توفي بطريرك انطاكية وقام خلفه مكانه ارسل هذا الخلف الرسالة المعتادة الى البطريرك القبطي يخبره بتعيينه ويقرئه السلام ويطلب منه امداده بنصائحه . فعمل البطريرك يوسف بواجب اللياقة وذهب من مصر للاسكندرية ليستقبل الوفد المرسل من بطريرك انطاكية ويحييه . فانتهز الوالي هذه الفرصة والقى القبض على البطريرك بدون سبب وبدون ذنب ثم جلده جلداً عنيفاً في الشوارع العمومية امام الوفد الانطاكي . فاذا كان هذا الوالي الظالم يقصد من معاملة البطريرك القبطي بهذه الكيفية تحقيره امام الاجانب الوافدين عليه فقد ساء فاله واخطأه في قصده فان رسل بطريرك انطاكية كتبوا تقريراً يتعجبون فيه من صبر هذا البطريرك على احتمال المصائب ويثنون على تقواه وشجاعته

ولم يكتف هذا الوالي المشؤوم بما فعل بل تعدى الى اهانة البطريرك يوسف اهانة شديدة اذ دخل عليه في معبده الخصوصي ومعه سراريه ومحظياته اللواتي دنسن المكان المقدس بعهرهن وفجورهن فقبل البطريرك هذا الفعل القبيح حامداً شاكراً . واخيراً اتهم هذا الوالي الظلوم البطريرك يوسف بانه يدبر مؤامرة ومكيدة مع بطريرك الاروام ضد الدولة الاسلامية وعلى هذه التهمة الفاسدة طرح البطريرك يوسف في سجن ضيق لا يمكنه ان

ينام فيه ولا تنفذه شمس او نور وصار يجلد كل يوم جلداً يسيل منه دمه .
وقد فهم الاقباط حينئذٍ ان الغرض من هذا العمل هو اخذ الرشوة المعتادة
فاسرعوا وجمعوا الف قطعة من الذهب وقدموها للوالي ليفرج عن بطريكهم
ولكن هذا البطريرك البائس كان قد بلغ من العمر اشده وقد انهكت الآلام
قواه وبيضت الاحزان عيناه واحنت المصائب ظهره فلم يعش بعد خروجه
من السجن سوى ثلاثة اسابيع فقط وانتقل لرحمة مولاه سنة ٨٤٩ وهو يحمد
الله الذي ساعده على اتمام امور ثلاثة كان يميل الى اتمامها من كل قواه وهي
انه اوجد صلة حبية بينه وبين كنيسة انطاكية وانه قدر ان يصلح الكنيسة
القبطية ويشدد عزائمها وانه نظم الاعمال الكنائسية في السودان والحبشة ومكن
ربط الاتحاد بينها وبينه

ولما كانت يد الله فوق كل يد فقد ضرب الوالي الذي عذب البطريرك
يوسف بضربات مؤلمات قصفت عمره قبل ان يتوفى البطريرك بايام قلائل
وسار الى حيث يؤدي حساباً عن ظلم ارتكبه وشر جناه واثم زرعته يداه في
هذا العالم سوف يحصد ثماره في العالم الآتي

الفصل الحادي والاربعون

﴿ احمد بن طولون ﴾

سنة ٨٤٩ للمسيح و٥٦٥ للشهداء و٢٣٥ للهجرة

جلس على السدة البطريركية بعد يوسف خائيل الثاني الذي طلب

منه الولاة المسلمون مبالغ طائلة يدفعها رشوة لهم حتى التزم ان يبيع اواني الكنائس ويسدد المطلوب · ولم تطل مدة هذا البطريرك سوى سنة واحدة ومات فاضطر الاقباط المساكين الى دفع رشوة جديدة لاجل تعيين بطريرك جديد وذلك قبل ان يفرغوا من همّ تلك الرشوة السابقة · فاختير البطريرك من رهبان دير ابا مقارة واسمه قزمان الثاني وكانت مدة رئاسته سبع سنوات أُفتتحت بازدياد الاضطهاد الذي بداء في ايام البطريرك يوسف الاسبق واخذ ينمو ويكبر في مدة قزمان حتى بلغ نهاية الصرامة والفظاعة · فقد اصدر الخليفة المتوكل الامر تلو الامر ضد المسيحيين عموماً في جميع انحاء المملكة الاسلامية وخصوصاً مصر التي لم يبطل فيها الاضطهاد سنة واحدة من قديم الزمان · والذي يقراء هذه الاوامر من ابناء هذا العصر يظنها غير شديدة لا يقصد منها الاضطهاد ولا العذاب بل هي وضعت لازعاج خاطر المسيحيين وتكدير صفاهم ولكن منطوق تلك الاوامر كان الغرض منه اذلال المسيحيين وتكدير اروقهم والاذلال في ذلك الوقت هو الاضطهاد والتعذيب · ولنضرب للقارئ امثلة على علائم الذل التي وضعها المسلمون للاقباط · فقد جرت عادة تلك الايام ان النساء فقط يلبسنَ المناطق والاحزمة والحياصات حيث هي علامة للحشمة والتواضع اما الرجال فلا يجوز لهم التمنطق بهذه المناطق · فصدر الامر حينئذٍ بمنع نساء الاقباط من استعمال هذه الاحزمة وان رجال الاقباط يلبسونها بدل النساء والا وقعوا تحت طائلة الاضطهاد والقصاص · فالغرض من ابدال لبس النساء بالرجال هو تحقير الاقباط وتهزئتهم

حتى اذا خالفوا الامر اما توهم او سلبوهم . ومن ذلك انه كان لا يجوز للقبطي ان يركب سوى حمار صغير او بغل ذميم على بردعة او سرج وبخ عليه علامة مخصوصة . ولا بد ان تكون الركابات من خشب بدل الحديد وان يكون اللجام قطعة من حبل فقط . ومنها انه يحتم على القبطي ان يخيط في اردان ثيابه رقعة طولها اربعة قراريط بلون عسلي او اصفر كيفما كان لون ثيابه وان كل سيدة قبطية تلبس برقعاً عسلي اللون (١) وما كانت المرأة القبطية تلبس البرقع قبل هذا الزمن الذي نحن في صدده ولكنها اضطرت الى لبسه اضطراراً حتى اذا سارت في الشوارع لا يميزها احد عن الامرأة المسلمة فلا تشتم ولا تهان . وقد الزم الاقباط ان يضعوا على ابوابهم تمثالا خشبياً يمثل نسناساً او كلباً او عفريتاً . وقد منعوا من ايقاد انوار او عمل احتفالات او اعراس وحجر عليهم استعمال الصليب المقدس حتى في الخدمات الكنائسية وان لا يوقد القبطي ناراً في وجاق بدون باب ولا يطبخ طعاماً على مرأى من الناس كما جرت بذلك عادة الفقراء في كل بلاد المشرق

وقد سئم الاقباط وتململوا من هذه الاوامر الثقيلة ولكن الاساقفة بذلوا جهدهم في تحميل الشعب على قبولها حتى لا يسيئوا الى الحكام المسلمين اساءة تعود عليهم بالويل والثبور والاضطهاد والعذاب . وكان اصعب شيء على الشعب القبطي لبس المنطقة التي يستعملها النساء لانهم رأوا فيها

(١) ظهر لي من مصادر عديدة ان هذا البرقع العسلي او الاصفر اللون كان خاصاً بالمومسات فقط قبل ان تجبر القبطيات على استعماله

دلائل الصغار والذل والخجل المعيب ولكن الاساقفة افهموهم بانها ضد ذلك تدل على التواضع والحشمة وانه يترتب عليهم لبسها حتى في الكنيسة ووقت الصلوة . ولما انف الاقباط من ركوب تلك الحمير الصغيرة والاتن القصيرة ذكرهم الاساقفة بان يسوع نفسه ركب جحشاً ولم يخجل وان الخيل المطهمة علامة الكبرياء والعظمة وهي لا تستعمل الا في الحروب

وقد صدر بعدئذ امر جديد غاية في القسوة والصرامة وهو يقضي برفت كل قبطي من خدمة الحكومة بدون استثناء وهو امر لم يسبق له مثيل حتى في ايام الاضطهاد الفظيع لانه لم يكن في استطاعة الحكومة الاسلامية ان تقوم باعمالها بدون مساعدة الاقباط وتعضيدهم لها . وقد كان لهذا الامر وقع سيئ اذ جلب شقاء كبيراً على عائلات كثيرة

ثم ان جميع الكنائس التي اعيد بناؤها بعد الثورة الاخيرة هدمت ولم يبق فيها حجر على حجر وكذلك قبور الاقباط ومدافنهم في القطر باسره نبشت وازيلت . ومن ذلك الحين والاقباط اليائسين اصبحوا فريسة لوحشية جيرانهم المسلمين ووصلوا الى حالة لم تصل اليها امة من قبلهم ولا وصلتها امة بعدهم . فقد خيم عليهم الشقاء وضرب البلاء اطنابه في جميع البلاد لشدة جور المسلمين وعنفهم وعسفهم واضطهادهم لهؤلاء المساكين وتضييقهم عليهم حتى بلغت ارواحهم التراق ولم يعد لهم جلد على هذه الحالة . ولو وقف المصاب عند هذا الحد وكف الظالمون ايديهم فيما بعد لحمدنا الذي مضى ولكن استفحل الشر وطفح الكيل عند ما صدر امر من الخليفة او من والي مصر

القصد منه ملاشاة المسيحيين ومحو آثار الديانة المسيحية من القطر المصري ومحوى هذا الامر ابطال الصلوة على كل ميت قبطي واقفال جميع الكنائس فلا تؤدى فيها خدمة قط وتقليع جميع اشجار العنب واتلاف الكروم ومنع بيع النبيذ حتى لا يجد الاقباط خمراً لاتمام فريضة العشاء الرباني · وقدنفذ هذا القرار الاخير بالدقة حتى صار من المستحيل ايجاد عنب او نبيذ في بر مصر بعد مضي مدة قليلة من الزمن ولكن الاكليروس القبطي في ذلك الوقت كان لا يخاف الموت ولا يخشى الاضطهاد والعذاب فهو لم يكف عن اتمام فريضة العشاء الرباني ولو ان العنب والنبيذ منعا من مصر ولكنهم كانوا يأتون بعنب من البلاد الاجنبية سراً و يصنعون منه الخمر المقدس كلما يحتاجون لذلك ولكن هذا العنب كان ينشف حين وصوله لمصر و يصير زبيباً يضعه الكاهن في الماء برهة ثم يعصره قبل ان يختمر لعدم وجود وقت كافٍ · فهذه المادة التي سار عليها كهنة الاقباط في ذلك الزمن وتجددت مرة اخرى بعد مضي مائة وخمسين سنة لحدوث اضطهاد وضيق آخرين اوجد عند مؤرخي هذا العصر فكراً هو ان الاقباط يستعملون على الدوام نبيذاً غير مختمر للمناولة · فهذا الفكر صحيح من وجه لان الاقباط استعملوا هذا النبيذ الغير مختمر وذلك في ظروف حرجة يعذرون عليها ولكنهم لم يمارسوه على الدوام كما ظن البعض

وفي نحو سنة ٨٥٢ وجه الرومانيون انظارهم لاعادة مصر الى قبضة يدهم واحتلوا دمياط مدة من الزمن فاضر عملهم هذا بالاقباط ضرراً عظيما لان

المسلمين شددوا النكير على المسيحيين بوجه عام وصدرت اوامر الاضطهاد والجور ضدهم فاصاب الاقباط الجزء الاكبر منها كما هي عادة الزمان معهم في كل حين . وقد توفي البطريرك قزمان الثاني في هذه الايام السوداء وخلفه شنوده الاول . وقبل تعيين شنوده هذا حدث اختلاف بين الاساقفة في من يخلف قزمان ولكنهم عادوا واتفقوا على انتخاب شنوده . وحدث ان شنوده دخل الكنيسة فجأة عند ما كان القس يتلوا القداس وقد وصل الى هذه العبارة « هو مستحق وعادل » فتفاءل الشعب حسناً بهذه الصدفة واتخذوها دليلاً على ان الله سبحانه وتعالى اختار شنوده لهذا المنصب الخطير

وقد انتهز والي مصر هذه الفرصة ليأخذ الرشوة المعتادة فطلب من الاقباط مبلغاً هائلاً ولكن شنوده فرّ هارباً وذهب لافتقاد الاديرة القاصية فلم يعرف المسلمون مقره ولذلك نهبوا امتعة القسوس وقفلوا جميع الكنائس في الفسطاط وبابليون الا واحدة فقط . فلما سمع شنوده ان اولاده القسوس يعذبون ويهانون لسبب هروبه عزم على ان يعود لمصر ويسلم نفسه للوالي فداء لراحتهم . فجمع الاقباط نحو اربعة الاف قطعة من الذهب دفعوها للوالي وتعهدوا له ان يدفعوا مثلها سنوياً اذا هو عفى عن شنوده ففعل وقبل

وبعد ذلك بقليل قتل الخليفة المتوكل بيد ابنه المنتصر الذي جلس على كرسي الخلافة نصف سنة فقط وعند موته وقع هياج عظيم في المملكة الاسلامية لان ولديه المستعين والمعتز قاما ضد بعضهما يتحاربان ويتضاربان كما ان الجيش التركي الذي قوي واشتد في ذلك الوقت انحاز لابن المعتصم

الاكبر ورأى قواده ان لهم الحق في تنصيب من يشأون من الملوك والخلفاء ·

وفي مدة خلافة المستعين القصيرة اعتدل الزمن قليلاً مع الاقباط ونالوا راحة لم يحلموا بها من قبل وكان ذلك بواسطة رجلين من الاعاظم المعتبرين اللذين سارا الى الخليفة بعد تصديق البطريرك ودعاء لهما بالتوفيق اذ بسطا للمستعين ما ذاقته مصر من المر والعلقم لجور ولاتها وظلم حكامها ورجاءاه ان يرحم بلادهما ويذيقها طعم العدل اللذيذ · ومعلوم ان حياة المستعين انقضت عند ما قبض اخوه عليه واودعه السجن ثم قتله · وقبل ان يصبه هذا المصاب افاد الاقباط فائدة عظمى واجاب مطالب الوجيهين المذكورين لانه ظن انهم يكونون اعظم عضد واقوى ساعد له اذا هو هادنهم وسالمهم ولذلك اعطى الرسولين تصريحاً بان جميع الاراضي والكنائس والاديرة واواني المذابح التي سلبت منهم في ايام الظلم والاضطهاد يجب ان ترد اليهم ثانية · وقد جاء هذان العظيمان الى بطريركهما بذلك القرار الذي اعطاه لهما الخليفة فطبع البطريرك عدة نسخ منه وارسلها لجميع الاساقفة في القطر المصري باسره وارفقها بجواب يشكر فيه الله على هذه المنحة التي كانت اعظم تعزية لهم على مصائبهم الماضية ويثني على الخليفة بما يستحقه · قال احد المؤرخين ان جميع كنائس الاقباط الواقعة بين الاسكندرية شمالاً واصوان جنوباً اصلحت وصارت الخدامات الكنائسية تمارس فيها كالعادة · وقد نجى الله مصر من الاختباط والارتباك الذي اصاب المملكة الاسلامية عند سجن المستعين وقتله الذي انتهى بخلافة اخيه وقاتله المعتز اذ عين تركياً اسمه

مزاحم بن خاقان لولاية مصر . وكان مزاحم هذا ذا نفوذ وقوة جاء مصر ومعه جيش جرار من الاتراك الذين كانوا يحتقرون العرب المسلمين كما احتقروا هؤلاء الاقباط المسيحيين "وما ظالم الا ويبلى باظلم » وبهذه الطريقة وُجد نوع من العدل في ايام مزاحم هذا وتساوى القبطي والمسلم وبطل السلب والنهب ونشطت الصنائع من عقالها بعد ان كادت تطمسها ايدي الظلمة الجائرين . وقد انتهز البطريرك في شنوده هذه الفرصة المناسبة واجرى اصلاحات عديدة في القطر كانت البلاد في حاجة كبرى اليها . ومما يذكر له بالشكر ايصاله المياه لمدينة الاسكندرية في قناة بنى لها صهريجاً مرتفعاً في المدينة ومدَّ منه المواسير والمجاري الى المنازل والمساكن فصار سكان الاسكندرية يشربون ماء زلالا احسن من الوقت الحاضر

ومن سوء حظ مصر مات مزاحم حالا بعد ان تولاها سنتين فقط وعين بدله تركي اسمه بيك سنة ٨٦٨ ولكنه لم يجئ مصر بل سلمها لعهدة رجلين ينوبان عنه احدهما لجمع الضرائب واسمه المندوب المالي والثاني لقيادة الجند واسمه المندوب العسكري وهو احمد بن طولون الذي ذهب بعض المؤرخين الى انه لم يكن ابناً حقيقياً لطولون بل ان هذا تبناه فقط . وعلى اي حال فهو تركي قح حاز الصفات الحربية التركية ولكنه امتاز عن الاتراك بشيء من المعرفة والعقل وحسن التربية . وكانت للرجل مطامع وافكار تميل الى العلا واحراز السطوه ولذلك سعى في تجريد زميله المندوب المالي من كل سلطة ولم يمده بعساكر يساعدونه على تحصيل الضرائب حتى يظهر امام المصريين بمظهر

الضعف ويعرفون ان الحاكم الحقيقي هو احمد لاشريك له • وكان اسم المندوب المالي احمد ايضاً كرهه المصريون ونفروا منه في المدة التي اقامها في مصر قبل قدوم ابن طولون اليها لانه ضاعف الضرائب على المسيحيين والمسلمين سواء وهي اول مرة تساوى فيها الاقباط بالاسلام منذ احتلال هؤلاء مصر • ثم انه احتكر بيع النطرون وصيد الاسماك لجانب الحكومة • فهذه الاعمال اوجدت لابن طولون فرصة بها يزحزح زميله من منصبه فوضع يده على وظيفته واستولى عليها بالحكمة والسياسة

ولم تكن مدة اقامة احمد بن طولون قد طالت في مصر حتى قتل الخليفة المهتدي الذي اخلف المعتز مدة سنة واحده فاختار الجنود الاتراك ابناً للمتوكل اسمه المعتمد واسندوا اليه الخلافة ولكن والي سوريا لم يقر على خلافة المعتمد فارسل هذا الى ابن طولون يطلب منه تأديبه واخضاعه وكان في نية ذلك الوالي السوري ان يستقل بمملكة خاصة له يؤلفها من سوريا وارمينية ومصر وهو فكر طالما جال في خاطر احمد بن طولون ولذلك استعد لاخضاع هـذا الوالي الذي قصد بعمله تخييب آمال احمد من حيث لا يدري • وللحال سار ابن طولون على سوريا بجيش من الاسرى والعبيد والاحباش والاروام وترك جيشه التركي لحراسة مصر • وكان الخليفة قد سبق وارسل والياً آخر طرد والي سوريا بدون ادنى مقاومة فعاد احمد ادراجه بعد ان غاب شهرين عن مصر وفي صدره شوق لاخذ سوريا وتأليف مملكة مستقلة

وقد وجد احمد ان القصر الذي يقيم فيه والثكنات المخصصة لاقامة

العساكر غير كافية للجنود الاتراك فعزم على بناء مدينة جديدة شمالي الفسطاط تكون خاصة للاتراك كما اختص العرب بالفسطاط والاقباط ببابيلون. فالمدينة التى بناها احمد بن طولون هي المعروفة الآن بمصر العتيقة التي يظنها بعض المصريين انها تحتوي على الفسطاط وبابيلون. وقبل ايام ابن طولون لم تكن توجد مدينة اسمها مصر على الاطلاق مع ان العرب كانوا يطلقون هذا الاسم على بابيلون والفسطاط معاً. وانت تعلم ان «مصر» كلمة عبرانية اطلقت على القطر المصري كله لا على مدينة واحدة ولكن بابيلون هو الاسم الصحيح الذي لا يزال الاوروبيون يطلقونه على مدينة مصر حتى ان الافرنج يسمون سلطان مصر بسلطان بابيلون لحد يومنا هذا مع ان بابيلون اصبحت اطلالاً دارسة وخرائب متهدمة في وسطها تلك القلعة القديمة التي تشهد بما كان لها من المجد والسؤدد قبل تلك الايام السوداء

وقد اتبع احمد في بناء مدينته ذات الخطة التي اتبعها الخديوي اسمعيل باشا عند ما بنى حي الاسمعيلية المعروف في القاهرة. ذلك ان ابن طولون قسم الارض الى اجزاء متفرقة اختار احسنها لبناء اماكن للحكومة ثم وزع الباقي على اتباعه والاعيان على شرط ان يبنوها ويسكنوها فتعمر وتزهو. وكانت النقطة التي انتخبها لمدينته بعيدة عن النهر اكثر من الفسطاط وواقعة الى الشمال الغربي منه تحت سفح المقطم. وكان هذا المحل قديماً مدفناً لليهود وبعدهم للاقباط ولكن هذا لم يمنع احمد عن اتمام مشروعه فامر بهدم جميع المدافن والمقابر واستعمال انقاضها في ابنية الحكومة التي شادها هو. وبعد ان تم بناء

المدينة احاطها بسور له ابواب عديدة وبنى في داخله صرحاً عظيماً لنفسه عمل له ميداناً فسيحاً غرسه بالازهار والرياحين

وقد وصل خبر هذه الاعمال التي اتاها ابن طولون الى مسامع الخليفة فداخله ريب من امره خصوصاً لان احمد المندوب المالي كان عدواً لدوداً لزميله المندوب العسكري فدس له الدسائس وكاد له المكائد حتى ان الخليفة ارسل امراً لابن طولون يشدد عليه بالحضور الى مدينة سمرة عاصمة الخلافة حينئذ وذلك بينما كان ابن طولون منهمكاً في ابنيته ومصالحه . فرأى احمد في نفسه قدرة على مخالفة اوامر الخليفة والازدراء بها ولكنه لم يفعل ذلك بل سلك طريق السداد وارسل كاتم اسراره مزوداً بهدايا ثمينة ومبلغاً وافراً على سبيل الرشوة للخليفة . وقد نجح ابن طولون في تدبيره هذا فثبته الخليفة في وظيفته مع ان سبيك كان لا يزال الوالي الاسمي لمصر ثم ارسل له امرأته واولاده الذين كانوا محجوزين في سمرة حتى يطيع امر الخليفة . وفي تالي سنة لهذه الحادثة أُخذت ولاية مصر الاسمية من بيك واعطيت لبرقوق وهو اسير تحرر وكان صهراً لاحمد بن طولون فرفت المندوب الوالي قطعياً ولغى وظيفته فلم يعين احداً بدله كما ان حاكم الاسكندرية والسواحل رُفت ايضاً ولذلك اصبح ابن طولون حاكم مصر الفعلي مع ان لقبه كان نائب الوالي برقوق

واول امر اهتم به احمد تخفيف وتعديل الضرائب التي أنَّ المصريون من ثقلها وتضجروا من عدم انتظامها . وقد استراح الاقباط لهذا الامر اذ تساووا مع المسلمين في كل وجه ولو في الظلم مع ان احمد كان يميز الترك على

العرب والروم على الاقباط فهو سار على سياسة اذلال القوي بمساعدة الضعيف ، وكان احمد يعتبر بطريرك الاقباط خصمه الذي يخشى من بطشه فاخترع طرقاً كثيرة بها يسلب اموال الاقباط حتى يبقوا دائماً في حالة الضعف والوهن بسبب الفقر والعوز ولكنه لم يأخذ هذه الاموال منهم بضرب ضريبة خصوصية عليهم بل لانه فرض مالاً طائلاً جائراً على البطريرك الذي كان يضطر لجمعه من شعبه . وفي السنة الاولى من تعديل الضرائب انزلها احمد الى مائة الف دينار فقط (اي ستين الف جنيه) حتى ان كاتم اسراره انتقده على انقاص الايراد لهذا الحد بينما هو في حاجة شديدة للمال ليصرفه في العمائر والمشروعات الاخرى الكثيرة ، قيل ان ابن طولون كان معتمداً في عمله هذا على حلم ظهر له فيه شيخ صالح يعرفه من طرسوس حيثما تربى واخبره انه اذا ترك الوالي لرعيته ماله من الحقوق والاموال (كذا) فان الله يعوضه بدلها اضعافاً

قال الراوي ... وبعد زمن قليل بينما كان ابن طولون راكباً حصانه وسائراً في الصحراء قاصداً الصعيد عثر حصان احد عبيده الذين كانوا يسيرون خلفه وغارت رجل الجواد في الارض لانها دخلت في حجر فسقط الحصان على الارض وكان لسقطته رجة وهزة انفتحت لها مغارة كبرى ربما كانت قبر احد الفراعنة ووجد في هذه الحفرة نقدية بلغت قيمتها مليون دينار (اي ٦٠٠ الف جنيه)

فلما علم ابن طولون ان اخبار هذا الكنز المهول قد ذاعت في جميع بلدان

المشرق رأى من الصواب ان يكتب للخليفة يخبره بما كان ويطلب منه التصريح بصرف هذا المبلغ على المنافع العمومية في مصر فلم يسع الخليفة سوى الاجابة بالايجاب لضعفه وقوة احمد . فوجود هذا الكنز اوجد عند المسلمين طمعاً في اكتشاف غيره فترك اكثرهم الاشغال التي يقتاتون منها وصاروا يحفرون وينقبون في جوف الارض حتى اتلفوا مدينة عين شمس ودمروا مابقي فيها من الاطلال والدمن ولم يجدوا شيئاً قط مع ان ابن طولون الذي ظل يبحث في الاماكن القديمة قيل انه وجد كنزاً لا يقل في القيمة عن الاول كما زعم الذين ذكروا هذا الخبر وهم الذين قالوا ايضاً ان ابن طولون وزع اكثر هذا المبلغ على المساكين وصرف الباقي في اتمام مدينته الجديدة وبنى جامعاً في قمة المقطم وجوامع اخرى غيره ثم شاد مستشفى في مدينته . وقد صرف ابن طولون اعتناء خاصاً ليجر المياه الى هذه المدينة وهذا العمل يلزم له تعب كثير بالنسبة الى موقعها وارتفاعها . ولم يكن هناك سوى ترعة واحدة تعرف باسم ترعة ابي خالد . فلما بنى ابن طولون خزاناً للماء اشار عليه بعضهم ان يملأه من ترعة ابي خالد فرفض هذا الرأي علماً منه انه اذا ملئ الخزان من هذه الترعة فلا بد من اطلاق اسم ابي خالد عليه على توالي الايام مع ان ابن طولون قصد باقامة هذا الخزان ذكرى له ودلالة على اهتمامه بالاصلاح والعمران

وقد كان المهندسون والمعماريون في مصر وارباب الصنائع والفنون من الاقباط فقط سواء في ايام المسلمين او قبلهم . فاستحضر ابن طولون مهندساً قبطياً اشتهر بطول باعه ومهارته في هذا الفن وطلب منه ان يعمل

ما في وسعه لايصال المياه الى مدينته بطريقة سهلة ومتينة وبشكل جميل لا يتغير . فللحال اختار المهندس القبطي مكاناً في الصحراء الجنوبية وحفر فيه بئراً عميقاً اخرج منه الماء الى سهريج بناه على قباب واعمدة عديدة فصار هذا السهريج يملأ من البئر ويوزع الماء في مواسير ممتدة الى المنازل . وعلى هذا النسق قام صلاح الدين بعد هذا الزمن بكثير وشاد سهريجاً به يجر الماء الى القلعة المعروفة باسمه . ولا يزال سهريج ابن طولون وسهريج صلاح الدين موجودين ليومنا هذا يزور الاجانب الذين يرتادون مصر السهريج الثاني اما الاول فقلما يقصده احد . فاذا انت ركبت خط سكة حديد حلوان القديم ونظرت الى الصحراء شرقي مصر وبابليون والفسطاط لرأيت السهريج الذي بناه احمد بن طولون

وكان الناس في تلك الايام يعتبرون هذه القناة من اكبر العجائب واهمها حتى انها عند ما تمت ركب ابن طولون في محفل حفيل وسار ليراها ويشكر المهندس الذي براها . وكان من سوء الحظ ان احد العمال اهمل في نقل كومة من الاتربة والاحجار المتخلفة عن البناء فعثر فيها حصان ابن طولون وسقط على الارض براكبه الذي لم يصبه اذى ولكنه تطير وتشاءم فغضب وحنق وبدل ان يكافىء المهندس القبطي ويدفع له المقاولة المتفق عليها امر بالقبض عليه وطرحه في السجن حيث ظل سجيناً مدة من الزمن

وقد طهر احمد ترعة الاسكندرية ودمم جروفها المنهارة وبنى اقنية ومجاري للماء في هذه المدينة واصلح المنهدم في اعلى المنارة الموجودة في البحر . ومن

اعماله ترميم مقياس النيل الكائن في جزيرة الروضة ثم بناء مستشفى في الفسطاط وحمامات عمومية ايضاً وكان يتعهد بنفسه الابنية التي احدثها ويرى ما اختل منها فيصلحه . وحدث ان احد المتوهين الموجودين في الاسبتالية شرع في قتل احمد عند ما ذهب لزيارتها فلم يؤخره هذا عن افتقادها كعادته ولا حرَّك له ساكناً . وبالاجمال فان مصر لم يعتن بها احد من ولاة المسلمين مذ ما افتتحوها كما اعتنى احمد بن طولون بأمرها سوى ان الاقباط والعرب تذمروا وتغمروا كثيراً من امور متباينة متخالفة . فان شكوى الاقباط كانت لأن احمد اراد نهب اموالهم وزاد في ضرائبهم . واما العرب فلأن احمد منعهم من نهب الاقباط وغل ايديهم عن ظلم ظلوا يرتكبونه قروناً عديدة

الفصل الثاني والاربعون

العمري واعماله الخطيرة

سنة ٨٧٨ للمسيح و٥٩٤ للشهداء و٢٦٤ للهجرة

بين الذين اشتهروا من المسلمين بأعمالهم الخطيرة التي تقرب من الهوس والجنون رجل اسمه العمري امتاز عن سواه بقوة بطشه وحدة جنانه وبالاضرار التي جرها على النوبة او هي المملكة السودانية المسيحية المتاخمة مصر من الحدود الجنوبية . والمقريزي يذهب الى ان هذا الرجل من سلالة

الخليفة عمر ويقول ان اسمه ابو عبد الرحمن العمري العدوي القرشي ولكن اللقب الذي امتاز به هو العمري فقط · اما مسقط رأس هذا الداهية المغوار فالمدينة حيثما نشاء ولكنه درس بعض العلوم في الفسطاط وتمرن على الاعمال الحربية تحت قيادة ابرهيم احد النهابين السلابين الذين اتعبوا ابن طولون حتى ان ابرهيم هذا اخذ منه مبلغاً طائلاً من المال فعاد الى الفسطاط وكف عن غاراته · وحدث ان العمري سمع بعض المصريين يتحادثون عن معادن الذهب الموجودة في الاماكن الجنوبيـة حيثما كانت تستخرج المقادير الوافرة من ذلك الاصفر المحبوب في الازمنة الماضية · فعند ما سمع العمري هذا الكلام صمم على السفر الى حيث توجد هذه المناجم الذهبية لاستخراج ركاز الذهب منها وابقائها لنفسه ولكنه ابقى هذا الامر سراً مكتوماً داخل صدره فلم يبح به لاحد ولكنه اشاع بانه عازم على الذهاب جنوباً للاشتغال بالتجارة ثم اشترى عدداً كبيراً من العبيد ليفحروا هاتيك المناجم وسار بهم الى اصوان اولاً حيث شرع بجمع ما يمكنه من المعلومات الدقيقة عن اماكن تلك المناجم القديمة

ومن اصوان صعد العمري الى ان وصل مكاناً قيل ان فيه معدن الذهب الثمين · ولكنه وجد بدل الذهب قبيلة مضر العربية قد ضربت مضاربها هناك واخذت تشن الغارات على قبيلة ربيعة طلباً لثار رجل منها اغتالة ربيعة · وقد انتهت الحرب بين القبيلتين بعقد صلح اقسموا فيه على عدم المشاحنة والمطاعنة وهذا ضد رغبة العمري الذي كان من صالحه ايقاع القبيلتين مع بعضهما حتى

يفنيا فيخلوله الجو ولذلك حرض قبيلة مضر ضد ربيعة الا ان القبيلتين اتفقتا على محاربته فقامتا في وجهه ووجه رجاله يقصدون اهلاكهم ولكن العمري اسرع بالمسير الى الجنوب قاصداً منجماً آخر كان بعيداً جداً عن النيل حتى اضنى العطش رجاله لانهم لم يعرفوا الطريق الى النيل ولا في اية جهة يقصدون الى ان حامت حولهم حومة من الطيور فأرسل العمري بعض رجاله خلفها و بواسطتها اهتدوا الى النيل وشربوا

وكان العمري في هذا المكان داخل حدود بلاد النوبة المسيحية التي بدا سكانها ينظرون اليه بعين ملؤها الغيظ والغضب لانه اعتدى على ارضهم واخذها لنفسه بدون حق ولذلك قبضوا على بعض رجاله وسجنوهم فجاء العمري بذاته يتفاوض معهم و يرجوهم ان لا يضايقوه فأطلق السودانيون سراح رجاله ولكنهم منعوا عنهم الماء وقتلوا كل وارد للاستقاء . ولما كان العمري مصراً على اتمام مشروعه اراد ان يقاوم النوبيين فسار ضدهم برجاله وعبر النيل في مكان اسمه شنكير شمالي دنقله وهاجم السودانيين بغتة فانتصر عليهم انتصاراً باهراً وقتل كثيرين منهم واخذ الباقي اسرى كان يبيعهم عبيداً بثمن بخس جداً حتى ان المقريزي قال انه عند ما كان يقصد احد رجال العمري قص شعره كان يعطي الحلاق عبداً اجرة الحلاقة

ولم ينج من السودانيين الا القليل الذين وضعوا امتعتهم في قوارب وقطعوا النهر للجهة الاخرى وظنوا انفسهم في امان لان العمري لم تكن عنده قوارب مثلهم . ولكن هذا الرجل كان ماهراً جداً اخترع حيلة بها اخذ هؤلاء

المساكين وقواربهم . ذلك انه امر رجاله ان ينفخوا القرب التي كانوا يستقون بها الماء وارسلهم تحت جناح الظلام الى الشاطئ الآخر اذ عبروا النيل سباحة فوق قرب الجلد هذه فوصلوا بكل هدوء وسكينة حتى ان احدهم عضه تمساح في رجله فلم يفه بكلمة استغاثة خوف ان يستيقظ السودانيون الذين اخذوا على غرة بهذه الحيلة الغريبة

وكان ملك النوبة في ذلك الحين صاحبنا جرجس بن زخاري الذي مرّ بك انه عزم على ابطال جزية العبيد عندما سافر لبغداد والتقى بالخليفة . فلما سمع جرجس عن العمري واعماله ارسل جيشاً ليطرد هذا المسلم العاتي من بلاده . وكان جرجس في ذلك الوقت هرماً عجوزاً وله منزلة كبرى في بلاده اذ يحترمه الشعب ويحبه كثيراً . وقد وجدت صورة هذا الملك في كنيسة قديمة في احدى البلاد السودانية وهي تمثل جرجس في سن الثمانين سنة جالساً على عرش من الابنوس المطعم بالعاج ومغشى بصفائح من الذهب الوهاج وعلى رأسه التاج الملوكي المرصع بالحجارة الكريمة يعلوه صليب من الذهب الخالص

وكان للملك جرجس قائد اسمه نيوتي ارسله لمحاربة العمري . ونيوتي هذا زوج ابنة جرجس لابن اخيه . وقد ظلت الحرب سجالاً بين العمري ونيوتي ولم يحز النصر احد من الفريقين . واخيراً عمد نيوتي الى خيانة مولاه الملك وتحالف مع العمري ضده وقام الاثنان يحاربان جرجس الذي ارسل ابنه الاكبر بجيش جديد لم يلبث ان هزم ولم يستطع الوقوف ضد جيشي العمري ونيوتي . فخجل الابن من العودة لأبيه وفرّ هارباً الى المملكة

السودانية الواقعة جنوبي مملكتهم وهي مسيحية ايضاً كان اسمها ألواح ومكث هناك عند ملكها

فقام ابن جرجس الاصغر وكان اسمه زخاري وطلب من ابيه ان يطلق يده في العمل وهو يتعهد بتخليص البلاد من ايدي العمري المسلم ونيوتي الخائن فزوّده ابوه بجيش ثالث كامل العدد والعدد

وقد بدأ زخاري عمله بمخابرة العمري في امر هو ان يبقى هذا ساكناً لا يتداخل في شيء حتى يؤدب زخاري صهره نيوتي على خيانته ودناءته فقبل العمري هذا الشرط وقام زخاري وأقام حرباً على نيوتي ولكنه لم يلبث ان هزم وتشتت جيشه ايدي سبا وفرّ هو هارباً من وجه نيوتي وسار توّاً الى العمري ولم يقل له انه زخاري بل اخبره انه رسول جاء من عند زخاري يريد مقابلته مقابلة خصوصية بعد ان سأله الأمان على حياته مؤكداً له ان زخاري لديه قوّة كافية من عند ابيه الملك ولكنه لا يقصد الحرب بل يريد ان يعقد صلحاً على شروط ودية . فلما امنه العمري على حياته اظهر له زخاري نفسه وقال له انه زخاري بعينه فذهل العمري من حكمة هذا الامير وشجاعته ورفع منزلته في عينيه

وقد مكث زخاري مدة عند العمري ازال فيها كل شبهة ضده واكتسب صداقته واظهر له المودة والاخاء وظل يقص له حكايات القبور القديمة الخفية التي دس فيها المصريون القدماء كنوزهم واموالهم وصرح له باستخراج تلك الكنوز في اي وقت شاء . فلما رأى زخاري ان العمري قد

مال اليه بكليته اخذ يكاشفه بما يجول بخاطره من التدابير المهمة وقال له ان نيوتي هو عدوه الالد فلا يهمه سوى التخلص منه وبعدها يقتسمان المملكة سوية ثم بعد قتل نيوتي يزوجه بأرملته التي هي اخت زخاري حتى يكون له منزلة في اعين السودانيين

فرفض العمري اهلاك نيوتي بدعوى انه قائد ماهر وان جيشه احسن من جيش العمري واكثر شجاعة فلا يمكنه محاربته والتغلب عليه . فاجابه زخاري انه لا يقصد محاربة نيوتي ولكنه يأخذه بالحيلة بدون تعب ولا عناء . ولما كان العمري واثقاً بقدرة زخاري على تدبير الحيل والمكائد أذن له بعمل ما يحسن في عينيه ووضع أربعة من اقوى ضباطه وامهرهم تحت امره

وللحال نزل زخاري في زورق وسار في النيل بعد ان اعطى رفقاءه الضباط تعليمات بالخطة التي يتبعونها وقد وعدوه واقسموا له بتنفيذ اوامره بامانة واستقامة وحينئذٍ وصل زخاري وجماعته الى جزيرة واقعة تجاه المكان المعسكر فيه نيوتي وهناك شد الضباط وثاق زخاري وتركوه منفرداً وساروا في النيل قاصدين نيوتي فعند ما اقتربوا منه قالوا انهم يريدون الاختلاء معه لامر ذي شأن . فلما قابلهم نيوتي على الشاطىء حياه الضباط الاربعة باسم العمري واخبروه انهم احضروا له زخاري حسب رغبته وهم مستعدون ان يسلموه له مقابل دراهم او عبيد يأخذونها مكافأة على عملهم ويظهر من ذلك ان نيوتي كان قد كتب للعمري يسأله ان يسلمه عدوه زخاري لكي يقتص منه وبعد اخذ وعطاء ومساومة ومبايعة اتفق الضباط على مبلغ طائل

يأخذونه من نيوتي ثمناً لزخاري ولكن نيوتي اشترط على ان لا يدفع الثمن قبل ان ينظر زخاري بعينه ويتحقق من شخصه وكان الضباط ينتظرون هذا من نيوتي فقبلوه ورضوا ان يسير معهم ولكن نيوتي طلب كتيبة من الجنود ان ترافقه وتبحر معه في الزوارق فرفض الضباط طلبه هذا وقالوا له انهم اربعة رجال فقط فلا يسلمون له ان يأخذ معه زمرة من رجاله لا يبعد ان يقتلوهم او على الاقل يسلبون منهم زخاري دون ان يدفعوا شيئاً لهم وعليه امر نيوتي رجاله ان يعودوا الى خيامهم واخذ معه رجلين او ثلاثة فقط وابحر مع الضباط الى ان وصلوا الجزيرة الموجود بها زخاري ففرشوا له سجاجيد وابسطة واقاموا له عرشاً ليجلس عليه ثم جاؤا بزخاري امامه وهو مكتوف اليدين حاسر الرأس . وكان زخاري قد اتفق مع الضباط انه عند ما يزرف الدموع من عينيه يهمون هم بقتل نيوتي واخماد انفاسه

وكان نيوتي قد سعى الى حتفه بظلفه . فانه اخذ يضرب ظهره المغلول الايدي ضرباً مؤلماً ويشتمه ويسبه ويلعنه باقبح الفاظ السباب والشتائم وزخاري يستشفع ويستعطف ثم سالت الدموع من عينيه وهي العلامة لقتل نيوتي الذي قام عليه الاربعة ضباط وقتلوه بدون شفقة ولا رحمة ثم حلوا وثاق زخاري فسار معهم بقدم ثابتة الى الشاطئ الثاني وطلب من جيش نيوتي الخضوع والطاعة بلا خوف ولا جزع اذ هو قد صفح لهم عما ارتكبوه في الماضي . فرحب به الجيش مظهراً كل طاعة وحينئذ جمع زخاري مجلساً حربياً من كبار الضباط واسر لهم ما يقصد عمله من الامور الخطيرة ولكنه

اعلن جهريًا انه لا يزال صديقًا حميمًا للعمري ثم امر باكرام ضباطه الاربعة ومعاملتهم بالحسنى وكتب للعمري يخبره بنجاحه في عمله وطلب منه ان يستعد للاحتفاء بقدوم هذا الجيش الجرار الذي وعده قبلاً بان يضعه تحت امره . ولما ارسل زخاري هذه الرسالة طرح برفع التنكر وامر بقتل الضباط الاربعة الذين رافقوه ثم استعد للمسير ضد العمري ومهاجمته فعبر النهر قاصدًا معسكره وسار بهيئة جعلت احد اتباع العمري يرتاب في امره لانه كان متجهًا نحو خيمة مولاه بجيش يربو عن جيشه ولما قرب زخاري من العمري اعطى جنوده اشارة فهجموا على المسلمين واغمدوا السيوف في رقابهم فقتل كثيرون منهم ولكن العمري فرَّ مع بعض جنوده ولجأ الى الزوارق وسافر بها في النيل قاصدًا النجاة . وكان زخاري عالمًا بهذه النتيجة وان العمري يلجأ للبحر فاوصى احد اتباعه البحارة بكيف يتصرف معه اذا هو هرب . فلما قرب العمري من هذا الربان رجاه ان يوصله الى شمالي الشلالات وهو يدفع له مالاً كثيرًا . فربط الربان زوارق العمري واتباعه معًا وسار امامهم في زورق خاص به الى ان اوصلهم الى مكان صخري لا يمكن عبوره ورمى بنفسه الى البحر فنجى سباحة اما زوارق العمري فتحطمت وتكسرت وغرق جميع العساكر الذي كانوا معه ولم ينج منهم احد الا العمري الذي لم يكن في تلك الزوارق التي اصابتها اول مصيبة . ومع ان هذا الرجل قاسى اتعابًا كثيرة وتحمل خسائر جمة وكاد يعضه الموت الا انه لم ييأس من النجاح بل جمع قوته واقام في النوبة سنة كاملة والتف حوله بعض الاعراب

الذين اغواهم زخاري بالمال والمكر حتى تركوه فضعفت قوته وحينئذ سار زخاري ضده بجيش عرمرم فلما سمع العمري ذلك ولى الادبار قاصداً مصر وقبل ان يصل اصوان التقى بعدو جديد هو ابراهيم الصوفي احد الظلمة الخاطفين الذين اذاقوا مصر المر من فضائحهم ومنكراتهم

وقد وضع الصوفي هذا يده على اقليم اسنا ظلماً وقهراً وقتل كل من قاومه او عارض سلطته حتى اوشك ان يخرب ذلك الاقليم

فلما رأى ابن طولون ذلك ارسل ضده حملة فهزمها الصوفي شر هزيمة فارسل احمد حملة اخرى ضده اقوى من الاولى فقهرت الصوفي عند اخميم وفلت جموعه اما هو ففر هارباً ولجأ الى الواحات حيث جمع له قوة جديدة من الاشقياء الذين طردوا من مصر ونزل بهم الى النوبة ليحذو حذو العمري ويغتصب جزءاً من اراضي السودان الخصبة . ولكنه ما وطئ ارض السودان حتى التقى بالعمري عند انهزامه امام زخاري فاشتبكت بين الاثنين حرب عوان اظهر فيها العمري منتهى البسالة والاستماتة فانتصر على ابراهيم وهزمه الى اصوان حيث التقى هذا بجيش ثالث من المسلمين تحت قيادة شباح البابكي الذي ارسله احمد ليأتي بالعمري ويضع حداً لاعماله وتصرفاته في السودان . ويظهر ان اتباع ابراهيم ملوا البقاء معه فتركوه وانضموا تحت راية العمري الذي سار ضده شباح ليحاربه . وقد اجتهد العمري ان يعقد صلحاً مع شباح فلم يفلح وحينئذ شن عليه الغارة وهزمه وشتت جيوشه وتعقبه لغاية ادفو وظل يقاتل جنود ابن طولون شمالي اصوان حتى طردهم لمصر

فسرّ زخاري لخلاص بلاده من هذا العدو المبين الذي اضرَّ به وبجيوشه كثيراً · وفي ايام احمد بن طولون كانت مصر احسن حالاً من النوبة فيما يختص بالمتشردين واللصوص حيث ان العمري آلى على نفسه ان لا يكف عن معاكسة السودان لانه في السنة التالية عاد اليه قاصداً ان يشتغل في المناجم ويستخرج منها الذهب ولكنه وقع مع قبائل العربان الذين كانوا يكرهونه ووقعت بينهم وبينه حروب دموية كثيرة فدارت الدائرة على العمري وسقط في فخ نصبه له شيخ من قبيلة مضر كان قد اقسم بالايمان المغلظة ان يقتل العمري فقتله

ولما قُتل العمري اراد اثنان من عبيده ان يجمعا شيئاً من المال من موته فقطعا رأس مولاهما وهو مائت وذهبا بها الى احمد بن طولون واخبراه انهما قتلا العمري واقنعاه انها رأسه التي بيدها بدون شك ولا جدال · فسألهما ابن طولون اذا كان العمري قد اساء اليهما اساءة تستوجب مثل هذا القتل وقطع الرأس فاجاباه انه لم يسيء اليهما قط ولكنهما قتلاه ليستجلبا رضى مولاهما الامير ابن طولون · فقال لهما ابن طولون ان قد ساءه فالهما لانهما ارتكبا اثماً يسخط الله ويغيظ الناس وامر بجلدهما جلداً عنيفاً ثم صلبهما وقطع رأسيهما



الفصل الثالث والاربعون

مدينة ابن طولون الجديدة وجامعهُ

سنة ٨٨٠ للمسيح و٥٩٦ للشهداء و٢٦٦ للهجرة

عرفنا في الذي مرّ ان ابن طولون كان يخشى صولة المغيرين المسلمين مثل العمري وغيره ويتعب كثيراً في صد غاراتهم ومنع هجماتهم . وقد كان هذا الوالي ينظر ايضاً الى شنوده بطريرك الاقباط بعين ملؤها الحذر والخوف ويعده خصماً عنيداً له ولذلك ظل ابن طولون مدة وهو يترقب الفرص لاضطهاد الاقباط واكايروسهم الى ان حانت له فرصة عند ما قام شماس قبطي خائن عقوق وقدم لابن طولون شكوى كاذبة يقول فيها ان شنوده يختلس الاموال ويسرف ويبذر وينهب فقبض احمد على البطريرك واساقفته ووضع الاغلال في اعناقهم وساقهم مثل الاغنام من بابيلون الى مصر حيث جرّدهم من ملابسهم الكهنوتية واركبهم على حمير بدون براذع وامر ان يطاف بهم في شوارع هذه المدينة التي كانت مأهولة بالمسلمين باحتفال هو علامة الاحتقار والسفاهة ومنتهى الازدراء واللؤم . وبعد نهاية هذا التحقير المهين طرح شنوده فقط في السجن حيث مكث فيه ثلاثين يوماً وهو يتألم ويتوجع من داء النقرس (مرض المفاصل) الذي اصابه واخيراً جيء به امام الوالي ليحاكم فاثبت براءته وفساد التهمة الموجودة ضده ببرهان صريح وحجة متينة . وقد اشتد سخط جمهور الاقباط على ذلك الشماس الكاذب النمام حتى

قصدوا ان يوقعوا به ولكنه اسرع الى البطريرك وطرح نفسه على قدميه طالباً منه الصفح والمغفرة بينما هو كان يسعى لاهلاكه وقد حمله كل هاتيك المصائب الجسيمة والاضطهادات الاليمة • فاظهر هذا البطريرك المفضال ميلاً الى التسامح ولم يكتف بالعفو عن هذا الخائن بل نفحه بمبلغ من المال ليستعين به على الرجوع الى بلدته بمديرية الشرقية واعطاه جملاً يركبه وثلاث حلل من الثياب ليلبسها وزوّده بدعوات صالحات حتى ان كاتم اسراره عنفه على هذا اللين الزائد والشفقة المفرطة على شخص لا يستحق سوى القصاص الحق من جنس عمله • ولقد صح ظن كاتب البطريرك وصدق في تعنيف مولاه لان ذلك الشماس الوغد عاد الى خانه الذميمة وصار يتهم الاقباط بتهمات كاذبة لدى الحكام المسلمين لكي يتحصل على شيء من حطام الدنيا ولكن الله انتقم منه بعدله اذ قبض عليه حاكم الشرقية وجلده بالسياط جلداً عنيفاً حتى مات من تأثير الضرب • وقد نسج كثيرون من الخلماء او المسيحيين بالاسم على منوال ذاك الشماس فكانوا يتهمون اخوانهم ومواطنيهم تهماً باطلة حتى ينالوا حظوى لدى الولاة المسلمين الذي كانوا يتخذون هذه التهم حجة بها يضطهدون الاقباط ويعذبونهم

وكان البطريرك شنوده مولعاً بجمع الكتب القديمة ذات الأهمية الكبرى • وحدث عندما أتهم باختلاس الاموال كما ذكرنا وامر ابن طولون بتفتيش الصناديق والخزائن الموجودة عنده وُجدت هذه الصناديق ملأى بنسخ من تلك الكتب المسطورة بخط اليد • وقد أتهم المسلمون البطريرك

شنوده بتهمة لا تخلو من الصحة في انه يسعى في ردّ المسلمين من الديانة الاسلامية الى المسيحية وكان ذلك مضاداً لاوامر الخليفة التي صدرت حديثاً وهي تقضي بابادة الديانة المسيحية من القطر المصري وملاشاتها ولكن هذه الاوامر لم تنفذ ولم يزد الاضطهاد ضد الاقباط اكثر من ذي قبل ذلك لان ابن طولون عصى اوامر مولاه جميعها ونادى بنفسه سلطاناً لمصر وسوريا

وكان ابن طولون عالماً ان هذه الدعوى تجر حرباً عليه وان الخليفة لا يلبث حتى يجرّد ضده جيشاً لاخضاعهِ فاخذ يقوّي حصون الفسطاط وبنى قلعة جديدة في جزيرة الروضة ليمنع المهاجمين بحراً ووضع فيها مئة من ابطال الرجال بكامل العدد والمؤونة ثم اقام مكامن ومراصد ووضع فيها حمام الزاجل ليحمل اليه الاخبار في اسرع وقت . وقد منع ابن طولون تصدير الغلال وشاد قلعة جديدة للدفاع عن مدينته أتمّ بناؤها في برهة صغيرة جداً لان العمال كانوا يشتغلون بالمناوبة ليلاً ونهاراً

وكان من حسن حظ مصر وابن طولون معاً ان الجيوش التي ارسلها الخليفة عليه خرجت ضد قوّادها وعصت اوامرها قبل ان تطأ اقدامها أرض مصر ولذلك امتلك ابن طولون القطر المصري دون أن ينازعهُ احدٌ فيه . وقد افتتح ملكه باجتذاب قلوب الشعب المصري اليه فانه وزع هدايا واموالاً طائلة فرحاً بفوزهِ ودفع أجور العمالِ الذين اشتغلوا في الحصون والمعاقل . وقد احصى مؤرّخو المسلمين المبالغ التي صرفها ابن طولون على التحصين والتجييش استعداداً لحرب لم تقع فبلغت هذهِ المصاريف نحو ٨٠

الف دينار او تزيد

ولما صفى الزمان لابن طولون واستتب له الحكم على مصر شرع في بناء جامع جديد لمدينته الحديثة يفوق في الرونق والبهاء كل جوامع مصر . ولم يكن المسلمون في ذلك العهد يعرفون بناء القباب والمآذن (١) التي كانت تزدان بها الكنائس القبطية حتى ان كثيرين من ولاة المسلمين كانوا يعجبون بأقبية الكنائس ويندهشون من نسقها الهندسي الجميل وهذا ما حدا بعبد العزيز الى الالحاح على بطريرك الاقباط ببناء كنيستين في حلوان يكونان زينة لهذه المدينة الجديدة . اما جوامع المسلمين في صدر الاسلام فكانت عبارة عن أرض محاطة بسور غير مسقوفة لاشكل هندسي لها ولا رونق لبنائها مع ان جدرانها كانت تقام من الاحجار الثمينة كالرخام والمرمر . وبعد ذلك قلد المسلمون الاقباط فصاروا يبنون سقائف في جوامعهم ويأخذون اعمدتها بالقوة من كنائس الاقباط مادام ان هؤلاء العرب لم يكونوا يفقهون نحت الاحجار وتشييد الاعمدة على القواعد الهندسية التي كانت معروفة يومئذ للاقباط فقط . وقد صنع العرب أعمدة في هذه الازمنة الحديثة اذا رأيت واحداً منها عرفت الفرق الهائل بينها وبين اعمدة الكنائس القبطية التي سلبها منها هؤلاء الغزاة . مثال ذلك الجامع الكبير القديم الموجود في المحلة الكبرى وهو يحتوي على نيف ومائة عمود منها أربعة وسبعين أخذت

(١) اول من بني مأذنة في جامع مثل قباب الكنائس هو أحد ولاة مصر الذي حكمها من سنة ٦٦٨ لغاية ٦٨٢ ولكنها لم تتم الا بعد ذلك بزمن طويل

قسراً من الكنائس القبطية في قديم الزمان والباقي أعمدة حديثة لا تناسب تلك في شيء . كذلك أكثر الاعمدة الموجودة في الجامع الازهر وفي جميع الجوامع القديمة القائمة الآن في مصر فانها مأخوذة من الكنائس القبطية . فاذا كنت ذاهبة وساقك نكد الطالع لزيارة بلدة كانت تحتوي قديماً على كنيسة قبطية جميلة فهناك تسيل منك المدامع كالسيل المنهمل عند مالا تجد اثراً لتلك الكنائس اذ ترى في الجوامع الكائنة في تلك البلدة أعمدة الكنائس القبطية قائمة يعلوها التراب كأنه ثوب حداد لها او مقلوبة مطروحة على الارض كأنها مائتة كما يموت الفصيل اذا أبعدته عن أمه ومنعت عنه وسائل الحياة

وكان ابن طولون يريد أن يجعل جامعه الجديد تقدمة لله يثاب عليها وتمنع عنه شديد العقاب عما اقترفه من الخطايا والذنوب فلذلك رغب أن لا يتعدى نصوص القرآن في بنائه بمعنى انه لا يسخر احداً في عمل ما وعليه بدىء العمل بتلاوة آيات القرآن على مسمع من السلطان حتى لا يفوته شيء مما ورد فيه . ولما وصل القارىء الى الامر القائل بعدم استعمال أدوات مسروقة في بناء الجوامع نهض ابن طولون من مكانه ومزق ثيابه وصاح قائلاً « انه يستحيل تشييد الجامع بدون نهب مواده من الكنائس فانني ما سمعت من يوم وجودي في هذا العالم ان جامعاً بني دون ان تؤخذ اعمدته من كنائس المسيحيين . وحيث انه لا يمكنني الاغاضة هذا الامر فسوف اخالفه واستغفر ربي عن هذا الذنب ان لم يكن بناء الجامع كافياً للغفران »

وقد علم الناس جميعاً ان السلطان وقع في حيرة وارتباك وخاف الاقباط ان يفتي أحد المسلمين بجواز نهب أعمدة الكنائس لان مثل هذا السلب لا يعد جرماً ما دام اصحاب الكنائس هم كفرة ملحدين حسب زعم جماعة المسلمين . ولكن قيض الله للاقباط ذلك المهندس القبطي البارع هو ابن كاتب الفرجاني الذي كان مطروحاً في السجن من يوم ان عثر حصان ابن طولون في انقاض العمارة وسقط به . فان هذا المهندس أرسل يقول للسلطان انه اذا اطلق سراحه فهو يتعهد ببناء جامع جميل ويصنع له أعمدة بلا مثيل وبذا ينجو السلطان من جريمة سرقة المواد اللازمة لتشييد جامعه . وللحال حل ابن طولون عقال الفرجاني الذي كان يعرف فناً من الهندسة لم يعرفه أحدٌ غيره في ذلك الوقت وهو بناء قناطر وقواصر بدل اقامة الاعمدة ما وفى بالغرض المطلوب . ولا يزال هذا الجامع موجوداً الى يومنا هذا حسب ما وضعه المهندس القبطي الا انه ترمم كثيراً وغير السلطان الكامل جزءاً صغيراً منه . وقد جعله اسمعيل باشا الخديوي الاسبق داراً للعجزة الذين كانوا يطوفون في الشوارع يلتمسون القوت و يستعطون بحالة قذرة ولكن لما زارت مصر الامبراطورة اوجيني قرينة نابوليون الثالث امبراطور فرانسا طلبت اخراج اولئك المقعدين منه وردهم الى أصلهم . والذي يستلفت الانظار في هذا الجامع شكل قبابه واقواسه التي تعد اجمل مما صنعه الصناع في الاعصر الاولى ونقله عنهم المهندسون في هذه الايام وصاروا يعملون قواصر على هيئة نصف دائرة مما تراه شائعاً في الابنية الحديثة . اما رسم المأذنة فيقال ان

ابن طولون قد وضعهُ بيده وهذا ليس من الامور العسيرة فان التراجمة والادلاء يدركون كنه هذه المأذنة ولا يصعب عليهم ادراك رسمها ووضعها · ومعلوم انه كان يوجد في الكنائس القبطية قديماً حوض مملوء ماء للاغتسال في خميس العهد وعيد الغطاس فنقل المسلمون استعمال هذا الحوض ووضعوا في جوامعهم الآن ما يسمونه «ميضة» للوضوء · وقد صنع المهندس القبطي ميضة لجامع ابن طولون جميلة الشكل منمقة بالفسيفساء والاحجار الملوَّنة ووضعها في صحن الجامع · وقد وُجدت كتابة منقوشة في رواق الجامع فيها وصف وتاريخ بنائهِ وهذه الكتابة لا تزال واضحة ظاهرة كأنها حديثة العهد · والى جانب هذا الجامع بنى ابن طولون ديوان للحكومة ومدرسة جامعة عين لها فقيهاً ينتابها كل اسبوع مرة حيث يلقي شيئاً من الاحاديث الاسلامية وهو علمٌ بسيطٌ لا يحتاج لعقل واسع وذكاء خارق ولكن الاتراك لم يكونوا يميلون لاستيعاب هذه الدروس مع ان احمد اجبر اولاده واحفاده وندمائه على الحضور الى تلك المدرسة لتلقي علم الحديث فيها · ولما تمّ بناء الجامع الجديد احتفل ابن طولون بتدشينه احتفالاً باهراً عظيماً وخلع على المهندس القبطي خلعة فاخرة ولم يرسلهُ الى السجن كالمرة الاولى بل دفع له جميع ما يستحقهُ وعين له راتباً يتقاضاه مدة حياته · ولكن هذا المهندس المسكين اجبر بعد ذلك بسنين قليلة على اعتناق الديانة الاسلامية فرفض وقاوم فامر السلطان بقطع رأسه واخماد انفاسه

وعند ما اتم ابن طولون بناء مدينته وجامعه الجديدين نادى بغزو

الاروام واقامة حرب دينية ضدهم . فسار اولاً الى سوريا حيث قابله واليها بالخضوع والتسليم ثم حول وجهه نحو اسيا الصغرى واخذ انطاكية وموبسويستا وعدانه وطرسوس . ولم يكد احمد يخلد الى الراحة حتى جاءته الاخبار تترى بان ابنه الاكبر عباس الذي اقامه وكيلاً له في مصر اثناء غيابه عمد الى العصيان ضد ابيه واعلن نفسه حاكم مصر المطلق

فلم يسع ابن طولون الا العودة لمصر على جناح السرعة بعد ان ترك اكثر قوّاته في اسيا الصغرى تحت قيادة قائد اسمه لؤلؤ . فلما بلغ عباس ان قدم ابيه وطأت ارض مصر ترك الفسطاط وفر الى الجيزة بعد ان اخذ معه جميع الاموال الموجودة في الخزينة وقدرها مليونا دينار (او مليون ومائتا الف جنيه مصري) ورافقه احمد الواسطي الذي كان عينه ابن طولون مساعداً لابنه عباس . وقد عول الواسطي بعد ذلك على الأوبة وعدم مشاركة عباس في العصيان ولكن عباس كبله بالحديد والاغلال لئلا يفرّ هارباً

وقد أرسل ابن طولون عدة مكاتب لابنه فيها يؤنبه على عمله ويطلب منه العدول عن هذا العداء وهو يعفو عنه ولكن جماعة الاتراك الذين حرضوا عباس على العصيان في بادئ الامر اغروه على عدم سماع أقوال أبيه لعلمهم انه اذا عفى ابن طولون عن ابنه فهو لا يعفو عنهم بل يقتص منهم ولذلك ارتحلوا لجهة الشمال الغرب الى ان وصلوا القيروان فطردهم حاكمها فعادوا ادراجهم حيث التقوا بجيش ابن طولون ووقعت لهم معه وقائع طويلة انتهت بانهزام عباس واسره وحمله الى الفسطاط وذلك في خريف سنة ٨٨١

وبعد ان مكث عباس ثلاثة شهور في السجن احضره أبوهُ قدامهُ وواجههُ برفاقهِ الذين اشتركوا معهُ في الثورة ثم طلب منهُ أن يقطع أيديهم وأرجلهم بيده . فأطاع عباس الامر وشوه أجسام اصحابه ولذلك وبخهُ ابوهُ ولامهُ لوماً شديداً على نذالته وخسة طباعه واسراعهِ في قتل أصحابهِ الذين ساعدوهُ على عملهِ وأجابوا طلبه في عصيانهِ وحينئذٍ جلده جلداً صارماً واعادهُ لسجنهِ كما كان

وكان يجول في خاطر ابن طولون اعمال ومشروعات جمة وتطمح نفسهُ الى التوسع في الملك ولكنهُ لم يكن لديهِ مال يساعدهُ على غرضهِ لان ابنه العاصي أفرغ الخزينة كما ان حظهُ لم يسقهُ الى اكتشاف كنز جديد ولذلك عمد الى طريقتهِ القديمة ودقّ على نغمة ولاة المسلمين وهي سلب الاقباط ونهب أموالهم وذلك بواسطة خليع زنيم منهم شكي ضدهم وارشدهُ الى طريقة لابتزاز ارزاقهم .

وكان البطريرك شنوده قد انتقل الى رحمة مولاه عند ما كان احمد يحارب ابنهُ فلم يطالب ابن طولون خليفتهُ خائيل الثالث بدفع المبلغ المفروض عند رسامة بطريرك جديد لاشتغالهِ بالحرب مع ولدهِ . ولما اكتفى احمد بما أخذهُ من الاقباط مؤخراً وأغمض جفنهِ عن ظلمهم واضطهادهم نهضت هذه الامة الاسيفة الى تعمير الكنائس وتشييد المعابد يتقدمها زعيمها ومقدامها البطريرك خائيل الذي افتتح عملهِ بتكريس كنيسة بنيت في سخا (بمديرية الغربية) باسم ماربطلومايس . وعند حلول ميعاد تدشين هذه الكنيسة

سار البطريرك مع كثيرين من الاساقفة وجمٍّ غفيرٍ من أعيان الشعب الى سخا . فلما دخلوا الكنيسة لم يجدوا اسقف الابروشية حاضراً لاستقبالهم فظلوا ينتظرونه مدة من الزمن ولما لم يجيء ارسلوا اليهِ رسولاً يستدعيهِ فعاد الرسول وقال ان الاسقف لم ينتهِ من تناول طعام الفطور الذي كان قد دعى اليهِ كثيرين من الخصائهِ والاصدقاء (١) فغضب الاساقفة الذين جاؤا مع البطريرك من معاملة زميلهم هذهِ وسألوا رئيسهم ان يبتدىء بالخدمة ولا ينتظر هذا الاسقف . وبعد اخذ ورد قبل البطريرك وقام بإداء الخدمة المقدسة وحينئذٍ دخل اسقف سخا المشار اليهِ وهو يكاد يتميز من الغيظ لان كاهناً آخر تعدى على حقوقهِ ومارس فريضة العشاء الرباني في كنيستهِ الخاصة بهِ ثم سار نحو المذبح وامسك خبز التقدمة وطرحهُ في الارض وخرج مغضباً حانقاً . وكان الخبز الذي رماهُ الاسقف غير مقدس بعد فاستعاضهُ البطريرك بغيره واكمل القداس ووزع القربان على الشعب

وفي اليوم التالي قبل ارفضاض الجمع شكل البطريرك مجمعاً من الاساقفة الذين نظروا تلك الحادثة الشاذة وحكموا باجماع الاراء بحرمان اسقف سخا وخلعهِ وتعيين غيرهُ مكانهُ . فما كاد المجمع ينطق بهذا الحكم حتى سار ذلك الاسقف الخائن الى مصر توّاً وذهب الى ابن طولون الذي اتخذ هذا الحادث

(١) في ما تقدم دليل واضح على ان الصيام قبل العشاء الرباني لم يكن متبعاً في تلك الايام . وهذا يظهر جلياً من عدم اعتراض الحاضرين على افطار الاسقف قبل المناولة بل هم اعترضوا فقط على عدم اهتمامه بحضورهم

حجة بها يتداخل في أمور الكنيسة القبطية ويمد يده بالسوء . فاكرم ابن طولون وفادته وأرسل حالاً فاستدعى البطريرك خائيل وطلب منه أن يسلمه جميع الاواني الذهبية والفضية الموجودة في الكنائس القبطية في القطر المصري بأسره وكل معدن يمكن تحويله الى نقود ومسكوكات . أما البطريرك فرفض هذا الطلب بتاتاً ولذلك امر ابن طولون بسجنه فسجن

وقد بقي هذا البطريرك المسكين سنة كاملة في السجن حتى ظهر لابن طولون ان السجن والموت لا يرعبانه ولا يحركان جنانه فهو لا يجيبه الى تسليم اواني الكنائس ولو كان بين السيف والنطع ولذلك اضطر احمد اضطراراً ان يخرجه من هذا السجن الضيق المظلم على شروط اتفق عليها مع المستخدمين الاقباط الموجودين في معيته . ذلك ان يوحنا باشكاتب المعية ومقار ابنه وعدا احمد ان يقدما له مبلغاً فداء للبطريرك والكنائس فرضي احمد على شرط ان لا يقل عن عشرين الف قطعة من الذهب طلب مقار وابنه من البطريرك ان يجمعها من ابنائه فقبل البطريرك الاسيف دفع هذه الغرامة الرابية حباً في خلاص اولاده من شقاء يحيق بهم واضطهاد يقع على رؤوسهم الا ان الصعوبة الكبرى كانت ان نصف هذا المبلغ يدفع في مدة شهر من الزمان والنصف الاخير يدفع بعد مضي اربعة شهور

فبداء البطريرك يبيع بيوتاً موقوفة للكنائس واراضي خارج الفسطاط كان يقطنها جماعة من الاحباش . وقد انتهز اليهود فرصة الضيق هذه التي كان البطريرك واقعاً فيها واخذوا يساومونه على شراء كنيسة

للاروام كانت في قبضة الاقباط ولكنها خربت وتهدمت فلم يكونوا يؤدون فيها خدمة . وكان اليهود يعتبرون مكان هذه الكنيسة من اقدس الاماكن واطهرها ولا زالوا يعتقدون هذا الاعتقاد الى الآن حيث زعموا ان فيها قبر النبي ارميا . وكل الذي نعرفهُ عن هذه الكنيسة انها كانت كنيساً قديماً لليهود بني قبل بزوغ شمس الديانة المسيحية فلما اعتنق اكثر يهود بابيلون الدين المسيحي في القرن الاول للمسيح حوَّلوا كنيسهم الى كنيسة . وقد ذكرنا في الفصل الثاني من المجلد الاول من هذا التاريخ ان نسخة قديمة من اسفار العهد القديم كانت موضوعة في مكان مقدس في ذلك الكنيس لا يعلم بوجوده احد سوى اليهود وقد زعموا ان هذا السفر كتبهُ عزرا النبي ولذلك لم يكونوا يفتحونه ولا ينظرون صفحاته كما انهم حرموا كل من مد يده اليه بسوء وعدوهُ اثيماً جانياً (١) ففي ايام ضيقة البطريرك خائيل اشترى اليهود هذه الكنيسة القديمة التي لا تزال باقية تحت يدهم لغاية يومنا هذا

وبعد بيع الاراضي والمنازل والكنائس القديمة لجمع هذه الغرامة الباهظة اجتمع الاساقفة معاً وقرروا فرض ضريبة شخصية على ابناء ابروشياتهم اود ان جمعت هذه الضريبة واضيفت الى المال الاصلي ظهر ان كل هذه المبالغ

---

(١) منذ ثماني عشر سنة مضت ذهب رجلان احدهما اسكوتلاندي والثاني اميركاني الى الكنيسة المذكورة وقبضا على ذلك الدرج في المكان الذي كان موضوعاً فيه فهاج اليهود وماجوا ومن ذلك الحين اخفوا هذا السفر المقدس فلا يعلم احد بمكانه الآن . اما تاريخ كتابة هذه النسخة فلا يعرفه احد قط

قليلة زهيدة في جنب المطلوب دفعة فضلاً عن ان الشهر المضروب لدفع نصف الغرامة مر مرّ السحاب فوقع البطريرك في يأس وقنوط ورأى العذابات المريعة والموت الاحمر تتمثل امام عينيه ولكنه لم يهتز بهذا كله مثل ما خاف على يوحنا وابنه مقار اذا هو لم يحصل على الدراهم ولم يتمّ الوعد الذي وعداه لابن طولون

في هذه الظروف المرّة سار خائيل في طريق ظل باقي عمره يأسف من انتهاجها لانهـا غطت تاريخ حياته الابيض بلطخة سوداء • وتفصيل ذلك ان في المدة التي كان فيها هذا البطريرك سجينا خلت نحو عشر اسقفيات من اساقفتها وكان لابد من تعيين اساقفة فيها • وكان مركز الاسقف خطيراً مهماً رغماً عما يتهدده من الاضطهاد والاضطراب ولعل اهميته نشأت من تسلط الاسقف سلطة مطلقة على مواطنيه وابناء جلدته الذين يجدهم دائماً طوع امره لما له عليهم من النفوذ الديني الملازم لهذه الوظيفة • اما الطريقة التي اتبعها البطريرك خائيل في هذه الظروف فهي انه فرض على كل من يبتغي الاسقفية ان يدفع مبلغاً باهظا من المال وقت رسامته حتى بذلك يؤدي المطلوب منه لابن طولون • فلم يكد هذا الخبر ينتشر حتى توافد عشرة اشخاصاً دفعوا المبالغ المفروضة وعينوا اساقفة • وبهذه الواسطة وقع خائيل في مصيبة تبكيت الضمير لانه كان اول بطريرك اخذ فضة لاجل المواهب الروحية مع ان له عذراً واضحاً يبرر عمله هذا حيث انه لم يأخذ شيئاً لنفسه مما جمعه بل هو دفع تلك النقود لرفع ضيم واضطهاد كان وقوعها على امته امراً محتماً كما انه لم يقل

احد من المؤرخين ان خائيل سام غير كفوء لانه قدم فضة اوذهباً ٠
والنتيجة ان عمل البطريرك القبطي أشرف بكثير من تصرفات نواب
الحكومة الانكليزية الذين يدفعون الاموال الطائلة لاغراء الشعب على
انتخابهم كما انهم يأخذون مرتبات في مقابلة نيابتهم عن الامة ٠ ولا يغرب
عن ذهن اللبيب ان اساقفة الاقباط قديماً دفعوا تلك المبالغ فدية لكنيستهم
كما اشرنا قبلاً ولكن اساقفة الكنيسة الانكليزية الذين يتمتعون بالسلام
والامن في ظل حكومة ملك مسيحي لا يزالون يدفعون الى يومنا هذا مبلغاً
لا يقل عن ثلثمائة جنيه انكليزي يؤدونها ضريبة للحكومة ولرئيس الاساقفة
يوم رسامتهم

ولما لم تكف كل هذه المبالغ لدفع تلك الغرامة الثقيلة عمد البطريرك الى
طريقة اخرى بها يجمع بعض المال وهي تأجير المقاعد المخصصة في الكنائس
لجلوس الرهبان حيث ان عادة هاتيك الايام كانت ان للراهب مقعداً خاصاً
به يجلس عليه اثناء الخدمة ولا يصح لغيره ان يستعمله ٠ وهكذا اضيفت
اجرة الكراسي هذه الى الاموال المجموعة قبلاً وهذه وتلك لم تكن كافية
للسداد وحينئذ اضطر البطريرك ان يسأل مدرسة الاسكندرية اللاهوتية
القائمة وقتئذ بتدبير شؤون الكنائس في هذه المدينة ان يبيعوا جميع انواع
النقوش والزخارف الموجودة في كنائسهم ويرسلوا ثمنها له لكي بواسطته وبغيره
يتقي شر اضطهاد لا يعلم عاقبته الا الله علام الغيوب

وقد رفض اكليروس الاسكندرية في بادئ الامر اجابة طلب

البطريرك ولكنهم رضوا اخيراً على شرط ان البطريرك وخلفاءه يتعهدون بدفع الف قطعة من الذهب مساعدة سنوية لكنائس الاسكندرية . فمن هذه الموارد المتعددة جمع البطريرك خائيل عشرة الاف قطعة من الذهب في نهاية الشهر المضروب اجلاً ودفعها لابن طولون

ولكن الزمن لم يفسح في اجل ابن طولون حتى يتم ما بدأ به من المشروعات الجليلة بل اعتدى الموت عليهِ وهو في عنفوان الصبا وريعان الشباب . قيل ان ابن طولون بينما كان يحارب اسيا الصغرى اصابهُ مرض عضال نشأ من شربه مقداراً وافراً من لبن الجاموس . وقد قال احد المؤرخين ان الطبيب القبطي الذي كان يعالج احمد اشار عليهِ بالحمية والابتعاد عن المآكل العسرة الهضم خوفاً على حياتهِ ولكن احمد عصى اوامر طبيبهِ كبراً منهُ او جهلاً ولذلك اشتدت وطأة المرض عليهِ فعزم على العودة الى مصر تاركا تدبير مهام الحرب لاحد قواده فحملوه على حمالة من سوريا الى الاسكندرية ثم وضعوهُ في سفينة الى ان وصل الفسطاط حيث ازداد المرض عليه واشرف على الموت فاستدعى جميع الاطباء الموجودين في الفسطاط وطلب منهم ان يشفوه و يعيدوا اليهِ حياتهُ الذاهبة والا يوردهم حتفهم ويذيقهم الموت الاليم . ثم امر باقامة احتفال يشترك فيه ائمة الاديان المختلفة في مصر لتقديم طلبات وتضرعات لله ليشفي ابن طولون من مرضهِ . فتقدم هذا الاحتفال الديني جماعة من فقهاء المسلمين يحملون القرآن وتلاهم اساقفة وقسوس الاقباط يحملون الاناجيل و بعدهم معلمو المدارس والتلامذة وسار هذا الموكب في

حفلة حافلة الى اعلا قمة المقطم حيث ركع الجميع امام الله المعبود من كل هذه الخلائق طالبين البره لاميرهم السقيم · وقد وزعت الصدقات على فقراء المسلمين فقط واقيمت الصلوات والدعوات في الجوامع ليلاً ونهاراً . وكانت النتيجة ان صحة ابن طولون انحطت بدل التقدم وقواه ضعفت عوضاً عن التحسن وشعر بدنو اجله وحينئذٍ امر باطلاق رجل كان قد سجنه ظلماً واستغفر الله عما ارتكب في حياته ونطق بالشهادتين واسلم الروح لباريها

الفصل الرابع والاربعون

الدولة الاخشيدية

سنة ٨٨٤ للمسيح و٦٠٠ للشهداء و٢٧٠ للهجرة

مات احمد ابن طولون عن نحو ثلاثين ولداً ذكراً ظلوا أحياء بعد موته ولما كان بكره عباس قد اضاع ماله من الحق في وراثة الملك عن أبيه لسبب عصيانه وعقوقه آلت السلطة الى ابنه الثاني واسمه خمارويه · وقد قال بعض المؤرخين ان ابن طولون قبل موته عفى عن عباس واخرجه من سجنه ولكنه أوصى بالملك لابنه الثاني الآنف ذكره · ومن الثابت المعلوم ان عباس قتل بعد تمليك اخيه الذي قتله رغماً عنه اتباعاً لدسائس المفسدين الذين اغروه بذلك لكي يستريح منه · ولما استتب الملك لخمارويه اعفى الاقباط من دفع

العشرة آلاف قطعة من الذهب وهي نصف المبلغ الذي فرضه ابوه على البطريرك خائيل ثم دفع لهم الايصال الخاص بذلك حتى لايعود احد لمطالبتهم ·
وكانت عادة هذا الملك ان يدفع جزية سنوية للخليفة ولكنه ظل مستقلاً استقلالاً تاماً مدة الاثني عشرة سنة التي فيها حكم مصر وسوريا والقسم الاكبر من اسيا الصغرى حكماً مطلقاً لايشاركه فيه احد · واول عمل شرع فيه خمارويه انه بنى قصراً جديداً في المدينة التي أسسها أبوه وللعرب حكايات واقاصيص عن هذا القصر تقصر العقول عن تصديقها لبعدها عن الحقيقة · من ذلك انهم قالوا ان السلطان هذا وضع في حدائق قصره الجديد تماثيل والصاباً له ولزوجاته الكثيرات ثم عمل بحيرة قطرها تسعة وعشرين متراً وملأها بالزئبق · ومن المؤكد ان مسألة التماثيل لاحقيقة لها لان المهندسين الاقباط الذين كانوا يبنون القصور والصروح لمواليهم المسلمين لم يكن يسمح لهم بوضع تماثيل أو نقوش أو صور اشخاص بشرية في العمائر التي شادوها للمسلمين ومن هنا يتضح كذب القول السابق ذكره

وبعد ذلك ببضع سنوات مات الخليفة المعتمد وخلفه المعتضد فرأى سلطان مصر ان يتقرب الى الخليفة الجديد بتزويج ابنته بابنه طمعاً في تقوية مركزه واعلاء سلطته · فرضي المعتمد بذلك وطلب ان يأخذ الفتاة زوجة له بدل ان يزفها الى ابنه وعليه سارت العروس من مصر الى دمشق في موكب حافل يتقدمه والدها وعيون مصر وارباب الحيثيات فيها · وبينما كان خمارويه في دمشق يفرح ويطرب دبرت له زوجاته مؤامرة مربوطة الاطراف كانت سبباً

في هلاكه وهو في الحادية والثلاثين من عمره (١) . وخلفه ابناه جيش ثم هرون الذي ظل استقلال مصر يتراوح في يديه كالقصبة المضطربة الى ان جاءت سنة ٩٠٤ للمسيح (٢٩٢ للهجرة) حينما ارسل الخليفة الجديد المكتفي جيشاً على مصر تحت قيادة محمد بن سليمان ليستردها لسلطانه . وكانت النتيجة ان هرون مات في ساحة القتال وقام بعده عمه شيبان وبذل جهده في اعادة السلطة القبضة يدهم ولكن رعيته اغتالت حياته في ظرف شهر واحد . وهكذا اطبق الزمان بكلكله على ذرية ابن طولون اذ أتى القبض على نسله وضمت املاكهم لجانب الحكومة ثم أرسل عشرة من كبار عائلته الى بغداد مكبلين بالحديد والاغلال . وقد تولى مصر في ذلك الحين رجل اسمه عيسى النوشري فذاقت هذه البلاد الاسيفة منه ومن الذي وقع قبله كل مر وبلاء ومات البطريركان القبطي والرومي في ابان هذه المصائب وبقي الكرسيان خاليين مدة من الزمن ولم يتجاسر الشعبان على انتخاب بدل لبطريركيهما . والذي يراجع اقوال المؤرخين في هذا الصدد يجدها مضطربة مرتبكة الا انهم اتفقوا جميعهم على ان البطريركة القبطية بقيت بدون بطريرك مدة اربعة عشر عاماً والرومية احدى عشر .

---

(١) كان خمارويه ميالا للمسيحية والمسيحيين حتى قيل عنه انه كان يصرف ساعات من النهار واقفاً امام صورة في كنيسة الاروام بالقصير بهيئة التعبد والخشوع . وكان أيضاً صديقاً حمياً للرهبان في القصير يميل اليهم ويجنح الى البقاء معهم حتى انه بنى لنفسه غرفة وسط صوامعهم لكي يتمكن من مشاهدتهم وقت العبادة والتمتع برؤية الصور المقدسة

وكان آخر بطريرك للاروام مخائيل جلس على الكرسي البطريركي سبعة وثلاثين سنة شهد فيها قيام دولة ابن طولون وسقوطها ولكنه لم يعمل في اثنائها ما يستحق الذكر سوى انه ارسل جواباً الى فوطيوس بطريرك القسطنطينية يهنئه فيه على رجوعه لمنصبه مرة اخرى · وكان فوطيوس هذا قد عزل بحكم من المجمع الكنائسي الثامن ثم تشكل بعد ذلك مجمع في القسطنطينية من نواب جاؤا من رومية ومن أروام مصر وأعادوه لمنصبه · وفي جواب التهنئة هذا أتى ميخائيل بطريرك الاروام على ذكر المطارنة الجدد الذين ترقوا حديثاً وهم زخاري لدمياط ويوحنا لبابليون واسطفان للاقصر وثاوفيلوس للمنيا

وبعد هذه الفترة تعين بطريرك للاروام اولاً في مدة مكنين (اوتكين) الذي جاء بعد عيسى النوشري لامارة مصر · وهذا البطريرك الرومي الجديد كان مثل باقي بطاركة الاروام جيء به من خارج مصر فان مسقط رأسه مدينة حلب وقد انتخبه ورسمه بطريرك اورشليم سنة ٩٠٧ ولما وفد على مصر رفض جماعة الاروام قبوله او الاعتراف برتبته ما لم يعيدوا انتخابه ورسامته مرة ثانية · فقبل هذا البطريرك شرط رعيته وغير اسمه الاجنبي من كريستدلاس الى اسم عربي هو عبد المسيح

وبعد ذلك بنحو سنتين ـ اي سنة ٩١٠ ـ اختير راهب اسمه غبريال من دير انبا مقاره بطريركاً للكنيسة القبطية · وكان هذا البطريرك الجديد تقياً سهل الاخلاق دمثاً ولكنه لم يكن قوياً شديداً ذا ارادة تتغلب على المصاعب · يدلك على ذلك انه اجرى الضريبة التي فرضها سلفه خائيل على

كل اسقف برسم جديد وذلك لكي يدفع الرسم المطلوب لكنائس الاسكندرية الذي تعهد به خائيل في اوقات ضيقاته • كذا لم يلغ غبريال الضريبة الشخصية التي كانت مضروبة على اعضاء الكنائس القبطية سداداً الطلبات ابن طولون الجائرة الباهظة بل ظل هذا البطريرك الجديد يتقاضاها كما كانت

وبعد جلوس البطريرك غبريال بقليل وقع على مصر شقاء جديد قبل ان تفيق من المصائب القديمة وتفصيل ذلك انه في سنة ٨٩٣ مسيحية (٢٨٠ هجرية) وفد على مصر رهط كبير من العرب يلقبون انفسهم بالفاطميين زعماً منهم انهم من سلالة فاطمة ابنة النبي فاستحوذوا على الخمس مدن الغربية والبلاد المجاورة لها ووضعوها تحت سلطتهم • وبعد مضي ستة عشر سنة على قدومهم قام رئيسهم ونادى بنفسه خليفة تشبهاً بالخليفة الاموي في اسبانيا (الاندلس) والخليفة العباسي في بغداد • وقد جعل هذا الخليفة الفاطمي مدينة القيروان عاصمة للمملكة • اما المدينة القديمة التي ذكرناها في أوائل المجلد الاول تحت اسم قورينة فقد اخربها العرب عند ما فتحوا هذه البلاد اول مرة (سنة ٤٦ هجرية) وازالوا معالمها ثم بنوا بدلها مدينة على مسافة قريبة من مكان المدينة الاولى وسموها باسمها بعد ان اخذوا انقاضها وادوات العمارة الموجودة فيها واستعملوها في بناء مدينتهم الجديدة

ولما استتب الامر للخليفة الفاطمي في القيروان عقد النية على اخذ مصر تلك الدرة الثمينة في المشرق باسره التي طالما تخاطفتها الامم وتلقفتها الشعوب دون ان يقوم من بينها من يحميها او يذود عن حوضها المتهدم • ففي سنة

٩١٣ م (٣٠٠ هـ) سار الخليفة الفاطمي على مصر باربعين الف مقاتل فاخذ الاسكندرية وحاصر الفسطاط ولكنه لم يلبث طويلا حتى هزم بعد ان تكبد خسائر جمة وعاد قافلاً الى الاسكندرية حيث بقيت في قبضة يده مدة من الزمن لم يستطع فيها دفع خصمه عنا فتركها عائداً الى بلاده راضياً من الغنيمة بالاياب · اما المصائب الجمة والبلايا المدلهمة فقد وقعت على رؤوس الاقباط في اثناء هذه الحرب لان الدهر اقامهم هدفاً لكل مصيبة يصيبه الضارب من الخارج ومن الداخل · واعظم ويل حلّ بالاقباط حينئذ احتراق كنيستهم الكبرى الكائنة بالاسكندرية المعروفة باسم القيصرية اذا اطلق فيها المسلمون الفاطميون النار فلم تبق عليها ولم تذر · ولم تمض سنوات قلائل على هذا الحرب حتى عاد الفاطميون يشنون الغارة على مصر بعد ان عقدوا النية على محاربتها في الاسكندرية والفيوم حتى يدوخوها

وفي سنة ٩٢١ توفى البطريرك غبريال وخلفه قزمان الثالث · وكانت تلك الحروب الدائمة وما تبعها من مصائب واهوال سبباً في فصم عرى العلاقات بين الكنيسة القبطية وربيبتها الحبشية اذ بقيت هذه العلاقات منقطعة مدة مائة سنة او تزيد · ويغلب على الظن ان وظيفة المطران في تلك البلاد كان يؤديها ملوك الحبشة في هذه الفترة وقد قال ابو صالح المؤرخ ان ملوك الحبشة كانوا يعتقدون انهم مرشحون لاتمام الوظائف الكهنوتية العالية مثل ترشيحهم لتأدية المواجب السياسية والادارية حتى ان بعضهم ادّى فريضة العشاء الرباني في احتفال أقيم في الكنيسة الحبشية · ولما جلس قزمان على السدة

البطريركية في مصر جاءه وفد من الحبشة يرجو تعيين مطران قبطي لكنيستهم خصوصاً وان مليكهم بلغ من العمر اشدَّه واشرف على حافة الابدية وليس له سوى ولدين قاصرين لا يصلحان للحكم فلا بدَّ من تعيين مطران يكون قيماً عليهما ويدبر شؤون المملكة الى ان يبلغ الولدان سن الرشد · فلبى قزمان طلب الوفد ورسم رجلا اسمه بطرس لهذا الغرض وارسله الى الحبشة حيث استقبله شعبها بترحاب وفرح زائدين واقاموه بعد موت ملكهم وصياً على ابنيه · ولما كان الملك يحتضر على فراش موته استدعى اليه المطران بطرس وقال له ان لا ينظر الى من هو احق بالملك من ولديه من حيثية عمرها بل ينظر الى الاهلية والاستحقاق حتى اذا كان الاصغر أليق من الاكبر فلا عبرة بالبكورية بل يجب تعيين الاصغر لهذا المنصب الخطير · فلما شبَّ الصبيان عن طوقهما ظهر لبطرس ان الاصغر احسن من الاكبر بكثير ولذلك اجلسه على عرش المملكة واقرَّ له السلطة فرضخ اخوه الكبير لهذا الحكم ولم يبدِ ادنى مقاومة بل عاش هادئاً ساكناً مدة من الزمن الى ان دبَّ احد المفسدين في بلاد الحبشة فقامت بسببه حرب اهلية اوجدت شقاء لهذه البلاد النائية · وتفصيل ذلك ان اثنين من الرهبان الذين اعتادوا على التجول طلباً للكفاف بواسطة الاجتداء والشحاذة ذهبا الى الحبشة وطلبا دراهماً من المطران الذي رفض طلبهما ربما لانه كان يعرفهما من قبل انهما من ذوي السلوك المشين · فحنق هذان الراهبان ـ واسمهما مينا وبقطر ـ ودبرا مكيدة سيئة بها ينتقمان من المطران انتقاماً يعود عليه بالضرر وعليهما بالفائدة

وكان بدء هذه المكيدة ان مينا كتب جوابات مزورة بامضاء البطريرك قزمان قال فيها انهُ (اي البطريرك) حزن واكتئب كثيراً عندما بلغهُ ان خائناً اسمهُ بطرس ادعى انهُ تعين بواسطته مطراناً للحبشة ونجح في اغراء الملك المتوفي على الاعتراف بسلطته. وختم هذا الجواب بقوله عن لسان البطريرك انه لم يعين بطرس وليس له ادنى علاقة معه وان مينا حامل هذا المكتوب هو المطران الحقيقي الذي سامه البطريرك للحبشة ولذلك فهو يطلب من ابناء الكنيسة نفي المطران بطرس والملك الجديد الذي عينه هو مختلساً حقوق اخيه الاكبر

وقد دفع مينا هذا الجواب الكاذب الى الابن الاكبر الذي انتهز هذه الفرصة ليسترد بها العرش فشنَّ حرباً اهلية قامت سوقها بينه وبين اخيه الملك وكانت نتيجتها ان الملك أُخذ اسيرا وسجن في مكان منفرد ثم نفي المطران بطرس الى مكان بعيد وحلَّ مينا محله . اما بقطر فيظهر انه اكتفى بتدبيرات زميله الشرير ووجد نفسه في مركز حرج ولذلك فرَّ هارباً من الحبشة وجاء مصر حيث القى على مسامع البطريرك قزمان كل ماوقع من مينا

فلما سمع قزمان ذلك اصدر امره بحرم مينا وشجب اعماله فقام ملك الحبشة الجديد على مينا وقتله شر قتلة طمعاً منهُ في استجلاب رضى البطريرك القبطي ثم ارسل يستدعي بطرس المنفي ولكنهُ كان قد مات من شدة ما لاقاه من العذاب المرّ في منفاه وترك بعده تلميذاً استدعاه الملك الى اكسوم مدينة الاحباش المقدسة ليحل محل معلمه دون ان يرسله الى البطريرك ليرسمه كالمعتاد

بل اجبره على القيام بوظيفة المطرانية واتمام جميع اعمال المطران . وقد طلب هذا التلميذ من الملك ان يسمح له بالذهاب الى مصر حتى ينال الرسامة من بطريركها اتباعا للاصول والقوانين المرعية ولكن الملك رفض طلبه بتاتاً ووضع هذا المطران المسكين تحت المراقبة والسيطرة وامره ان لا يعترف بوجود رئيس له سوى الملك . ولعل هذا الملك الجاهل ظن انهُ اذا ذهب هذا المطران الجديد الى البطريرك ليرسمه فالبطريرك يوصيه بنزع المملكة من يده وتسليمها الى اخيه الاصغر . وقد ظلت الحبشة سائرة على هذا الترتيب مدة تنيف على سبعين سنة لم ترسل فيها الكنيسة القبطية مطراناً واحداً لهذه البلاد . وفي سنة ٩٣٣ م (٣٢١ هـ) توفى البطريرك قزمان وخلفهُ رجل اسمهُ مكاريوس لم يكن من طغمة الرهبان مطلقاً لانهُ كان يقطن مدينة الاسكندرية لحد اليوم الذي صار فيه بطريركا اذ غادرها الى مصر ولم يعد اليها ثانية . قيل ان هذا الرجل كان يحب امهُ حباً زائداً ويحترمها احتراماً كبيراً ولا غرابة في ذلك لانها ربتهُ احسن تربية وهذبتهُ اجمل تهذيب وزرعت فيه مبادئ جنت منها اثماراً لذيذة شهية . ولما تعين مكاريوس بطريركا كانت امهُ لا تزال في قيد الحياة فعزم ابنها مرة ان يزورها ويفرح قلبها بوظيفته السامية فسار الى البلدة التي كانت تسكنها بعد الاسكندرية يصحبه جماعة من الاكليروس والاساقفة فلما دخل مكاريوس منزل والدته ووقعت عينها عليه ذرفت دموعا سخينة وقالت له بصوت اجش انها كانت تتمنى ان ترى نعشه محمولا على اعناق الرجال وخلفهُ النسوة يبكين حزناً من

ان تراه متقلداً هذه الوظيفة الخطيرة ومحاطاً بجمهور الاساقفة والقسوس ذلك لانه لما كان عالمانياً كان مسئولاً عن خطاياه الشخصية فقط ولكنه لما صار بطريركا فهو سوف يسأل عن خطايا كل شعبه وزلاتهم

وفي سنة ٩٣٥ م (٣٢٣ هـ) قام خليفة جديد في بغداد من الدولة العباسية فرفت والي مصر المسمى احمد بن كيغلغ ليحل محله ابو بكر محمد المعروف بالاخشيد وهو صنيعة هذا الخليفة الجديد . فلم يرق هذا الصنيع في عيني احمد بن كيغلغ لانه عزل بدون ذنب جناه فسار الى الخليفة الفاطمي واغراه بالهجوم على مصر واخذها عنوة . فصادف هذا القول هوى في نفس الخليفة الفاطمي الذي سار على مصر بجيش مزبد فاخذ الاسكندرية واستولى على جزء كبير من الوجه القبلي ايضاً . فوقع ابو بكر في دهشة من هذه المفاجأة ولكنه لم يسكت بل قام على هؤلاء المغيرين واجلاهم عن البلاد التي اخذوها ولكنه لم يقدر يخرجهم من الاسكندرية ولما رأى ابو بكر ان الخليفة في بغداد ضعيف لم يمد يده له في اوقات الضيق اعرض عنه وخرج عن طاعته ونادى بنفسه سلطاناً مطلقاً لمصر وذلك في سنة ٩٣٦ م (٣٢٤ هـ) . وقد دام حكم الاخشيد الى سنة ٩٤٦ لم يسترح في اثنائها من الحروب المستمرة ضد اصحاب المطامع من اخوانه المسلمين الذين طمحت انظارهم الى امتلاك سوريا واسيا الصغرى ولذلك زاد الاخشيد مقدار الضرائب المطلوبة من الاقباط المساكين بدعوى الحصول على مال به يجيش الجيوش ويجهز الحملات . فمن هذا يتضح لك انه اذا تخانق القوم وتحاربوا فالمصائب تقع على الاقباط

واذا عاشوا في امن وسلام فهم يوجهون انظارهم في اضطهاد الاقباط وتعذيبهم فكل بلية في العالم انحطت على هذه الامة التعيسة في هاتيك العصور المظلمة وذاقت من انواع المظالم والمغارم ما يفوق حد التصور وتنوء تحته اقوى الامم وامنعها

ويظهر ان الحظ الذي لاقاه ابن طولون في ايجاد كنوز في القبور القديمة اوجد غيرة متقدة في قلوب الذين اخلفوه حتى ان الاخشيد هذا ولع بنبش القبور والبحث عن الكنوز ولعاً يقرب من الهوس والجنون فقد قال المسعودي المؤرخ ان الاخشيد لم يترك قبراً واحداً في القطر المصري باسره الا ونبشه طمعاً في اكتشاف لقية فيها . وقد وُجد في مقبرة واسعة بهو فخيم عليه نقوش وصور زاهية باهية وفي وسطه تماثيل شيوخ وشبان ونساء واطفال صغار من احسن ما صنع الصانعون وافخر ما برأته ايدي الآدميين . وكانت اعين هذه التماثيل من الحجارة الكريمة ووجوهها من الذهب الوهاج او الفضة النقية

وكان بمصر في زمن الاخشيد مؤرخان شهيران احدهما مسلم وهو المسعودي والثاني مسيحي هو يوطيخيوس الذي اشتهر ايضاً بمهارته في فن الطب وهو كان لذلك اليوم منحصراً في المسيحيين واليهود فقط ولكن اقباط مصر فاقوا سواهم فيه من كل وجه وكان اسم والد يوطيخيوس بتريك واسم يوطيخيوس الحقيقي سعيد ولكنه مال الى الاسم اليوناني يوطيخيوس ومعناه ايضاً سعيد او مبارك . وكان ليوطيخيوس هذا مؤلفات ثمينة منها نبذات عن تاريخ الاسكندرية وكتاب في الطب وكتاب عن الجواهر والاحجار الثمينة . اما مسقط رأسه فمصر ولد فيها سنة ٨٧٩ وفي سنة ٩٣٣ (٦٤٩ للشهداء)

أختير خليفة لعبد المسيح بطريرك الاروام في مصر وهو اول بطريرك للاروام اشتهر بمزايا لم يشتهر بها سلفاؤه مذ ما فتح المسلمون مصر · وكانت مدة رئاسته سبع سنوات ونصفاً ذاقت فيها الكنيستان القبطية والرومية انواع العذابات من المسلمين · وقد اشتد بغض الاخشيد لمدينة صان (بمديرية الشرقية) لاسباب لم نعرفها فصب جامات غضبه عليها بعد ان كانت على وشك النهوض من السقطة الهائلة التي اوقعها فيها اخوانه المسلمون قبله اذ هدموا كنائسها الرومانية مرتين وازالوا معابدها ظلماً وجوراً فلما جاء الاخشيد واستتب له الامر في مصر ارسل ضابطاً وفرقة من عساكره الى صان وامرهم بايصاد الكنائس الرومية واخذ كل ما يوجد فيها من ذهب وفضة وجميع اواني المذبح · ولكن اسقف صان اجهد نفسه وباع بعض العقار الخاص بكنائسه وجمع خمسة الاف دينار بكل صعوبة ودفعها للاخشيد رشوة ليكف عما نواه ضد الكنائس وبعد موت بوطيخيوس المؤرخ سقطت الكنيسة الرومانية في وهدة الانحطاط والتأخر وظلت خمسمائة سنة بعد هذا التاريخ وهي مطموسة الاثر عارية من كل خبر لا يعرف عنها شيء سوى اسماء البطاركة الذين قاموا فيها قياماً اسمياً بدون عمل يذكر

وفي زمن الاخشيد وضعت اساسات مدينة المنصورة عاصمة مديرية الدقهلية وقبل أن يتم بناؤها مات الاخشيد وترك طفلا قاصراً وضعه تحت رعاية معتوق من معاتيقه اسمه كافور وهو سوداني الاصل اشتهر بسمة عقله وسمو صفاته · وقد جاء كافور من دمشق الى مصر مع ابي القاسم بن الاخشيد

القاصر ثم شرع في اصلاح حالة البلاد ووضع لها قوانين وشرائع عادلة نافعة .
ولكن قبل ان يستقر بكافور النوى في مصر ظهر في دمشق عدو لدود للاخشيد
هو سيف الدولة الذي وضع يده عليها وامتلكها مع انه كان قد عقد صلحاً مع
الاخشيد قبل موته وتزوج ابنته اتماماً لهذا الصلح فاوقفه كافور عند حده واخمد
نار الثورة في سوريا وعاد الى مصر ليتم الاصلاح الذي بدأ به فلم يكد ينفض
غبار ثورة الشمال عن قدميه حتى اشتعلت نار حرب في جنوب مصر وذلك ان
ملك النوبة (السودان) احتل الواحات الكبرى واخذ عدداً كبيراً من سكانها
اسرى وقد بقي السودانيون يزعجون المسلمين في مصر ويقلقون راحتهم طول
زمن كافور وما بعده

وفي سنة ٩٥٣ توفى البطريرك مكاريوس وخلفه رجل هرم اسمه ثيوفانيوس
وكانت البطريركية القبطية في ذلك الوقت قد تضايقت وتذمرت من دفع
الالف قطعة من الذهب التي تعهد البطريرك خائيل الثالث بدفعها لكنيسة
الاسكندرية في ايام ضيقه ذلك لان الاقباط حينئذ قلّ عددهم وصار اكثر
سكان مصر من المسلمين وسبب هذا فشل الاقباط في ثورتهم الاخيرة سنة
٨٣٢ وما لاقوه بعدها من الظلم والاضطهاد مما افنى اكثرهم وحوّل بعضهم
الى الديانة الاسلامية . فهؤلاء الاقباط الضعفاء المساكين كانوا يدفعون اكثر
الاموال المطلوبة للحكومة ويؤدون جزية وضريبة غير اعتيادية وفوق هذا
كله يدفعون ذلك المبلغ الطائل لكنيسة الاسكندرية مما جعلهم يرزحون
تحت احمال الفاقة والديون فضلاً عن انهم كانوا قد دفعوا للاسكندرية اكثر

شرة اضعاف المبلغ الذي اخذه خائيل منها · وقد رأى ثيوفانيوس ان
و ضجر من هذه الاثارة حتى اضطر كثيرون من الزعانف وحثالة الامة ·
فنزل بانة المسيحية فراراً من هذه المغارم المالية فعوّل حينئذ على مفاوضة
ين البـ كندرية في هذا الامر والذهاب اليها بنفسه عساه يقنعها بالتنازل
البطر الغرامة الزائية · وكانت الاسكندرية في ذلك الحين في قبضة
هم لم ولا يخلو السفر اليها من خطر ولكن ثيوفانيوس تذرّع بالشجاعة وسار
يها بقلب ثابت فوصلها سالماً وعقد مجمعاً من اكليروسها وطرح امامهم هذه
المعضلة ورجاهم اما ان يمزقوا الصك المأخوذ على البطريرك خائيل ويبطلوا
هذه الضريبة أو على الاقل يخففوها ويتنازلوا عن جزء منها · وكانت لكنيسة
الاسكندرية منزلة خصوصية تمتاز بها عن باقي الكنائس القبطية مع انها
كانت تحت سلطة البطريرك اسمياً فقط وفعلياً تحت ادارة لجنة من اعضاء
الكنيسة يدبرون شؤونها ويحافظون على ما لها من الامتيازات الخاصة بها ·
فلهذه الاسباب سلكوا في هذه المسألة التي نحن بصددها سلوكاً يغاير مبادئ
المسيحية التي يدينون بها لانهم رفضوا باتاً البحث في ما عرضه عليهم البطريرك
وصمموا على المطالبة بحقوقهم كما هي

وكان ينتاب ثيوفانيوس احياناً نوعاً من الامراض العصبية كالصرع او
نحوه يفاجئه في غير اطواره فلما حنق من اصرار اقباط الاسكندرية على رفض
طلبه فاجأه هذا المرض فجعل يشتمهم ويوبخهم توبيخاً خرج عن حدود العقل
فنتج من ذلك ان بعض اكليروس الاسكندرية اساؤا الادب لرئيسهم وقالوا

له بهجة زائدة انه لا حق له ان يؤنبهم ويعنفهم لانهم مساوون له في الدر
والوظيفة وانه لايمتاز عنهم بشيء سوى بملابسه التي لم يتحصل عليها با
الشخصي بل بواسطة الذين اختاروه خطاه وسهواً
فلما سمع ثيوفانوس هذا لم يستطع السكوت بل مزق ملابسه تمزي
تحت اقدام الاسكندريين ثم اخذ غضبه يزداد ويشتد حتى استول
المزوع الذي احدث خللاً في قواه العقلية بلغ لدرجة الجنون المحزن ف
القسوس الذين كانوا معه واسطة لجمع ثورانه الاربطه وتكبيله بالاغلال والقيود
لحزن الاسكندريون من هذه الواقعة المريعة وعمهم القلق والخوف . وقد
اجتمع الاساقفة حالاً في الاسكندرية واخذوا يبحثون في الذي يجب عمله في
هذه الظروف الصعبة فقرروا ترحيل هذا البطريرك المسكين الى بابيلون بحراً
وحينئذ انزلوه في سفينة وهو موثوق بالسلاسل ونزل معه جمهور من الاكايروس
وواحد او اثنان من الاساقفة . وكان الامل بشفائه من هذا الداء العضال
معقوداً على هدوء النيل وطيب هوائه ولكن الطبيعة عاكسته فهاجت الزوابع
والاعاصير وصيرت هذا البطريرك المنكود في حالة لاتطاق من الارغاء والازباد
والهذيان والتجديف واخذ يتفوه بكلمات لاتطيقها الآذان ضد الديانة وواضعها
حتى ان القسوس الذين كانوا يلاحظونه ضجروا وتأففوا لولا انهم كانوا يزعمون
انه مملوء من الشياطين والارواح الشريرة فاكتفوا بانزاله في الانبار (جوف
السفينة) وحجزه فيه . فلما اقترب المساء جلس الاساقفة والقسوس على ظهر
السفينة وهم في حالة الكآبة والحزن لان بطريكهم قد زاد اخباله واختبل حاله

وصارت كلماته التجديفية تطن في آذانهم فتؤلمهم وتجرح عواطفهم الدينية فنزل اسقف منهم الى الأنبار الذي كان ثيوفانيوس سجيناً فيه . وقد جرى بين البطريرك والاسقف حادث لا يعرف تفصيله سوى ان الاسقف قتل هذا البطريرك الاسيف قتلاً وربما فعل ذلك دفاعاً عن نفسه اذ يحتمل ان البطريرك هم بقتله هياجاً وجنوناً فلم يرَ الاسقف مندوحة من قتله ولهذا لم يحاكم على فعلته هذه . ولا يبعد ان يكون هذا الاسقف اراد ان يخرج الشيطان من معلمه بقوة الرقى والعزائم حسب زعمهم في هاتيك الايام — وفي هذه ايضاً ـ فلم يفلح وهاج البطريرك من رؤيته فحدث بينهما ماحدث . وقد اثر التجديف والهذيان الذي فاه به البطريرك في زمن جنونه في الاذهان حتى ان رعيته لم تحتفل بموته كمسيحي بل طرحوا جثته في عرض الشوارع كما تطرح جثث الحيوانات

وكانت مدة رئاسة ثيوفانيوس ثلاث سنوات فقط وبعد موته ظل الكرسي البطريركي خالياً نحو سنتين او ثلاث الى ان قام الاقباط واختاروا راهباً عجوزاً فرفض هذه الوظيفة لما فيها من مسؤلية عظمى ولكنه اشار على منتخبيه باختيار رجل اسمه مينا لم تقر كل الاصوات عليه في بادئ الامر لان جماعة ممن لا يفهمون ولا يدركون عارضوا في انتخابه بدعوى انه كان متزوجاً . صحيح ان الرجل كان متزوجا وقد ماتت امرأته من زمن مضى وليس الزواج مانعاً في سبيل البطريركية لان ديمتريوس الملقب بالكرام الذي كان بطريركاً في القرن الثاني كان ذا امرأة وبنين وبهذا البرهان المتين اقتنع المعارضون واختاروا مينا وهو الثاني بهذا الاسم بين البطاركة

وقد جلس مينا الثاني على السدة البطريركية احدى عشرة سنة وصلت فيها مصر الى آخر حدود الانحطاط الناشئ من الظلم والاعتساف . ففي هذه الاثناء مات احد ابني الاخشيد وخلفه الابن الثاني وقد حكم بالاسم تحت مراقبة كافور الذي بواسطة دهائه ومقدرته الشخصية ابقى على الدولة الاخشيدية من السقوط السريع الى حين ولو انها سقطت حالاً ولم تقم لها قائمة بعد ذلك .

وقد كان الاتراك والعرب يكرهون كافور وينفرون من سلطته عليهم كما ان العداء قوي بين المسلمين والمسيحيين في القطر المصري اكثر من ذي قبل ونمت جرثومة التعصب بينهما فكان الاقباط يتطلعون الى السودان منتظرين من ملكه عوناً ونجدة وكان المسلمون ينظرون الى القيروان حيث قام خليفة جديد من الفاطميين اسمه المعز . وكان مع المعز اسير يوناني عرف بالنباهة والشجاعة والامانة فاعتقه المعز وولاه قيادة جميع جيوشه التي افتتح بها هذا الرومي كل اقاليم شمالي افريقيا عدا مصر واخضعها لسلطة المعز . وكان الفاطميون قد وضعوا ايديهم على الاسكندرية والفيوم وجزء من الصعيد قبل ايام المعز كما المعنا لذلك قبلاً فقصد هذا الخليفة ان يخضع مصر برمتها ويضمها الى مملكته ولكنه عدل عن هذا الرأي موقتاً لما شاهده في كافور من القوة واصالة الرأي ولان امه عند ما ذهبت الى مكة للحج مرت بالفسطاط فاكرم كافور وفادتها واتحفها بهدايا وعطايا نفيسة جعلتها تلح على ابنها بتأجيل فتح مصر الى وقت آخر اكراماً لكافور . فانتهز المعز هذه الفرصة واخذ يجري الاستعدادات اللازمة لفتح مصر واهمها حفره آباراً في الصحراء الواقعة بين القيروان ومصر

يستقي منها جيشه عند مروره فيها

وفي سنة ٩٥٦ م (٣٤٤ هجرية) هجم ملك السودان على مصر واخذ اصوان وتركها لعساكره الذين نهبوا كل مافيها ; وكان كافور في ذلك الوقت مشتغلاً في حرب مع سوريا ولكنه لم يسكت عن ملك السودان المسيحي فارسل جيشاً لصدم وقسم هذا الجيش قسمين احدهما رحل في النيل وارسل الثاني براً بالبحر الاحمر وامره ان يقطع خط الرجعة على السودانيين حتى لا يمكنهم من العودة لبلادهم وقد نجح كافور في عمله هذا اذ حمل السودانيين خسائر جمة واخذ منهم قلعة ابريم على مسافة خمسة عشرة خطوة جنوبي اصوان . وقد عاد قائد جيوش كافور الى الفسطاط ومعه ١٥٠ اسيراً وعدد لا يحصى من رؤوس القتلى الذين لاقوا حتفهم في هذه الحروب الشعواء . ولكن السودانيين لم يصبروا على مضض البلوى بل قاموا في سنة ٩٦٧ وشنوا على مصر حرباً عواناً استباحوا فيه البلاد واكتسحوها امامهم الى ان وصلوا اخميم

وقد وقعت مصر في سنة ٩٦٣ في بلاء مر زاد عن كل مصيبة اخرى اذ ابتلاها بجوع قتال بقي فيها نحو تسع سنوات افقدها الزرع والضرع وذلك لان نيلها — وهو روحها وريحانها — قصر عن الزيادة المعتادة فعم البلاد الشرق ثم جاءت بعده ضربة الفيران التي كانت تأكل ماينبت في الارض من كروم ونبات ضعيف خفيف وعقب هذا القحط وباء جارف جعل اكثر المصريين يهجرون بلادهم واوطانهم والذين بقوا في مصر ذاقوا مرارة الفاقة

والفقر · وقد ذكر المؤرخون المسلمون ان ستمائة الف نفس ماتوا سي
الفسطاط وبابلون ومصر هذا عدا عن الجثث التي أُلقيت في النيل مما لا يحصى
عددها · وقال مؤرخو الاقباط ان ابروشيات كثيرة زالت واضمحلت لا
اقباطها ماتوا ولم يبق منهم واحد في ابروشيات برمتها اما البطريرك مينا فلجأ ال
سيدة قبطية ذات ثروة واسعة اسمها دينة من محلة دانيال (غربية) حيث
بقي في ضيافتها كل هذه المدة التي فيها اخذ الفاطميون مصر وانتقلت اليه
من يد كافور الذي جاء بعد الاخشيد فسبحان من يغير ولا يتغير



تم المجلد الثاني ويليه الثالث

